تغريدة عشق

هالة البشبيشي

عنوان الكتاب : تغريدة عشق
المؤلف : هاله البشبيشي
المراجعة اللغوية : عبد الهادي عباس
الإخراج الداخلي : رشا عبدالله
تصميم الغلاف : عبدالرحمن حافظ
رقم الإيداع : ٣٧٦٨ / ٢٠١٧
ردمك : 6-32-6549-977-987
الطبعة الثالثة: يناير 2017

المدير العام : هاله البشبيشي
المدير التنفيذي : شريف الليثي

دار تويا للنشر والتوزيع

dartoya2015@gmail.com
دار تويا للنشر و التوزيع Dar.toya
@Dar_Toya
Dar.toya
(+2) 01150483084 - (+2) 01000706014
٣٥ شارع النصر – المعادي – القاهرة – مصر

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار

تغريدة عشق

هالة البشبيشي

دار تويا للنشر والتوزيع

إِهْدَاء

إليك.. يا من امتلأ به زماني،

فأصبح غدي أمسي،

ويومي أنت!

بشبيشاية

وذات عِشْقٍ..
تلاقى الوجدُ والوصلُ
فانبعثت الآه مِلءَ الكـون

هَالَة البِشْبِيشِى

مِن دُون الحُبِّ..
كُلُّ المُوسِيقَى ضَجِيجٌ
كلُّ الرَّقْصِ جُنُونٌ
كُلُّ العِبَادَاتِ عِبْءٌ

"جلالُ الدِّينِ الرُّومِيُّ"

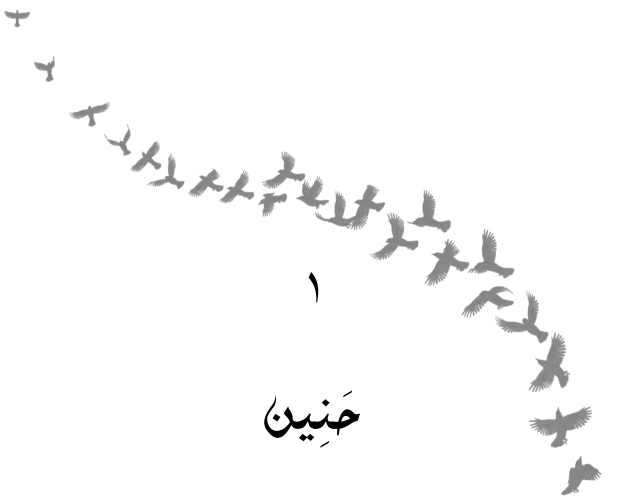

١

حَنِين

قـررتُ أن أفصـحَ عـمَّا بداخـلي، أنْ أطلـقَ لنفـسِي العِنـان، أحرِّرهـا مـما جُبِلـتْ عليـه لتبـوحَ بمكنوناتهـا التي طالمـا قُيِّدَت بمسـمياتٍ ومعتقـداتٍ واهيـةٍ باليـةٍ باسـم المجتمـع والعُـرف والتقاليـد.. اليـوم وبعـد سـنواتٍ مـن التفكـير والـصراع بـين الانصيـاع لقـرارات الغـير وبـين أن أكـون حُـرَّة الـرأي والفعـل، وأن أحـدد لي طريقًـا أختـاره بكامـل إرادتي.. قـررتُ أن أتجـاوزَ قيـودي التـي صُنعـت لتكبيـل حـواء داخـل حـواء.. فـهن مَـن بإطـارٍ مـن الأنوثـة كُبِّلـن وبتأييـدٍ مـن هُـن.. كانـت قيودُهـن.

نشـأتي في حـيِّ العبَّاسـية أعتـزُّ بهـا وأجـدُ فيهـا مـا يُـثري ذاكـرتي ويـروي حنينـي لأيـامٍ ولَّـتْ ولم يتبـق منهـا سـوى عبـقٍ يمـلأ حـواسي كلـما جنحـت الذكريـات إليهـا وفـاحَ

عبيرُ المراهقة والصبا منها.. في حيٍّ عريقٍ له تاريخه على مَرِّ الزمان وما زال يحتفظُ برونقه وأصالته.. كانت العباسية منطقةَ الكُبراء والأثرياء قبل أن تتحولَ إلى منطقةٍ للطبقة المتوسطة وفوق المتوسطة من موظفين وعُمَّال ممن جعل السعي وراء الرزق لهم ولأسرهم.. كانت بكل صدقٍ كدولةٍ متكاملةٍ.. بها من المدارس والمصالح الحكومية والمستشفيات والمجمَّعات الاستهلاكية والمتنزهات ما جعلها منطقةً حيويةً تفي باحتياجات أهلها، كما أنهم أسماء معروفة من الأوساط السياسية والفنية والأدبية، لطالما سمعنا أجدادنا يتداولون أسماءهم فيما بينهم على سبيل الافتخار بأبناء حيهم؛ فمن العباسية كان عبد الحكيم عامر ونجيب محفوظ وفؤاد المهندس ومحمد الموجي وغيرهم من فنانين وكُتَّاب.. تنوَّع وتعدَّد سكانُ العباسية من جميع المستويات والطبقات.. وتكوَّن عالمٌ جميلٌ له سماته، شارع ريدان وشارع الأمراء وشارع يَشبَك وما تميَّز به من فيلات وعماراتٍ أنيقةٍ فاخرةٍ يسكنها أصحابها من ذوي السيارات الفارهة والخدم والتي كان يُطلق عليها وقتئذ "العباسية الشرقية" وبين الوايلية وعرب المُحمدي واللذين تميزا بسوقين من أشهر أسواق العباسية وحتى الآن هما سوق الوايلية وسوق عرب المحمدي الذي كان تُقام فيه

احتفالات غنائية راقصة ويُباع فيه كل صنوف البضائع كل يوم خميس.

لم أكن قد تعدَّيت المرحلة الابتدائية وقتها.. كنتُ الابنة الوسطى بين أخٍ وأختٍ أصغر مني وأختين تكبرانني بسنواتٍ منتظمةٍ كأن أمي حددت وقت إنجابنا كل عامين بالتمام والكمال..

وعلى الرغم من أننا أربع أخوات بنات وأخ ولد.. وبرغم تقارب أعمارنا جميعًا والذي جعلنا نبدو للغير كتوائم، فإنني كنتُ دائمًا أُفضِّل العزلة عنهم جميعًا.. فلا ألعبُ أو أتنزه معهم خارج المنزل إلا نادرًا وأكون مضطرةً من قِبَل أبي أو أمي.. لم يكن قريبًا مني سوى أخي "عادل" الصغير، فكنت برغم أن ما يفصل عمرَيْنا عن بعضهما لم يتعدَّ أصابع اليد فإنني كنتُ أمارسُ غريزة ورغبة الأنثى في الأمومة منذ الصغر معه.. كثيرًا ما كنتُ أدلل أخي وألعب معه وأقص عليه الحكايا التي كنتُ أحفظها عن ظهر قلب من حكايات جدتي لأمي، وبعض القصص التي أدمنت قراءتها معظم ساعات اليوم في العطلات الدراسية وخلسة أيام الدراسة.. وأقول خلسةً لما تعودتُ عليه من سرقة أجمل لحظاتٍ أحببتها لفعل ما أحببته؛ خشية غضب أمي عليَّ أو عقابها لي.. أمي كان لها من الشدة- في التعامل معنا وقت الدراسة- ما يجعلنا نتلفت خوفًا بل

ورعبًا منها حتى أثناء النوم تحسُّبًا لأن تراقبنا ولا ترى الكتاب بين أيدينا أو تجدنا نلهو، ولو بمجرد الحديث خارج نطاق المذاكرة.. كانت كلماتها لنا دومًا أننا حتى ننهي مرحلة الدراسة كلها لا يجوز لنا فعل شيءٍ سوى المذاكرة كل ساعات اليوم وكل الأيام أيضًا.. أما العطلاتُ الصيفيةُ فكان لها وقتٌ لدروس التقوية التحضيرية لعامٍ دراسي جديدٍ مقبلٍ.

كنا مثل أي أسرةٍ متوسطة الدخل تعتمد على- الأب- عائلها الوحيد الذي يعمل لتوفير متطلبات الحياة لها، أبي يعمل بالتدريس الحكومي بمدرسة من كبريات المدارس وأعرقها وقتئذ بالعباسية- مدرسة الحسينية للبنين والتي كان اسمها "مدرسة فاروق الأول"، وهي التي تخرَّج منها الزعيمُ الفلسطيني الراحل "ياسر عرفات"..

أبي هو "الأستاذ محمد أبو الفتوح" معلِّم اللغة العربية، كان أفضل معلم للغة العربية ليس بالمدرسة فقط.. بل بالمنطقة التعليمية بأكملها.. منه أحببتُ اللغة العربية ومفرداتها مما كنتُ أسمعه من أبياتٍ شعريةٍ يُلقيها أو يتغنى بها من آنٍ لآخر.. كان إلقاؤه مميَّز النبرة والأداء، كنتُ أراهنُ إخوتي وصديقاتي على أنه أفضل من أي مذيعٍ بالراديو ولو أنه أتيح له الغناءُ لأجلس عبد الحليم وعبد الوهاب بمنزليْهما من فرط إقبال المستمعين عليه

وتجاهلهما.. كنتُ أستعذبُ صوته وأداءه.. بسببهِ أحببتُ أبيات الشعر والأناشيد والموشحات وبخاصة الصوفية منها وما تتميز به من موسيقى داخلية للكلمات، كنتُ أذوبُ طربًا بها، أتعايشُ معها، كأنها تعزفُ لحنًا بآلاتٍ موسيقيةٍ من نورٍ وأصواتٍ من السماء تحملني معها فوق السحاب.. كم أحببتُ سماع أشعار "الحلاج" منه.. لم أكنْ أُدرك معناها وقتئذ ولكني كنتُ أرى ترنُّح أبي أثناء إلقائها بنشوةٍ بالغةٍ وابتسامة رضا أوحت لي بأنه يقول شيئًا مُحببًا وجميلًا.. فصارت أذني تعشقُ تلك الكلمات ورنينها دون أن أعرف معناها.. وما زلت أتغنى بأبياتٍ منها حتى الآن وصدى صوت أبي ذو البحَّة المُحببة الودودة لنفسي يحلِّق معها وكأنه آتٍ عبر الماضي في مراكب من فضة تسبحُ فوق نهرٍ من أنهار الجنة لينعشَ روحي ويُحييها في لحظاتِ حضوره..

والله ما طلعتْ شمسٌ ولا غربتْ إلَّا وحبُّك مقرونٌ بأنفاسِي
ولا خلوتُ إلى قومٍ أحدِّثهم إلَّا وأنتَ حديثي بين جُلَّاسِي
ولا ذكرتكَ محزونًا ولا فَرِحا إلَّا وأنتَ بقلبِي بين وسواسِي..

شأن كل الأطفال بعمري وقتها.. كانت أيام الدراسة تمرُّ عليَّ بطيئةً ثقيلةً مملةً.. ما تلبث العطلة الأسبوعية أن تبدأ فتنتهي وكأن اليوم أصبح ساعة والساعة في الدراسة

أيام، تظل أمنياتنا اليومية أن تنال مدرستنا من المصائب ما يجعلها تختفي فجأةً من على وجه الأرض.. خاصة وأنا وإخوتي بمدارس حكومية تكتظ بالعشرات في الفصل الدراسي الواحد.. ومع ذلك كنتُ من المتميزات على مستوى المرحلة الابتدائية والتي كنتُ أدرس بها وقتها.. اشتراكي بمعظم الأنشطة المدرسية- تقريبًا- هو ما جعلني أتميز عن رفيقاتي وجعل لي حضورًا متميزًا بينهن دائمًا في أي مجال.. ترأست فريق الموسيقى والكورال والخطابة، بالتأكيد إلى جانب الأنشطة الرياضية أيضًا.. والعجيب أني كنتُ متفوقةً دراسيًّا مع كل هذه الأنشطة ولم تكن لتعطلني عن الدراسة في أيٍّ من المواد الدراسية، كان ذلك يثيرُ غيرة أختيَّ الكبيرتين منِّي؛ وقت مذاكرتي لم يرقَ إلى نصف الوقت الذي كانتا تمضيانه في المذاكرة لكن استيعابي كان أسرع منهما.. وبالتالي محصلة الدرجات كانت تفوقهما وتسعد أبي جدًّا.. وتثير غضب أمي عليهما وليس رضاها عني.. فالطبيعي أن نتفوق- على حدِّ قولها- لِمَ تسعد إذن؟!

كنا ننتظرُ الصيف بحرارته التي كانت تشعلُ فينا وهج اللعب والسفر.. تنتهي الدراسة مع أوائل شهر مايو فنستقبل العطلة الصيفية.. نهرع جميعًا أبناء الحي الواحد إلى المسجد والكنيسة كل منا حسب عقيدته.

العباسية بها من المساجد ما يجعل في كل شارع مسجدًا أو زاويةً، كما تشتهر أيضًا بوجود الكاتدرائية المرقسية العريقة بها وكم من مرة حضرنا مع أمي وجيراننا احتفالاتٍ خاصةً بالأعياد أو الزواج بها.. فلا أنسى إكليل "ميرفت" ابنة جارتنا "طنط جانيت"، كانت جميلة الملامح بيضاء البشرة ممتلئة الجسم تبدو أكبر من عمرها لزيادة وزنها باستمرار حتى إن الفارق بينها وزوجها الذي يكبرها بأكثر من عشر سنواتٍ لم يكن يظهر بينهما لضخامتها وضعف بنيته وقِصر قامته بجوارها، أتذكر الهمسات والضحكات المكتومة التي تداولناها بنظراتنا بنات وأولاد الحي وقت أن كان قداس الزواج مقامًا و"ميرفت " تتأبط ذراع عريسها "صادق" ولم نكن نعلم من يتعلق بمن؟! أهي من تخبئ خجلها وتوردُّ خديْها به أم أنه من تضاءل حجمًا وانتفخ سعادةً وحُبًّا؟ ومع ذلك فقد تحلت وأنارت وجهها ابتسامةٌ بريئةٌ تُنسي تفاصيل جسمها، وتجذب من يراها بشدة لسمات الفرحة المرتسمة على وجهها.. ناسيًا ما تحمله من كيلوات من الشحم على روحها الجميلة الطفولية، ولم أكنْ أتعجب حين أسمع صوت أمي وهي تقولُ حين ينجح أحدنا:

ـ دستة شمع يا تريزا.. دستة شمع يا أم هاشم لما ربنا ينجَّح ولادي.

لم نكن نفرِّق إطلاقًا بين أعيادنا وأعياد جيراننا المسيحيين يومًا ما، أذكر أنه في شهر رمضان كنا نجتمع معًا، صبية وبنات الأحياء بمباركة آبائنا ومعاونتهم المتمثلة في المشاركة الممزوجة بفرحة استقبال لضيف عزيز وغالٍ ما يلبث أن يأتي ليمر سريعًا بنسماته الحنونة الدافئة الروحانية للجميع.. هناك أمهاتٌ كن يطهون النشا بالماء لعمل مادة لاصقة عوضًا عن الغراء أو الصمغ لتوفير ثمنه وإن كان بسيطًا، ولكن الأبسط منه- والأمتع- لنا هو عمله من خامات المنزل للصق وريقات المجلات والصحف التي لونتها البنات بأشكالٍ زخرفيةٍ مميزةٍ كأعلامٍ ورايات يأخذها الصبية ثم يقومون بتجميعها ولصقها على أمتارٍ من الخيوط القوية، نمسك بالخيوط فتبدو كحبال وصال ومحبة صُنِع بأيدينا فيزيد من رباط يُوحدنا كأهل وأصدقاء.. كانوا يصومون شهر رمضان معنا فلا يتناولون أكلًا أمامنا بل وكان معظم الجيران يتشاركون في عمل وتناول الإفطار بعد أذان المغرب في بيت إحدانا؛ ففي أحد المنازل وليمة النساء والمقابل له وليمة الرجال وبالطبع كنا كأطفال بينهم هنا وهناك نمرحُ ونأكلُ ونلعب بفوانيس من صفيح وزجاج ملون.. ولهيب شمعات تحترق بداخله، تمتد لتسخن مقبضة الصفيح الممسك به ومن ثمَ يلسعنا من أطراف أصابعنا، نتألم قليلًا ثم نضحك

في فرحةٍ ونعاود الفعلة مراتٍ ومراتٍ وكأن المتعة هي اللعب بالفانوس أن تحترق أطراف أصابعنا.. بإحساسٍ واحدٍ كنا نحيا.. إحساس العائلة الواحدة.. ولا أنسى حتى الآن صوت عم "سعيد" المسحراتي وهو يُنادي للسحور مُداعبًا سكان الحي..

ـ يا حاج محمد.. يا هاني.. يا عبد السلام.. قوم وحِّد الله.
يا جرجس.. يا مرقص.. يا وليد.. قوم مجِّد سيدك!
السحور ياعباااااد الله.

كانت الكنيسة والمسجد في غير أوقات الصلاة هما بمثابة النادي المُباح والمُتاح لنا كأطفال وقتها، نحن بني الطبقة المتوسطة وأبناء الموظفين والمدرِّسين والمهندسين وغيرهم ممن لا يمتلكون من المال ما يوفر لهم عضوية أحد النوادي المعروفة أو حتى نصف المعروفة، وبرغم إتاحة المدارس وقتها عمل النوادي الصيفية والتي كانت لمدةٍ محددةٍ فإننا كنا لا نحب الانضمام إليها.. فكيف نتمنى هدم وزوال المدرسة طوال العام ثم نأتي آخر العام لنقضي بها العُطلة أيضًا؟!!

.. وفيهما كانت جمعتنا وسعادتنا وترفيهنا وتعليمنا أيضًا.. وما كان يحلو الصيف وعطلته إلا بقيامنا برحلاته الأسرية المميزة من خلال الرحلات الدورية التي كان

ينظمها أهل الحي الواحد وتجمع كل السكان وأسرهم ليومٍ واحدٍ وكانت غالبًا ما تنحصرُ بين القناطر الخيرية.. والحديقة اليابانية بحلوان.. أو الأهرامات أو حديقة الحيوان بالجيزة.. ورحلة سنوية يتيمة صيفية إلى الإسكندرية أو رأس البر أو جمصة لا تتعدى اليوم الواحد تبدأ من فجر اليوم ذهابًا وتنتهي ليل نفس اليوم ولها من الاستعداد قبلها بأيامٍ ما يجعلها حُلمًا وذكرى وحكايات سمر ليالي الصيف كله، وربما العمر كله أيضًا.

الشيخ محفوظ..

أول من علمني تلاوة القرآن.. كان مُحفِّظ القرآن بالمسجد القريب من منزلي- مسجد الجمعية الشرعية- تعلقت بذاك المسجد منذ طفولتي وقت كنا نذهب لصلاة التراويح برمضان مع أبي وأمي وجيراننا، لم نكن نُكمل التراويح لطول وقتها ولكن كنا نستمتع بتمثيل أداء كل الركعات، وهمساتنا وحركاتنا إلى جوار الأهل أثناء الصلاة حتى يسمحوا لنا بصحبتهم بعد ذلك إن وجدونا نكمل الصلاة دون تململٍ أو شكوى من طولها أو تعب أرجلنا من الوقفة.. لم نكن نعي معنى الآيات، فقط نعرف أن الصلاة هي شُكرٌ لله الذي وهبَ لنا بابا وماما والمال

الـذي منـه نـأكل ونشـتري ألعابنـا وملابسـنا.. ومـا إن وصلـت عـلى أعتـاب المراهقـة إلا وكنـتُ مـن أشـهر مرتـادي المسـجد بالعطـلات الصيفيـة والمناسـبات الدينيـة.. كنـتُ أتلهـف للعطلات للاشـتراك بالأنشـطة الصيفيـة بـه فقـد تنوعـت بـين الـدراسي- التقويـة الدراسـية لمـواد العـام المقبـل- والترفيهـي.. ومـا يشـمله مـن مسرحيـاتٍ وأشـغالٍ فنيـةٍ ومجلاتٍ حائطيـةٍ وخطابـةٍ.. والدينـي ومـا يشـمله مـن حفـظ وتـلاوة وتجويـد القـرآن والأحاديـث النبويـة وقشـور مبسـطة للعقيـدة والفقـه بمـا يتناسـب مـع أعمارنـا وقتهـا.

أذكـرُ أننـي كنـتُ محبوبـةً مـن الجميـع بالمسـجد ممـن يُدرسـون لنـا.. فقـط كنـتُ أخـاف مـن أحدهـم؛ الأسـتاذ "صـلاح" وهـو شـاب كان في نهايـة العشرينيـات، يكـبرني بأكـثر مـن ثلاثـة عـشر عامًـا فكنـتُ أراه عملاقًـا ضخـمًا.. لـه مـن البنيـان الجسـدي مـا يميـزه ويجعلـه يبـدو كبطـل كـمال أجسـام.. لم أكـن مبهـورةً بـه كشـاب بـل بالعكـس كنـتُ أخشـاه جـدًّا وأخـاف منـه أيضًـا، لـه مـن الصرامـة والشـدة في التعامـل ومـن الصـوت العـالي مـا يرعبنـي منـه.. كثيرًا مـا تصـوَّرت أن بإمكانـه محـوِي مـن عـلى وجـه الأرض لـو أنـه فقـط عاقبنـي بضربـةٍ مـن يـده التـي تميـزت بكـف كانـت بمثابـة أيقونـة الرعـب.. لم أتخيـل أن هنـاك كفًّـا أكـبر مـن كـف يـد الأسـتاذ صـلاح، فـما بـالي لـو عنَّفنـي مـرةً كـما

كان يُعنِّف الأولاد الذكور ممن كانوا معي في المسجد، كنت أجتهدُ دومًا لأن أكون نشيطة ومتيقظة لكل كلمة منه أو درسٍ يلقيه علينا حتى أتحاشى العقاب. العجيبُ كل العجب أن تلك الملامح الصارمة والمرعبة سرعان ما كانت تتلاشى وتتحوَّل لبراءة وسماحة أثناء الأذان والصلاة!

كنتُ أرى وجهًا غير الذي أراه قبلها بدقائق.. الخشوع والورع له علامات.. لم ولن أنساها على قسمات الأستاذ "صلاح".. حتى إنني لم أجزم وقتها:

هل يتحول من شريرٍ إلى طيب وقت الأذان والصلاة؟ أم أن العكس هو الصحيح.. هو طيب ويتحوَّل معنا أثناء الدرس إلى شرير؟!!

في أيٍّ من الحالات كان له من الهيبة والرهبة والخشوع والسماحة ما يكفيه، كثيرًا ما شردتُ بذهني المراهق وقتها في حال "مس نادية" خطيبته، كيف لا تخافه؟ فيم يتحدثان؟ وهي كالعصفورة الوديعة وهو المُتحول الذي سمَّيتُه الوحش البريء!!

هل تُحبه فعلًا؟ هل يُحبها فعلًا؟ ما هو الحب الذي يجمعهما؟ بل ما هو الحب نفسه؟

ئفي النهاية كان يأخذني خيالي المُراهق والطفولي أيضًا إلى مشهدهما وهي بالثوب الأبيض الطويل ومتعلقة بذارعه الضخم.. ولا أكثر من ذلك.

تعلق قلبي بالمسجدِ..

أصبح كل اهتمامي، حتى إنني كثيرًا ما كنتُ أتفق مع صديقاتي- خلال العطلة الصيفية- أن نذهب قبل موعد الدروس بوقتٍ كافٍ على أن تحضرَ كلٌّ منا من منزلها أدوات التنظيف التي تستطيع إحضارها لتحقيق غرض هذا اليوم.. مساحيق أو سوائل تنظيف وتلميع وغيرها لنقوم بغسيل وتنظيف حوائط المسجد أو السلم المؤدي لقاعات الدروس والمقاعد والطاولات بل وأيضًا الحمامات.. حكى لنا الشيخ "محفوظ"ذات مرة عن مولانا الشعراوي أنه كان يُنظف بنفسهِ حمامات المسجد، فمن باب التواضع وذُل النفس وعدم التكبر كان يفعل ذلك، لكنني اتخذته قدوةً فيما كنتُ أستطيع فعله تقرُّبًا لسيرة شيخٍ أحببته وما زلت أذكر سماحة ابتسامته ونور الإيمان على وجهه، ولم نكن نُخطر أحدًا بما نفعلُ حتى نفوزَ بالثواب كاملًا كما أخبرنا الشيخُ محفوظ بأن الثواب يعظم أجره إن كان سرًّا بين العبد وربه فقط.

كنا نذهب لصلاة الظهر مع المصلين ثم نختبئ بأماكن مختلفةٍ من المسجد، كان العم "مهدي" يُسند إليه غلق أبواب قاعات المسجد حتى موعد الأنشطة والعيادات الخارجية لمستوصف المسجد بعد صلاة العصر.. فقرَّرنا أن نعمل ما بين صلاة الظهر وصلاة العصر حتى لا يرانا.. لو رآنا لعنَّفنا بشدةٍ أو لضربنا وبلَّغ عنا الشيخ الذي كان يتفنن في عقابٍ يليقُ بنا، عقاب بدايته التذنيب طوال وقت الدرس وحرماننا من حفلٍ ورحلة التفوق في نهاية الدورة الصيفية.

عم مهدي

أحد أهم الأشخاص بالمسجد.. وأشهرهم بين أبناء الحي المُحيطين بالمسجد.. كان على مشارف الخمسين من عمره، عامل النظافة والغفير المقيم بالمسجد، كان متوسط القامة، نحيف البنية، بشرته سمراء سُمرة أهل صعيد مصر، تُغطي عينه اليسرى سحابة بيضاء واضحة كانت سببًا في تسميته وقتها من قِبَل الأولاد المشاغبين باسم: "مهدي الأعور".

يمتلك ابتسامةً لا أنساها، تظهر السِّنَّةُ الوحيدةُ التي احتفظ بها خلسةً من فمه ومن الزمن أيضًا على جانب فمه جهة اليمين.. ومع ذلك كنتُ أحب تلك

الابتسامة جدًّا، كانت تُنير وجهه الذي كان يصعبُ في الغالب على من يراه أن يُحدد ملامحه المختبئة وسط تجاعيد رسمت خطوط حياته ومعاناته بدقةٍ، ولم تستطعْ أن تُخفي ابتسامته التي راح يتحدى بها ملامح القسوة التي تركت آثارها على وجهه وبنيته بيد أنها لم تتمكن من روحه فظلت روح طفل داخل جسد كهل.. يُقال إنه أقام واحتمى بالمسجد بعد أن كان يمكثُ به طوال النهار والليل في أوقات الصلاة وغير أوقات الصلاة منذ سنواتٍ بعد أن أتى من الصعيد وأشهر إسلامه بمصر وأصبح اسمه " المهدي" بنور الإسلام.

لم يتزوج العم مهدي قبل مجيئه إلى مصر ولا بعد مجيئه مع مستجدات حياته تلك، فقد وهبَ نفسه لخدمة المسجد أو على الأقل هذا ما عرفته وقتها وأصبح صديقًا للكل، فقط كل ما كان يهمه هو أن ينال منهم إحساس الأسرة والعائلة التي افتقدها وتركها خلفه بالصعيد.. الكل يعطفون عليه ويسعدون بالسَّمر معه وسماع حكاياته عن الصعيد والعفاريت والأشباح، كان يعلو صوته وينخفض أكثر من مرةٍ حتى يجذبَ انتباه المستمعين ويجعل له حضورًا مميزًا بينهم.. كان محبوبًا من الكل ربما لطيبته أو سذاجته أحيانًا.

اعتـدت أن أحـضر لـه الطعـام مـن المنـزل بقـدر مـا أسـتطيع حملـه بعِلـم أمـي، كانـت أمـي برغـم شـدتها وتعنيفهـا المسـتمر لنـا، كانـت تقـول دائمًـا:

"البنـات عـاوزة الشـدة في الربايـة.. اكـسر للبنـت ضلـع يطلـع لهـا أربعـة وعشريـن".

كـما كانـت مُحِبـةً للنـاس ولفعـلِ الخـير، تسـعى لأخـذ الثـواب والتصـدق بـكل "قديـم" أو غـير مُسـتخدم بالمنـزل.

***

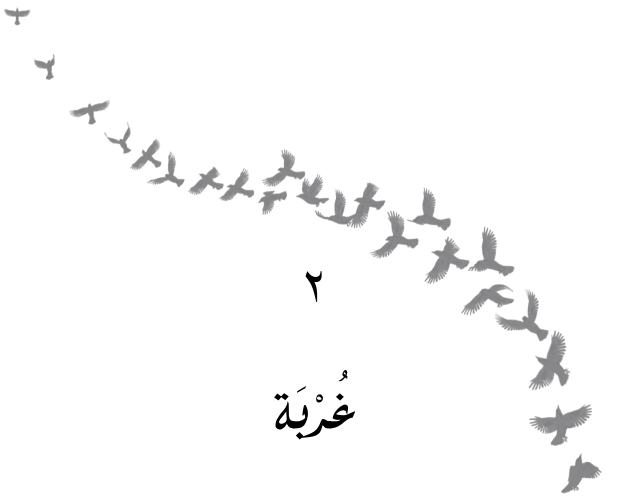

٢

غُرْبَة

في نهايــة تلــك العُطلــة كان الحــدث الأكــبر في حياتنــا كــأسرةٍ، والــذي غــيَّر مجـرى حياتنـا جميعًـا وحيـاتي أنـا بشـكلٍ خـاصٍّ.. الحـدثُ الـذي كانـت أمـي تنتظـره منـذ سـنواتٍ.. وكـم دعـوتُ اللـه أن يتحقـقَ لتتحقـق معـه أحلامهـا وأمانيها.. جـاء دورُ أبي في الإعـارة.. كانـت الفرحـةُ عارمـةً وقتهـا.. فرحـة ارتسـمت عـلى وجـه أمـي بشـكلٍ لم أرَه مـن قبـل.. كانـت الإعـارة طـوق النجـاة مـن تصاريـف الحيـاة وتفكيرهـا الدائـم في تعليـم الأولاد وزواج البنـات وتجهيزهـنَّ عـلى الرغـم مـن أن أكبرنـا كانـت لم تـزل بالمرحلـة الإعداديـة.. يومهـا جـاء أبي يـزفُّ البـشرى، طـرق البـاب بقـوةٍ كادت تخلعـه مـن مكانـه.. كانـت طرقاتُـه تنـم عـمَّا يرتسـم عـلى ملامحـه دون أن

نـراه.. وحـين فتحـت أمـي البـاب احتضنهـا وكاد يحملهـا مـن عـلى الأرض ويُحلـق بهـا.. بصـوتٍ راقـصٍ باغـت أمـي قائـلًا:
- مـش قلـت لـك هاتفـرج يـا "خديجـة".. عشـان مـا تفضليش حاملـة هـم البنـات والعيـال طـول عمـرك.. قلـت لـك ربنـا هـو صاحـب الأمـر والـرزق بإيـده، أنـا ماليـش فيـه إيـد ولا حيلـة، وهـو مـش هـا يحوجنـا أبـدًا طـول مـا إحنـا راميـين تُوكالنـا عليـه.

- خير يا أبو عادل فرَّحني ياخويا إيه اللي حصل؟

- دوري في الإعـارة جـه يـا خدوجـة.. عشـان بـس مـا تفقديـش الأمـل وتبطَّـلي قلـق بقـى.

- وأنـا يعنـي اعترضـت، أنـا بـسّ غصـب عنـي مـا بقـدرش أبطَّـل قلـق عـلي العيـال وأنـا شـايفاك وإنـت بتمـوِّت نفسـك في الشـغل ليـل نهـار عشـان خاطرنا.. وأهـو الحمد للـه ربنـا فرجهـا، يعني إنـت هاتسـافر؟ إلا إحنا هانسـافر معـاك طيـب؟ ولا هاتسـيبنا هنـا زي جارنـا أبـو خالـد؟ "قالتهـا بصـوت متـدرج في الانخفـاض إلى أن وصـل للهمـس مـع نـبرة اسـتعطاف وحـزن يـراد بـه الإجابـة المتوقعـة فـورًا"

- ده كلاااااااام يـا خدوجـة بـردو.. أبـو خالـد ده بيعبـد القـرش والعيـاذ باللـه.. أنـا بـردو أسـتغني عنـك ولَّا

عـن العيـال ده إنتـوا روحـي.. والـلي كان مقضينـا هنـا يقضينـا هنـاك وزيـادة ويفيـض ببركـة ربنـا إن شـاء اللـه..

مـرَّت أيـامُ العطلـة هـذه السـنة بسرعـةٍ جـدًّا.. أيـام تلتهـا أيـام في ترتيبـات السـفر والأوراق الحكوميـة والكشـف الطبـي والفحوصـات الصحيـة لنـا جميعًـا وتجهيـز الملابـس والإعـدادات الخاصـة ببلـدٍ نذهـب إليـه لأول مـرةٍ ولا نعـرفُ ظـروف الحيـاة بـه.. أعـدَّت الكثـير مـن كل شيء ، ملابـس وأدويـة وأغـراض، حتـى إننـي تسـاءلت عـمَّا تحويـه كل تلـك الحقائـب التـي حملناهـا معنـا وقـت سـفرنا.

كانـت تُعلـل ذلـك بأنـه عـلى سـبيل لـو احتجنـاه وجدنـا مـا يفـي بحاجتنـا منـه وقتهـا، تطلـب ذلـك منهـا أن تبيـع سـوارها الوحيـد لسـداد تكاليـف ومتطلبـات السـفر- سـوارها كان عـلى شـكل ثعبـان لـه عينـان مـن فصـوص حمـراء كانـت تحتفـظ بهـا داخـل علبـة في كيـس قطيفـة نبيتـي اللـون وقـد نُحِـلَ وبـرُه بعُمـر قِدَمـه وسـنة شرائـه تحديـدًا.. فهـي تعلـم بالتأكيـد أن أبي سـيُعوضها بـدلًا عنهـا اثنتـين وربمـا ثلاثـة.. وربمـا تمتلـئ يداهـا بالذهـب وصدرهـا قـد يـزدانُ بكـردانٍ أو حتـى عِقـدٍ مـن ذهـبٍ كجارتنـا أم خالـد.. بيـد أنهـا لـن تكـون حمقـاء مثلهـا وتـترك أبي يُسـافر بمفـرده مثـل أبـو خالـد ليعـود بعـد سـنواتٍ بعـروسٍ أصغـر منهـا.. فعـلى حـدِّ قـول أمـي:

- رِجلي على رِجلك فين ما تروح.. ولا يفرِّقنا إلا القبر.

فيُسارعها أبي بالرد:

- يجعل يومي قبل يومك يا خديجة.. ما تقوليش كده.

أشهرٌ لم تزِد عن مدة العطلة الدراسية انقضت وأغلقنا شقتنا بالعباسية تاركين مفتاحها لعمتي "نجاة" التي كانت تقطنُ بشارعٍ بحي الظاهر.. على بُعد محطاتٍ قليلةٍ من بيتنا..

لن أنسى أبدًا ذكريات ومواقف أول مرة ركبنا فيها الطائرة.. كانت أشبه برحلة رعب لأبي وأمي، كانا يُحاولان إظهار أن الأمر عادي.. على الرغم من أنه كان لنا أشبه بركوب عربات الملاهي أو الطائرات التي كنا نركبها بالمراجيح أثناء الأعياد.. إلا إني لا أنكر لحظات التوتر والإثارة والضحكات الصفراء المشوبة بخوفٍ بيني وبين إخوتي، لن ننسى تلك اللحظات التي اعترتنا أثناء إقلاع وهبوط الطائرة تلك المرة.

وصلنا إلى البلد الذي تمت إعارة أبي إليه.. وكما هو معروفٌ عن دول الخليج في شهر سبتمبر تعلو الرطوبة وترتفع درجة الحرارة فيصبح الجو العام شِبه مختنقٍ خاصة أن نصيبنا في مكان التوزيع حسب الاحتياج لتخصص أبي كان منطقةً جبليةً تُحيطها الجبال من كل

جانب، تلمَّسنا الفرقَ الشاسع بين مصر وما أتينا إليه، فطوال الطريق إلى حيث كُتِب لنا أن نُقيم لم نرَ محلًّا تجاريًّا أو مطعمًا واحدًا أو خيالًا لإنسانٍ يمشي بالشارع وكأن كل أهل البلدة داخل سياراتٍ أو حافلاتٍ للنقل الجماعي.. وكما قال أبي:

ـ التوزيع رمانا ورا الشمس.. جبل ورانا وقدامنا.. يالا بقى أهي مدة وتعدي وطالما إحنا مع بعض كلنا أي مكان هايبقى جنة بينا.

لم يكن انتقالنا من مكان وبيئة مختلفة عنا بالسهل عليَّ، فالاختلافُ كان شاسعًا في كل شيء حتى في طبيعة الجو العام والمُناخ.. كل شيء مختلفٌ عن مصر.. اللون الأصفر والبني والترابي يسودُ المشهد.. طبيعة الجبال وقسوتها نالت من طبيعة البشر هناك.. وهو ما بدأ يتجلى لنا منذ اللحظة الأولى لتعارفنا وأصحاب البناية التي وقع عليها الاختيار كي نسكن بها نظرًا لملاءمتها لنا موقعًا ومساحةً وسعرًا أيضًا.. كان كل شيء بمقابل.. الكل يعرفُ أنها مرحلةٌ وتمرُّ على الطرفين- أهل البلد والمغتربين بها- الأكثر مهارةً هو من ينتفع من الآخر قدر انتفاعه منه وأكثر إن أمكنه ذلك.. صاحبُ البيت عرف أن أبي مُعلم اللغة العربية بالمدرسة التي يدرس بها أبناؤه فكان أول اتفاقه وقبل توقيع عقد السكن هو أن يُتابع أبي

أولاده دراسيًّا.. ولو استطاع أن يطلبَ منه أن يدرِّس لهم كل المواد ما تراجع عن طلبه ذلك.

غربتنا ببلدٍ عُرِفَ بطبيعته كمجتمعٍ مُغلقٍ يتميز ببتروله وذهبه جعلت كلَّ من أتى إليه مثار حسد من ذويه.. فهم لا يعرفون إلا الجانب الذي يعكسه كل مغتربٍ وقت نزوله إلى بلده بعد انقضاء سنة أو أكثر على سفره منه.. هيئته ومظهره وما يحمله من هدايا لا توضح أبدًا حجم معاناته خلال تلك السنة ليعود محمَّلًا بالهدايا ومحمَّلًا أيضًا بنظراتِ الحسد والأماني الخفية بعيون كل من يعرفه أن يتبادل الأدوار معهم، وكيف لا يُحسَد وهو من ذهبَ لينهل من أمواله وخيراته التي لا تنضبُ فهو النهر الذي لا يجفُّ من نعيم الدنيا. كان للجميع "نعيمًا".. إلا أنا.

انتقالي من المرحلة الابتدائية إلى الإعدادية أو "المتوسطة" كما كانت تُسمى بمكان إقامتنا الجديد كان مهمًّا بالنسبة لي، هي مرحلةٌ انتقاليةٌ بالفعل في كل ما عشته من قبل سِنًّا ومكانًا وما استجد علينا الآن.. لعلَّ من أهمها كان ما طرأ عليَّ من ملامح الأنوثة التي بدأت ترتسمُ على وجهي وجسدي مُبكرًا مقارنةً بأخواتي الكبريات وقتما كُنَّ

في مثل عمري، اختلف شكلي وملامحي وتكويني أيضًا.. صارت لي مشيةٌ منتقدةٌ دائمًا من أمي.. كما كنتُ أسمعها من قبل تُحذر أخواتي الكبريات صارت تُحذرني وتُعنفني بنفس القول:

- "ندى!!.. افردي ضهرك وإنتي ماشية.. ما تأتبيش كده.. عادي كل البنات عندهم زَي اللي عندك مش أول بنت ولا آخر بنت خراط البنات يخرطها".

كان وقعُ الجملة الأخيرة على مسامعي غامضًا وقويًّا ومخيفًا.. فالخرط بالنسبة لي يذهب تفكيري إلى آلة الخرط نفسها وليس معناه المعنوي أو كناية المعنى المعروف لعامة المصريين من أن البنت تخطت مرحلة الطفولة ودخلت مرحلة البلوغ وهي بمثابة جواز مرور إلى عالم الصبا فالأنوثة.. كانت وجنتاي تتوردان حمرةً وخجلًا من كلام أمي الصريح، كنتُ أحاولُ دائمًا إخفاء بروز صدري المفاجئ والذي جعلني أسير دائمًا منخفضة الرأس محنيةَ الظهر أكاد أشبه رقم اثنين كتابةً.. ململمة نفسي بين ذراعيَّ لأخفي ما بدرَ من الطبيعة على تكويني دون تدخُّل منِّي أو كما كنتُ أسمع من جاراتنا وقتها مرارًا وخاصة جارتنا التي تقتسم معنا حائطًا واحدًا فاصلًا بين سكننا وسكنها وهي مَن كانت الأقرب لأمي ولنا جميعًا

منذ وطئنا سكننا هذا.. "نوال" أخت زميل أبي بالمدرسة وجارتنا عندما كانت تهمسُ لأمي:

- "ما شالله على "ندى" أحلى بناتك.. فايرة قبل أوانها.. اللي يشوفها يقول هي الكبيرة مش الوسطانية".

ولم أكن أعلمُ معنى ما تقول، لكني كنتُ ألحظ نظراتها لي كلما أتت إلينا لتناول القهوة مع أمي عصرًا خلال أيام الأسبوع.. وإبداءها إعجابها بجمال شَعري و"لفة جسمي" على حدِّ قولِها.. مما كان يُثير غيرة أختي الكبيرة "نهى" ويعكسُ غيرتها تصنُّعها المشكلات معي على الإكسسورات الخاصة بنا من أمشاط شَعر أو أساور وحليٍّ وإن كان بسيطًا ورخيصًا أيضًا.. فعلى عكس تسلطها ومحاولاتها فرض سيطرتها علينا كأختٍ كبرى كانت أختي الأصغر منها والأكبر منِّي "نسمة" بحق هي نسمة.. لم تنل من الجمال قدرًا كبيرًا ونالت من خفة الظل والرقة ومن اسمها نصيبًا كبيرًا لشخصها.. فكما كانت تقول أمي:

- "ندى، تُشبهني أنا وخالاتها كأنها أختنا.. أما نسمة ونهى طالعين لعماتهم باعوا الجمال واشتروا خفة".

على عكس ما كنا نشعرُ به في مصر.. كان الوقت في غير أيام الدراسة يمرُّ علينا بطيئًا جدًّا.. فكانت العطلة الأسبوعية لنا بمثابة العقاب.. فما كان لأبي من الفراغ

والمـال الفائـض مـا يصطحبنـا بـه إلى متنـزه أو مطعـم أو تسـوق فـما كانـت العطلـة لنـا إلا لمشـاهدة برامـج التلفزيـون الأبيـض والأسـود المُملـة.. والتـي كانـت تقتـصر عـلى الكارتـون أو الأفـلام الأجنبيـة المكـررة.. فباتـت أيـامُ الدراسـةِ بالنسـبة لنـا هـي الترفيـه- فالمـواد الدراسـيةُ لم تكـن بالنسـبةِ لنـا معضلـةً إطلاقًـا. وعـلى الرغـم مـن عددنـا وعمـل أبي ليـل نهـار ليوفـر لنـا سـبل العيـش واحتياجاتنـا ومتطلباتنـا، فإننـا لم نشـعر إطلاقًـا بتقصـيره تجاهنـا إلا عندمـا يتناهـى إلى أسـماعنا مصادفـةً كلام أمـي لـه عـن الخـوف مـن المسـتقبل وجـواز البنـات وتجهيزهـن فالبنـات كقولهـا- هـمّ تقيـل ويكـسر الوسـط- ولم نكـن بنتًـا ولا اثنتـين بـل أربعـة همـوم عـلى حسـب وصـف أمـي.

ـ قلقانه يا محمد من جوازات البنات؟

ـ جـواز إيـه بـس الـلي إنـت قلقانـة منـه يـا خديجـة مـن يـوم مـا اتولـدوا.. حتـى لمَّـا سـبنا مـصر وجينـا هنـا كمان! ثـم إن البنـات لسّـه صغيريـن.

ـ صغيريـن إزاي بـس! أهـي البنـت الكبـيرة بقـت في الثانـوي.. وهاتخـش الجامعـة كـمان سـنة ولا اتنـين بالكتـير.. مـش مسـير ابـن الحـلال ييجـي ويطلبهـا؟

هانقولـه سـاعتها إيـه بقـى؟ اسـتنى لمَّـا نحـوِّش تمـن جهازهـا؟

ـ حيلـك بـس حيلـك يـا أم عـادل.. وقـت اللـه يعـين اللـه يـا سـتي.. وبعديـن مـش بـس لمَّـا ييجي؟مـا ييجـي هـو حـدّ حاشـه!

كان أبي مُبتسـمًا دائمًـا.. وجهـه الصبـوحُ يُخفـي وراءه تفكـيرًا دائمًـا وانفعـالاتٍ يُجيـد التخلـص منهـا بسرعـة.

انتهـت مـدةُ الإعـارة بحلوهـا ومرهـا، أربـع سـنوات مـرَّت علينـا لم نـرَ فيهـا مـصر مـرةً واحـدةً، عَلاقتنـا بالأهـل لم تتعـدَ الخطابـات ومكالمـات هاتفيـة في المناسـبات فقـط.. تأقلمنـا مـع الجـو والمـكان والنـاس وذلـك مـا شـجَّع أبي لطلـب مـدٍّ الإعـارة بأعـوامٍ أخـرى، اعتدنـا عـلى غربتنـا بـل والأصـح اعتدنا عـلى الدخـل الـذي منـه نعيـش ونقتصـد للغـد- كـقول أمي..

ـ مـا دمنـا كلنـا مـع بعـض ومبسـوطين هنـا.. عـلى إيـه نرجـع دلوقتـي مـصر بقـى؟

بالطبـع كنـتُ قـد أنهيـتُ المرحلـة المتوسـطة ودخلـت الثانـوي، سـنواتي بالدراسـة الثانويـة مـن المحـال نسـيانها.. كانـت أبهـى مراحـل حيـاتي.. فيهـا كنـتُ- بشـهادة الجميـع- أجمـل فتيـات صفـي الـدراسي بـل أجمـل فتيـات المدرسـة.. مدرسـتي وزميـلاتي كانـت وكـن السـلوى لي في غربتنـا..

بطبيعة الحال في مجتمعٍ مُغلق لا يُبيح الاختلاط بأي صورةٍ من صوره ولا حتى بداخل المحال التجارية من البديهي ألا نعرف عن الجنس الآخر شيئًا سوى ما يعرضه التلفاز بقناتيْه اليتيمتيْن فقط.. وبعض المجلات التي كانت تُمَنَع عنا أيضًا إلا صدفةً أو تهريبًا بيننا كبنات، كنا نتخاطفها لمشاهدة صورة لممثل أو مطرب أو حتى مانيكان يعرض مجرد ثوبٍ عربي، أو ممثل يعلن عن معجون حلاقة.. وكثيرًا ما كنا نتعايشُ في الخيال مع تلك الصور.. نحلم ونتخيل ونعيش قصص حب وهمية تكون مثل سحابة سرعان ما تنقشع.

بطبيعة تواجدي بينهم كمغتربةٍ آتيةٍ من أرض الخيال والحلم بالنسبة لهن "مصر" حيث الاختلاط المُباح ودون قيود أو شروط أو رقابة من أشخاص أو هيئات في الشوارع والمحال التجارية والمطاعم والأسواق والسينمات والنوادي.. كنتُ محط أنظار واهتمام الجميع خاصة في حصص التربية الرياضية أو الفنية حيث لم تكن تحظى باهتمام الإدارة أو الطالبات كونها مواد دراسية لا درجات لها في المجموع النهائي للسنة الدراسية.. كان توقيتها الأسبوعي هو موعد تأُلقي كنجمةٍ آتيةٍ من فضاء الحُلم عندما يلتفف حولي لأسرد لهن حكاية من حكايات الجيران أو علاقة بنات الجيران بأولاد الجيران أو أن أصف لهن إحدى الرحلات

التي كنَّا نقوم بها في العطلات للمتنزهات أو الشواطئ أو الأفراح التي حضرتها ببلدي قبل القدوم إليهن.. وكنتُ كثيرًا ما أزيد في الوصف لأنال من اهتمامهن وربما غِيرتهن وحسدهن أيضًا عليَّ وعلى ما عشته دونهن حتى أظل بالنسبة لهن دائرة الاهتمام دومًا.

في هذه المرحلة اقتربتْ مني الكثيرات من زميلات صفي الدراسي والصفوف الأكبر منِّي أيضًا يطلبن ودِّي وصداقتي مع اختلاف جنسياتهن، كنَّ ما بين السوريات والتونسيات والسودانيات مزيجًا مختلفًا وغير متآلفٍ بالمرة في عاداته وتقاليده ولكن اجتمعن جميعهن في خطٍّ واحدٍ هو أننا لسنا من مواطني ذلك البلد ولكننا فقط مقيمون غرباء، كانت منهن من تتعمدُ أن تقتربَ منِّي بشكلٍ خاص جدًّا لتتحسسَ أجزاء جسدي خلسةً.. عن طريقِ الضحك أو الهمس بسرٍّ ما مرةً، ومُداعبة مُوحية مرة أخرى بما أكثر من اللمسة..

مجتمعٌ مغلقٌ شكلًا وموضوعًا.. عاداتٌ وأفكارٌ عقيمةٌ نشأنَ عليها وتربت عليها أمهاتهن وجداتهن باسم العادات مرةً وباسم الدين مراتٍ.. وكأن الدين خلقه الله فقط لمنع وحرمان وليس لسماحة التعامل أو تهذيب النفوس أو تفنيد شكل العَلاقات بشكلٍ عامٍ بروح سمحة وعدل ورحمة.. كأن الدين هو السوط والرهبة لهن.. خشية

العقـاب الإلهـي لا يفعلـن، لا يشـعرن، لا يعـبِّرن عن أنفسـهن.. دائمًـا مـا كنـتُ أعتقـدُ أن عبادتهـن لا تصـدر عـن حـب ورغبـة في التقـرب إلى اللـه بـل خوفًـا مـن بطشـه وعقابـه.. وشـتان مـا بـين الإخـلاص في النقيضـيْن.. عـاداتٌ وأفـكارٌ جعلـت مـن الأنثـى كـمًّا مهمـلًا.. حُـرِّم عليهـا التعبـير أو الإفصـاح عـن مشـاعرها كـما لـو كانـت كل ذنبهـا أنهـا خُلِقَـت أنثـى فهـذا وحـده سـببٌ كافٍ لأنْ يُحتسَـب كـجُرمٍ تُعاقـب عليـه مـن مجتمعهـا خـلال تلـك المرحلـة العمريـة لأي فتـاةٍ هنـا..

ومـا أخطرهـا مرحلـةً.. جهـلٌ مـن الفتـاة.. إهـمالٌ مـن الأسرة، مجتمـعٌ يحكـم عليهـا دومًـا بالسـكون والانصيـاع لرغبة ذويهـا.. لا نشـاط يُمـارس فتخـرج طاقاتهـن في صـورٍ رياضيـةٍ أو فنيـةٍ أو فكريـةٍ.. لا صداقـات خـارج أسـوار المدرسـة سـوى أقاربهـن فقـط.. لا اختيـار لهـن، هـمٌّ واقـعٌ يرضينـه شـئنَ أم أبـيْنَ..

***

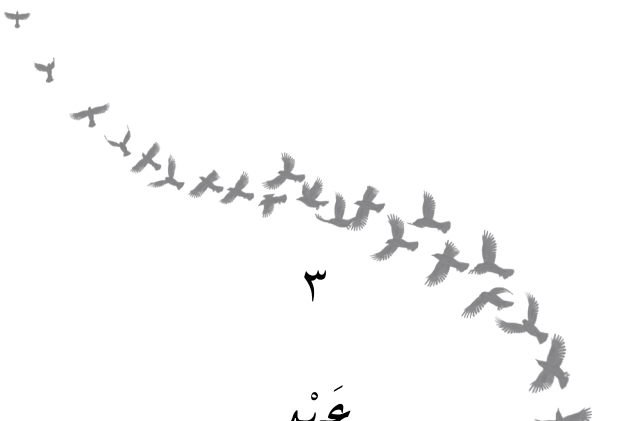

٣

عَهْد

تعـددتْ ونمـتْ صداقـاتي وشـملت كل الجنسـيات هنـاك ممـن كـنَّ يدرسـن معـي لا سـيما صديقتـي "عهـد" التـي كانـت تُلازمنـي بـكلِّ مـكانٍ.. وإن حـدث وكانـت بصـفٍّ دراسي غـير صفـي.. اسـتغلت نفـوذ وعَلاقـات أهلهـا ومعارفهـا وفعلـت المسـتحيل حتـى يتـم نقلُهـا إلى صفـي بـل وإلى المقعـد المجـاور لي أيضًـا..

كانـت تُلازمنـي كظِـلي طيلـة اليـومِ الـدراسي.. بـل تـكاد تحوطنـي بعينيْهـا قبـل يديْهـا.. فلـم تكـن أي واحـدة مـن المدرسـة تسـتطيع أو تجـرؤ عـلى الاقـتراب منِّـي أو التحـدث معـي دون المـرور بهـا أولًا لتسـمح لهـا أم لا.. وكان هـذا يتـم قطعًـا دون توضيحـه بشـكلٍ فاضـحٍ بيـد أن الـكل يعـرفُ أن

هـذه العَلاقـة العجيبـة معروفـةٌ ومتعـارفٌ عليهـا بالمدرسـة بـل بـين الفتيـات عمومًـا بالبلـدة.. بـدت وكأنهـا تغـارُ عـليَّ غـيرة الشـاب عـلى الفتـاة وليسـت الصديقـة فقـط لصديقتها.. دائمًـا مـا كانـت تُشـعرني بأنهـا المسـئولة عنِّـي بالمدرسـة..

ـ حبيبتى ندى.. أكلتي، أجيبلك فطور؟

ـ تبغي أساعدك أنا بالواجبات؟

ـ عافيـة باللـه عليـكِ لا تسـهري كل ليلـة نامـي مبكـر.. عيونـك بتتعـب، أخـاف عليـكِي..!

كنـتُ أظنهـا تُحـاول أن تُصادقنـي بشـكلٍ مبالـغٍ فيـه حتـى تسـتفيد منِّـي دراسـيًّا نظـرًا لتفوقـي عليهـن.. أمـا هـي فلـم تكـن تختلـف عـن الكثـيرات بالصـف.. ولكـن نظـرتي لهـا تغـيرتْ وتحـددتْ معالمهـا بعـد أن أمطرتنـي بوابـلٍ مـن الخطابـات منتقـاة الألفـاظ والمعـاني الغراميـة التـي كانـت تدسُّـها لي خلسـةً في حقيبتـي أثنـاء تأهُّبنـا للانـصراف في نهايـة اليـومِ الـدراسي.. الحـق كنـتُ أرتـابُ منهـا في البدايـة ولم أعلـق عليهـا.. كأني لم أرهـا أو أقرأهـا.. ولكننـي لـن أنكـرَ أننـي قـد أصبحـتُ خيطًـا مـن نسـيج هـذا البلـد.. ومـا تحيـاه جميـعُ الفتيـات هنـا أحيـاه معهـن ومثلهـن تمامًـا.. حيـاتي هي حيـاةُ الكثـيرات مـن بناتـه أحاسيسـهن وانفعالاتهـن، جميعنـا متأثـراتٌ بالجـوِّ المُعتـم أُسريًّـا واجتماعيًّـا ونتيجـة عـدم

الاختلاط ولو في الحياة العامة سواء المطاعم أو المتاجر أو ما إلى ذلك.. خشية من الأهل تارةً وتنفيذًا لأوامر وقوانين البلد ممن اتخذوا الشرع والشريعة سببًا موثَّقا لهم في أخذ القرارات وإقامة الحدود أيضًا.. لم تكن هناك ثغرات ولا استثناءات.. وبالتالي لم تكن هناك عَلاقات عامة أو مُباحة للجنسين في أي عمرٍ كان.. وكل ممنوع مرغوب.

تكرَّرتْ رسائلُ "عهد" لي.. وتكرَّر ادعائي باللامبالاة.. تأذيت مرةً ومراتٍ ما تكتبه لي، ثم أصبحتُ أنتظرُ تلك الرسائل بل أتقبلها منها بابتسامةٍ كردٍّ منِّي على ما تكتبه لي بالرضا والموافقة.. لم أتخلص من خجلي فأتجاوب معها ولم أنهرها فتبتعد عنِّي.. باتتْ تُرضي غروري كفتاةٍ مراهقةٍ.. وشعوري باحتياجي لاهتمامٍ من نوعٍ خاص لم أكن لأحددَ نوعه أو كيفيته، كنتُ أستشعرُ السعادة جراء كلماتها التي تُغازلني بها دون الخوف من الغير أو رقابة أحد.. ولِمَ أخاف! هي فتاةٌ مثلي مثلها ولا مجال للريبة إطلاقًا.

أصبحت تروي اشتياقي لكلمات الحب والإعجاب التي لم أسمعها سوى منها.. فهي من بلدةٍ أخرى أكثر مدنيةً من البلدة التي نعيش بها جميعًا الآن، وقد أتت إلى هنا مع أبيها الذي يعمل طبيبًا بالمستشفى العام.. ولديهم ما تميز به منزلهم عن منازل البلدة كلها.. لديهم جهاز

ستالايت وريسيفر وجهاز فيديو وأشرطة علمية وثقافية وترفيهية يحضرها أبوها لهم باستمرار للترفيه أو التعلُّم.. وأخرى كانت تحكي لي عنها مؤتمنةً إياي على سِرِّ استيلائها عليها دون علم أبيها من خزانة متعلقاته الشخصية- فهي أشرطة ثقافية خاصة جدًّا- كنا نكمل بعضنا البعض دون أن ندري.. أنا بما أرويه لها عن القاهرة.. وحياتنا بها من جانبٍ مُشرِق يسيل لعاب أي فتاة في عمرنا وقتها.. أما هي فكانت بمثابة صندوق الدنيا بالنسبة لي، نافذتي على عالمٍ لم أرَه إلا من خلالها وحلمت بجواز مرور داخله بصحبة روايتها ووصفها وكتاباتها لي عنه.. عالم له من الخفايا والحكايا ما لم أكن لأعرفه دون "عهد".

تعلَّقت بها..

أصبحتْ شيئًا مُهمًّا في حياتي.. بل في يومي أيضًا.. أدمنتُ كلامها وخطاباتها التي حفظتها عن ظهر قلب، لم أعتَد الاشتياق لكلماتها فقط.. بل أحيانًا أشتاقُ إلى لمساتها الخاطفة الحانية لجسدي.

إلى أن جاء يوم نهاية السنة الدراسية وبداية العُطلة.. اعتدنا منذ أتينا إلى هنا على أنَّ العطلة هي عطلة من الدراسة وتقتصر على ذهابنا لأداء العمرة أسبوعًا أو عشرة أيام فقط لا غير.. أما النزولُ إلى مصر فلم يحدث أننا

نزلنا إلى مصر سوى مرةٍ واحدةٍ بعد قدومنا إلى هنا بأربع أو خمس سنوات وكان بسبب مرض أمي واحتياجها لإجراء فحوصاتٍ خاصة لم تكن لتتوافر بمكان إقامتنا، وبجانب إلحاحٍ منا جميعًا وافق أبي وأمي على أن نزور أهلنا بمصر.. وصادف احتفال خالي بزواج ابنته في إحدى قرى محافظة الشرقية.. أمضينا هناك أيامًا لها من الذكريات ما لم يُنسَ أبدًا.. أقارب وأماكن وأحداث كلها في فترةٍ زمنيةٍ بسيطةٍ، وبعد اشتياقٍ لمصر كانت بمثابة غسيل لأرواحنا وتبلُّدنا الذي اكتسبناه من غربتنا بلا أهل ولا أصدقاء سوى من فرضتهم علينا الغربة.. باستثناء هذا كان النزولُ والسفرُ إلى مصر من حق أبي فقط وكان غالبًا بخصوص تجديد أوراق وإجراءات إجازاته أو مجاملات الأهل في زواج أو ربما المشاركة في عزاء ودفن أحد المقربين لنا.. توفيرًا لنفقة السفر.. فأسرةٌ مكونةٌ من سبعة أشخاصٍ تكاليف سفرها سنويًّا أولى بنا أن ندخرها للغد.. هم أحوج لها من صرفها وما يتبعها من هدايا لزوم السفر للأهل والأصدقاء.. ولِمَ السفر سنويًّا؟ ما دامت الأسرةُ جميعها مجتمعةً في مكانٍ واحدٍ!!

نهايةُ العام الدراسي كان يومًا حزينًا لأغلبنا ممن لن يُغادروا البلدة في العطلة.. اليوم الذي سنتخلصُ فيه من الاستيقاظ مبكرًا والمذاكرة والاختبارات كان هو نفسه

توقيتًا بالحُكم علينا بالاحتجاز بالبيت رهن الحوائط بلا صديقات ولا ضحكات ولا مشاركة بعضنا البعض لليوم أيًّا كان شكله بالمدرسة.. وأقسى ما فيه كان هو أني لن أرى "عهد".. وسأُحرَم من رسائلها ولهفتها عليَّ.. سأُحرَم من إفطارنا معًا وضحكنا معًا.. سأُحرَم من شكواي لها وشكواها لي.. سأُحرَم من نكاتها المكشوفة الهامسة بيننا والتي كانت تزيد ارتباطنا معًا قدر ما كان بيننا من أسرار..

لم أعرف ولم أذق طعم الحب أو علاقة فتاة بشاب كيف يكون إحساسها.. توهمت أنها مصيري وارتبط وجودي بوجودها..

بكيتُ وبكتْ.

***

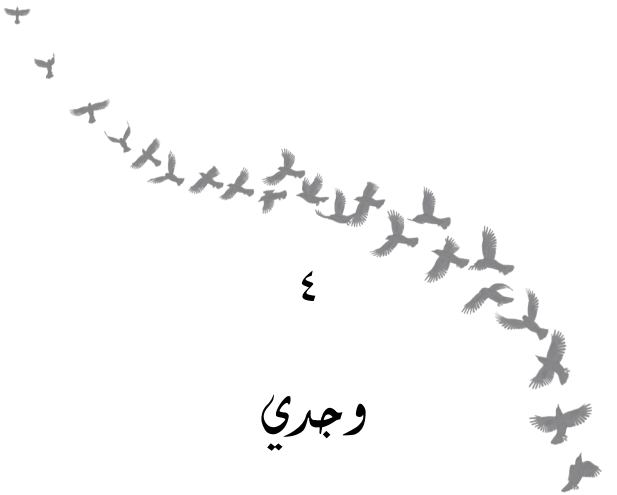

٤

وجدي

عُـدت إلى المنـزل لأجـد نشـاطًا غـير معهـودٍ مـن أمـي.. نشـاطًا لـه لـون الفرحـة، ألوانـه تشـع بأرجـاء المنـزل.. فرحـة.. أنسـتني للحظـات الدمـوع التـي ذرفناهـا عـلى بـاب المدرسـة منـذ دقائـق.. الابتسـامة التـي كانـت تعلـو وجـه أمـي لم أعـرف لهـا سـببًا مُسـبقًا ولم أعتَدهـا مشرقـةً في وجهـي بهـذا الشـكل إلا نـادرًا جـدًّا.. "إيـاااااك حـدّ يقـرب مـن التلاجـة.. الجاتوه بتاع الضيوف محدّش ياكل منه- فاهمين"!

كان صـوتُ أمـي يصيـح في إخـوتي الصغاركـما لـو كانـت تدفعهـم دفعًـا بكلماتهـا مـن طريقهـا.. وهـي تُسرع الخطـى في مسـاحةٍ لا تتعـدى الأمتـار بـين المطبـخ والصالـة وغرفتهـا.. في حركـةٍ مكوكيـةٍ منهمكـةٍ، ولا أدري لمـاذا؟

أمسكتُ بصغيري الحبيب "عدولة".. وهمستُ له في أذنه مبديةً اهتمامًا بالغًا لما سيقوله مقدِّمًا لي جوابًا على سؤالي:

ـ عدولة.. في إيه النهاردة؟ ماما مالها بتزعق لكم ليه؟

ـ معرفش يا ندى.. اسأليها إنتي.. أنا سمعتها بتقول لبابا الصبح ارجع بدري عشان تستعد تقابل الضيوف.

لم يروِ ظمئي للمعرفة ولم يعطِني الإجابة الشافية لعلامات الاندهاش التي ارتسمت على وجهي أنا الأخرى ردًّا على علامات ومظاهر الاحتفال ببيتنا، وهو ما لم نعتَد عليه منذ فترةٍ كبيرةٍ باستثناء أيام ظهور النتائج الدراسية أو تفوُّق أحدٍ منا دراسيًّا..

ـ في إيه يا ماما؟ مين اللي جاي لنا النهاردة؟ حدّ جاي من مصر؟!!

فاجأتني بابتسامةٍ عريضةٍ وعينيْن لامعتيْن وما لبثت أن أكملت اندهاشي بجذبِها لي وضمها لي بقوةٍ إلى صدرها قائلةً..

ـ أهلًا أهلًا بعروستنا الحلوة ندنودة.. هاتي بوسة لماما تعالي.

تعجبت..

بـل تجمَّـدتُ مـكاني.. فلـم أعتَـد منهـا أن تقبِّلنـي منـذ فـترةٍ طويلـةٍ.. لم أعـد أذكـرُ كـم مـضى مـن الوقـت منـذ أن قبَّلتنـي آخـر مـرةٍ.. فعلاقـة أمـي بنـا كانـت تقتـصرُ عـلى الأمـر والنهـي والإرشـاد، لم تكـن يومًـا صديقـةً لإحدانـا أو مسـتوعبةً لسـنِّنا ولا متطلباتنـا النفسـية.. حتـى إننـي أذكـرُ يـوم صرتُ "أنثـى" بمقيـاس الطبيعـة.. خفـت أن أخبرها مبـاشرةً بتطورات الحـدث وأخـبرت أختـي الكـبرى لتبلغهـا حتـى أتخلـص مـن لائحـة الممنوعـات والمفـروض عملهـا خـلال تلـك الأيـام مـن كل شـهر.. ربمـا لأن كلامهـا أصبـح أوامـر فقـط..

لم تكـن تعلـم باحتياجنـا لهـا كـصديقةٍ ذات خـبرة بأمـور البنـات بحُكـم مرورهـا بمراحلنـا العمريـة، لم تسـمعني يومًـا، لم تحتضنـي.. لم تكـن تسـأل أو تعلـم عـمَّا أخفيـه دائمًـا في شرودي أو يقظتـي أو حتـى مـا كنـت أخفيـه بـين طيـات كتبـي وملابـسي مـن رسـائل "عهـد" لي.. إذن مـا الـذي حـدث اليـوم وجعلهـا تقبِّلنـي وتحتفـي بي بشـكلٍ خـاصٍ؟

كان عـليَّ أن أربـط بـين مـا يحـدث ومـا قالتـه لي "أهـلًا بعروسـتنا".. إذن الأمـر يختـص بعريـس!

لمـن؟ لي أنـا؟ كيـف؟ هنـاك أختـان تكبراننـي سـنًّا وإن كان الفـرق بيننـا بسـيطًا.. ولكنهـما أنهتـا الدراسـة الثانويـة والتحقتـا بـدار المعلـمات حتـى تنتهيـا خـلال عامـين مـن

التعليم والعمل بمكان إقامتنا أيضًا إلى أن يجيء النصيب لكلتيهما وتتزوجا ويخف الحِمل عن كاهل أبي.. ولكن كيف تخطاهما الدورُ وصرتُ أنا من أتى العريسُ إليها؟

الأسبابُ كانت بديهيةً للغير ولكني أرفضُها من داخلي.. مقياسُ الجمال لم يكن يشغلني إطلاقًا.. ولكن ربما للعريس هو المقياس الأمثل.. ومَن يكون إذن؟!

لم يكن من الصعب أن أتخيل أو أفكر من سيكون العريس المنتظر ولم أكن متشوقةً لمعرفته.. لأنه بالتأكيد سيكون أحدًا ممن يعرفنا من هنا.. فأستبعد تمامًا أن يكون من غير بلدتنا التي نعيشُ بها الآن وهم معدودون على الأصابع.

وبالفعل لم يَخِب ظني.. فقد كان هو الأستاذ "وجدي" أخو جارتنا "نوال"، كانت ترمقني بنظراتِها واستفساراتِها وتتجاذبُ معي الحديث كلما سنحتْ لها الفرصةُ منذ أن أتينا إلى هنا وكنت وقتها طفلةً على عتبات الأنوثة.. وبخاصة أنها لم يشغلها بعد انتهاء فترة دوامها في الواحدة ظهرًا من عملها كمعلِّمة ابتدائي هنا.. إلا مشاهدة المسلسلات السورية والتركية والحديث مع أمي عن كل كبيرةٍ وصغيرةٍ تخصنا أو تخصها سواء هنا أو بمصر.. فهي منذ أتتْ إلى هنا منذ عشر سنوات ومعها محرمها الأخ

الأصغر لها والذي كان قد أنهى دراسته للتوِّ وقتها وهي لم تتزوج بَعد على حدِّ قولها:

- الزمن جري ونسيت نفسي وأنا بأربِّي إخواتي الصغيرين وبساعد الكبار في تربية ولادهم.. المعايش صعبة وأنا خلاص راحت عليَّ.. وإخواتي وولادهم هُمَّا ولادي.

"وجدي" هو مُعلِّم الرياضيات بالمدرسة التي يعمل بها أبي والمشهود له بحُسن الأخلاق والهدوء، وانتشاره أيضًا بين بيوت العائلات من أصحاب البلد لإعطاء أبنائهم الدروس الخصوصية والتي كانت تدرُّ عليه دخلًا مجزيًا يُعادل راتبه من المدرسة وربما أكثر على حدِّ قول "نوال".

باتتْ كل محاولاتي بالرفض فاشلةً أمام إصرار أمي وانسياق أبي لها لما أقنعته به من أسباب.. مع أنني لستُ الكبرى.. لكن:

- "اللي يجيلها نصيبها بالسلامة نوصَّلها لبيتها- إحنا هانعيش لمَّا نجوزهم كلهم؟".

من ذلك اليوم.. وفور انتهاء آخر عام لي بالثانوي عُقِدَ قراني على وجدي.. وكانت فرحتي الوحيدة آنذاك هي أنني سأعودُ إلى مصر... وبات حُلم استكمال دراستي الجامعية في خطر.

تزوجتُ خلال العطلة الدراسية.. ثلاثة أشهر كانت كافيةً أن يؤسس بيتًا صغيرًا لعريسٍ شاب وارد الخليج.. كان بالطبع يملك مسكنًا مجهَّزًا بأساسيات أيِّ بيتٍ تحلمُ به عروسٌ وقتها غير باقي تفاصيل بسيطة من السهل أن يؤتى بها سريعًا ليكونَ منزل زوجية يليقُ بعروسٍ وعريسٍ في وقتٍ مناسبٍ.. كانت فرحةً عارمةً لأخواتي ليس لزواجي، بل لأنهم أخيرًا سيزورون مصر.. سيشاهدون أصدقاءهم وأهلهم وبلدهم التي طالت غربتهم عنها حتى إن أخي عادل وأختي الأكبر منه لم يعودا يتذكران بمصر أي شيء سوى من الصور أو حكاياتنا عنها.. وكان على الأسرةِ أن تُنهي كل شيء خاص بانتقال إقامة أحد أفرادها من بيتهم إلى بيتٍ آخر.. فقط نقل إقامة بالنسبة لهم.. إقامة لحياة لم يعدِّوني لها، لم أفكر فيها من قبل، لم أكن لأتخيل حدوثها بهذه السرعة وهذه الطريقة، وبالنسبة لي كان مسارًا آخر لم ولن أتوقعه في يومٍ من الأيام.

استقررنا أنا ووجدي بمصر.. وواصل عمله بالتدريس؛ نهارًا بالمدرسة وليلًا في مركزٍ لإعطاء الدروس الخصوصية.. اليوم كله كان بالخارج لتحصيل أكبر ما يُمكن تحصيله من إيراد الدروس الخصوصية فما استنفده من أموال الغربة لبناء منزل الزوجية وتأسيسه عليه أن يعيده إلى حسابه البنكي بل ويزيده تحسُّبًا لأيامٍ قادمةٍ قد يصبح فيها أبًا

مسـئولًا عـن أبنـاء وبيـت، وبالطبـع انتقلـت مـن جـدران بالخليـج إلى جـدران- لعلَّهـا أرحـب قليـلًا- إلى جـدران بمـصر..

حيـاتي الزوجيـةُ بـدأتْ بشـكلٍ تقليـدي معهـودٍ في الأفـلام الأبيـض والأسـود.. خجـل.. فتعـود.. فمشـكلات.. لم يكـن يربطنـي بوجـدي أي عَلاقـة مـن أي نـوعٍ قبيـل الـزواج.. فلـم يعـرف قلبـي الحـب ولا حتـى الإعجـاب المُتبَـادَل بينـي وبـين وجـدي.. فقـط كان عريسًـا مُسـتعدًا للـزواج وكنـتُ فتـاةً خامًـا نقيـةً مـن كل شيء.. طفلـة.. ثمـرة نضجـت حسـبما رآهـا أبواهـا هكـذا وقدماهـا لأول معجـبٍ أو مُشـترٍ أو مقـدِّر لتلـك الثمـرة لتكـونَ وجبـةً شـهيةً لـه، كانـت بدايـاتُ زواجنـا حافلـةً بالخـروج وبالزيـارات أثنـاء أيـام الإجـازة الأسـبوعية فقـط والتـي كانـت غالبًـا ببيـت أهـل وجـدي أو العكـس.. هـم يزورونـا أو نحـن مـن نزورهـم، وبعـد إلحـاحٍ قدمـت أوراق التحاقـي بالجامعـة بمـصر، طلـبَ مِنِّـي وجـدي أن أسـجِّل تأجيـلًا للدراسـة لمـدة عـام وهـو شرط موافقتـه عـلى تقديـم أوراقـي للجامعـة؛ فأنـا مـا زلـت عروسًـا وربمـا يرزقنـا اللـه بطفـلٍ.. فهـو أولى مـن الجامعـة حتـى لا أُجهَـد بـين الدراسـة والبيـت والإنجـاب.. هكـذا كان تصـور وجـدي والـذي كان عـليَّ بـدوري أن أطيعـه، لم أعتَـد أن أفصـح عـن رأيـي في وجـود الأكـبر منِّـي.. كان أبي وأمـي والآن.. أصبـح زوجـي.

مرَّ عامٌ على زواجنا وتحولت المعاملة منه ومن أسرته بشكلٍ مُلاَحظ ومبالغٍ فيه.. والسببُ أنني لم أستطعْ أن أتأقلم معهم في معيشتهم ولا مجاراتهم في أحاديثهم أو زياراتهم المتعددة للجيران والأهل، كانت متعتي تكمن في قراءة المجلات والقصص الرومانسية وسماع الأغاني والتواشيح الدينية والموسيقى، لم أحب الخروج ولا جلسات النساء التي خُصصت للنميمة والقيل والقال.. حياتي قبل الزواج وما اتسمت به من طابع الهدوء والعزلة، فرضت عليَّ نفسها.. حتى بعد تركي للمكانِ أصبحت أحب أن أكونَ مع نفسي ولنفسي أعيش فقط.. بل وإن لزم الأمر معها فقط أتحاور.

لم أسلم من قسوةِ لسان أمه وإخوته ومعايرتهم لي بعدم الإنجاب فكل من تزوَّجَتْ معي أو بَعدي من قريباتهم وجيرانهم إما أن صارت أُمًّا أو تنتظر مولودًا، ولم ينتهِ الموقف عند هذا الحدِّ بل تعدَّى الألفاظ إلى أن تطاولَ هو نفسه عليَّ بالسباب والإهانة كوني لم أُنجب بعد مرور عامٍ ونصف العام من الزواج.

ـ طيب هو أنا المسئولة لوحدي عن الخلفة يا وجدي؟

طب ما إنت كمان لازم تروح للدكتور وتشوف العيب من مين فينا؟

ـ إنتي بتقولي إيه؟ أنا راجل يا مدام.. وبعدين هو مين اللي بيخلف أنا ولَّا إنتي؟ بصِّي يا ندى أنا طوِّلت بالي عليكي أوي يا بنت الحلال، لغايه هنا وكفايه أنا عاوز الولد اللي أفرح بيه ويشيل اسمي بعد ما أموت..
- يعني إيه؟ هاتطلقني!

..

..

***

بالفعلِ تم الطلاقُ..

بنفس سرعةِ الزواج بمقياس الزمن.. لكنه كابوسٌ بمقياسي الشخصي وحُكِمَ عليَّ به وانقضى، استفقتُ منه على لقبٍ جديدٍ لم أكن أنتظرُه ولا أتوقعه، بل أصبحتُ أحمل لقب "مُطلَّقة" و"عاقر" بنظر الجميع.. ذنبٌ لم أقترفه ولم أسعَ إليه لأكون يومًا ما مذنبةً بسببه.

جاء أبي إلى مصر لمحاولة الإصلاح بيننا- أو بمعنى آخر- ليُقنع وجدي بالعدول عن طلاقي وبعد أن فشل تمامًا في إقناعه بأن الإنجابَ هو زرق من الله يهبه لمن يشاء ويمنعه عمن يشاء.. أو لعل وقته لم يحنْ لنا.. وكأنه كان يريد أن يمحو عنِّي وصفًا وسُبَّةً قد تُطاردني العمر

كلـه وأنـا مـا زلـت بمقتبلـه.. عـاد وعـدتُ معـه مـرةً أخـرى إلى حيـث كنـتُ وحيـث رأتنـي نـوال وقدَّمتنـي لأخيهـا وجـدي مـن بعـد.. وكأنهـا كانـت غمضـة عـين واسـتيقظتُ مسرعـةً مـرةً أخـرى بنفـس مـكاني فلـم يكـن أبي يسـتطيع العـودة لأجـلي ولا يسـتطيع تـركي وأنـا مُطلقـة بـدون أسرتي في مـصر.. ولأنـه قـد اسـتقرَّ هنـاك هـو وأمـي وإخـوتي بعـد أن اسـتقال مـن عملـه بمـصر واختـار أن يكـونَ مـكانُ غربتـه هـو بلـده الجديـد.

في هـذه الأثنـاء تمـت خطبـةُ أختـي الكبـيرة "نهـى" إلى أحـد أقاربنـا بمـصر دون أن تعرفـه أو تـراه بـلا أدنى اعـتراض منـه أو منهـا ويكفـي أنهـا بنـت الأسـتاذ محمـد أبـو الفتـوح المعـروف بينهـم جميعًـا ببلدتـه.. كانـت فرحـة أمـي لم تكتمل بعـد.. فعـلى قولهـا:

ـ هـوَّ البيـت ده مـش مكتـوب لـه تمـشي منـه إلا واحـدة بـس؟ أنـا كنـت بقـول هانـت يـا رب والبنـات تخـف عنـا واحـدة ورا التانيـة.. أهـي قبـل مـا تمـشي التانيـة رجعـت لنـا الأولى! أسـتغفر اللـه العظيـم حكمتـك يـا رب.

ولم تكـن أمـي تعلـم كـم هـي مؤلمـةٌ كلماتهـا عـليَّ.. عُـدت إلى حيـث اسـتوطنت أسرتي جميعهـا الغربـة.. وصـارت

غربتهم بداخل بلدهم وليس العكس فكان ينبغي عليَّ التواجد معهم أينما كانوا.

أذكر أن أبي كثيرًا ما كان يقول: إن الإنسان يبقى غريبًا بأرضه إن افتقد الحميمية والأمان بها.. وطن الإنسان هو ما يجد به الأمان والاستقرار وما يأمن به غدرالزمان.. وطننا يعيشُ بداخلنا وليس العكس. لم يمضِ على طلاقي سوى العام ونصف العام تقريبًا وحتى بعد أن طُلِّقْت لم تقبل أمي بقرار استكمالي دراستي الجامعية وكأني أكفِّر عن ذنبٍ لم أقترفه كوني تزوجت برغبتهم هم.. ولم أنجب بمشيئةٍ من الله.. في كل الحالات كنتُ "مفعولًا به" ولستُ بفاعلة..

وتقدم لطلبي للزواج "فريد" ابن عمتي..

***

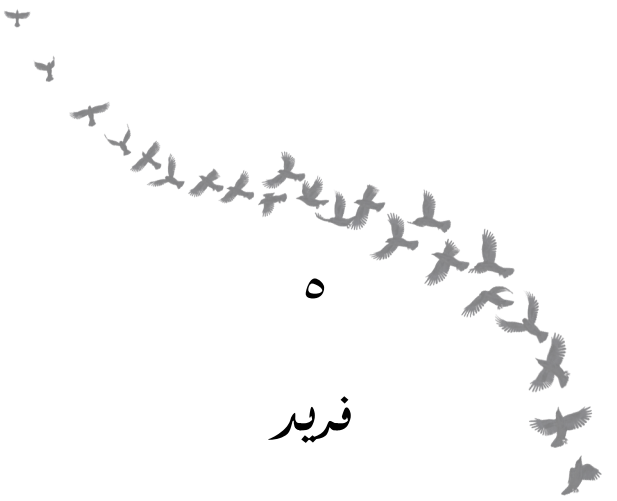

٥

فريد

منذ وقت أن توفي أبي وخالي "محمد" وهو أبي الروحي وصديقي أيضًا، فقد كان هو الأقرب لأمي سنًّا وروحًا وسكنًا أيضًا، مسكنه بالعباسية لم يكن بعيدًا عن مسكننا بحي الظاهر فلا يمر يومٌ إلا ويأتي إلينا أو يذهب أحدنا إليه.. تربت أخواتي البنات ودرسن مع بناته نهى ونسمة وندى اللاتي كُنَّ من نفس أعمارهن تقريبًا، كنتُ أنا بالمرحلة الثانوية وقتها، ترك لنا أبي إرثًا كافيًا لأن نعيش- مستورين- على حدٍّ قول أمي.. نحن نعيشُ في منزل أبي وإخوته-أعمامي- ولنا دخلٌ ثابتٌ من إيراد مشروع تجاري لهم جميعًا لنا فيه نصيبٌ إلى جانب معاشه من الحكومة، كانت حياتنا هادئةً مستقرةً.. ماديًّا وأسريًّا..

إلى أن أنهيتُ دراستي الجامعية وجاءتني فرصةٌ للعمل بالإمارات، وقتها رفضتْ أمي بشدة أن أبتعد عنها متعللةً بأنه لا داعي لسفري ما دامت "مستورة والحمد لله" ويمكنني العمل في مشروع أهل والدي فهو أيضًا مشروعي وخيره يعمُّ علينا جميعًا.. فمن الأولى أن أعمل فيما نملك خيرًا من العمل عند الغير.

أما أنا فكان حُلم السفر بالنسبة لي لأسبابٍ أخرى غير المادة.. فقد عشتُ مدللًا منذ الصغر؛ ولد وحيد على ثلاث بنات، خوف شديد لازمني من أمي عليَّ خاصة بعد وفاة أبي.. حتى إنني كثيرًا ما كنتُ أخجلُ من زملائي بالجامعة عندما يطلبون منِّي أن أرافقهم في رحلةٍ خارج القاهرة والمبيت ليوم أو أكثر، كانوا يعرفون أني لن أستطيع إقناع أمي بنومي ولو ليومٍ واحدٍ فقط بعيدًا عن البيت..

من هنا كان تعلُّقي بالسفر لأحيا حياة الحرية؛ أسافر، أعمل، أسهر، أرى أناسًا مُختلفين وأماكن مختلفة.. أحاولُ أن أعيش بلا رقابةٍ منها أو وصايا يومية أثناء خروجي من المنزل ولا استفسارات عند عودتي.

لم ينفعني في هذا الوقت في إقناع أمي سوى خالي "محمد".. كنتُ أعتبره صديقي الأكبر برغم فرق السن

الـذي اقـترب مـن العشريـن عامًـا، إلا أننـي كنـت أناديـه مُداعبًـا مـن وقـتٍ لآخـر بـ "حـمادة".

أمضيـتُ بالخـارج مـا اقـترب مـن السـنوات العـشر عملـت خلالهـا باجتهـادٍ وجِـدٍّ حتـى اكتسـبتُ ثقـة مديـريَّ وتطـورت بسرعـةٍ لافتـةٍ لمـن معـي في العمـل، كنـتُ مجتهـدًا بطبعـي، أسـعى للفـوز دائمًـا بـكل مـا أسـتطيعُ، لم أكـن أفلـتُ مـن بـين يـدي فرصـة لاسـتزادة خـبرة أو مكسـبٍ مـادي أو حتـى علاقـات تفيـدني في مجـال عمـلي إلا واقتنصتهـا وفي تلـك السـنوات أيضًـا حققـتُ مـا تمنيـتُ وحلمـتُ ومـا لم أفكـر فيـه مـن قبـل في كل شيء.. فحصـارُ أمـي وأعمامـي لي طـوال مرحلـة الثانويـة والجامعـة أفقـدني الكثـير والكثـير مـن حيـاة المتعـة والإثـارة التـي كنـتُ أسـتمتعُ بحكاياتهـا مـن أصدقـائي بالجامعـة مكتفيًـا بابتسـامة إعجـاب ولهفـةٍ مسـتورةٍ لمعرفـة المزيـد وأمنيـات خفيـة مبتـورةٍ في خـوض مثـل تلـك التجـارب.

كنـتُ عـلى اتصـالٍ هاتفـي دائـمٍ بخـالي لاستشـارته في أمـور الاسـتثمار والـشراء في مـصر اسـتعدادًا ليـومٍ يعـودون إلى بلادهـم ويجنـون ثمارغربتهـم.

ومـن خـلال اتصالاتي بـه عرفـتُ بـزواج "نـدى" وطلاقهـا في العـام الـذي يليـه تقريبًـا.. لم أرَ نـدى منـذ تركـوا مـصر وذهبـوا مـع خـالي إلى الخليـج حينـما كانـت في المرحلـة

الابتدائيـة تقريبًـا عـلى مـا أذكـر.. كل مـا أذكـره أنهـا كانـت طفلـة رقيقـة جميلـة خفيفـة الظـل.

عـدتُ إلى بلـدي عـودةً نهائيـةً بعـد أن شـعرت بـأن مـا مـضى ليـس بقليـلٍ في بُعـدي عـن أمـي وإخـوتي البنـات الـلاتي تزوجـت منهـن اثنتـان وبقيـت الصغـرى.. فقريبًـا سـتكونُ أمـي بمفردهـا بالمنـزل، وعـلى حـدٍّ قولهـا: "العمـر بيجـري يـا فريـد وأنـا نفـسي أفـرح بيـك وأشـيل عيالـك زي إخواتـك البنـات كـده.. هـي أمـك مـا بتوحشـكش؟!"

توكلـت عـلى اللـه وعزمـت عـلى إنهـاء عمـلي والعـودة لإقامـة مـشروع خـاص أو متابعـة مـا اسـتثمرته مـن مـال بنفـسي فللـه الحمـد أصبحـت لي خـبرة في مجـالي تتيـحُ لي العمـل في أي مـكانٍ أو تطويـر المـشروع التجـاري الكبـير للعائلـة بـكل ثقـةٍ، إلى جانـب مقومـاتٍ ماديـةٍ تجعـل أي أسرةٍ تسـعد بـأن أقـترن بابنتهـم.

لكـن أمـي وأخـواتي كان لهـن رأي خـاص آخـر بعيـدًا كل البُعـد عـن تفكـيري وقتهـا في أمـرِ زواجـي.. لـذا فحينـما بدأت الترشـيحات لمـن يتوسـمن فيهـا مقومـات زوجـة الابـن والتـي لا بـد أن تـروق لهـن قبـلي مثلـما شـعرت مـن تعليقاتهـن عـلى بعـض الجـارات أو القريبـات.. بـادرتْ أمـي قائلـةً:

ـ إيه رأيك في ندى بنت خالك يا فريد؟

ـ ندى.. ندى يا أمي؟!!

دي اتجـوزت واتطلقـت عشـان مـا بتخلفـش زي مـا سـمعت- إنتـي مـش عـاوزاني أخليـكي جـدة ولا إيـه؟

ـ يـا ابنـي.. الـلي اسـمه وجـدي ده ظـالم.. البنـت زي الفل.. هـو عشـان مـا يفضحـش نفسـه جـاب العيـب عليهـا.. البنـت عملـت تحليـلات وورتهـا لي أنـا وأمهـا وأبوهـا.. البنـت مـا تتعيبـش خالـص.. العيـب كان منـه هـو صدَّقنـي يـا ابنـي.

ـ يعني يا أمي أأتجوز مطلقة؟!

ـ مطلقة؟

دي بنتنـا وأنـا مربياهـا مـع أمهـا.. إنـت عـارف مـش هـي اتجـوزت واتطلقـت؟ أنـا أقسـم لـك أنهـا خجولـة أكـتر مـن أي بنـت تانيـة في سـنها.. يـا ابنـي بنـات الأصـول دلوقتـي نادريـن مـا تلاقيهمـش.. ودي بنتـى مـش بنـت أخويـا.. إنـت بـس شـوفها الأول وأنـا واثقـة إنـك هاتغـير رأيـك خالـص.

ـ طيـب هاشـوفها إزاي وهـي مـع أهلهـا بـره بـس؟ مـش لازم أشـوفها ولا أتجوزهـا كـده عميـاني؟

ـ هههههـه عميـانى إيـه بـس يـا فريـد ضحَّكتنـي.. ليـه هـو إحنـا سـنة كام؟ أنـا هاصـبرك بصورهـا معايـا في

فـرح المخفـي وجـدي الـلي ميِّـل حظهـا وهـي لسّـه وردة مفتحـة واتحسـبت عليهـا جـوازة..

أتـت أمـي بألبـوم صـور للفـرح ومـا بعـد الفـرح وحتـى بعـد أن انفصلـت عـن زوجهـا وجـاءت لتسـلم عليهـا مـع أبيهـا قبـل سـفرها معـه منـذ أقـل مـن سـنة تقريبًـا.. الحـق أن بملامحهـا شـيئًا مـا جذبنـي.. ربمـا نظـرة عينيْهـا الخجولـة والحزينـة التـي انطبعـت بقلبـي؟

أو ربمـا مـا سـمعته عـن تجربتهـا ومعرفتـي وصلتـي القويـة بخـالي وحبـي لـه وعِلمـي بكيفيـة تربيتـه لبناتـه، لا أعلـم ربمـا يكـون حنـينُ الـدم للـدم ولا أكـثر.

لكنـي لم أسـتطع منـع هاجـس طـاف بمخيلتـي لعـروس مرشـحة لي ولهـا تجربـة زواج سـابقة، عـروس لـن أكـون أنـا أول متـذوق لعسـلها؟ وسـواس نـال منِّـي ولم أشـأ أن أصـدم أمـي بـه.. فطاوعتهـا وأعلنـت لهـا اسـتعدادي لأن أرتبـط بهـا إرضـاءً لهـا ولثقتـي بخـالي وبهـا شريطـة أن أراهـا وأتحـدث معهـا أكـثر مـن مـرةٍ.. لـو أن القبـول بيننـا حـدث فلِـمَ لا؟

وبقي أن نفكر في كيفية اللقاء.

لا أعلـم مـاذا فعلـت أمـي ودبـرت، ولكـن مـا أعلمـه تمامًـا هـو نتيجـة فعلهـا الغامـض هـذا عنِّـي.. فـإذا بهـا تُخـبرني بـأن

خـالي محمـد اتصـل وسـأل عنـي بعـد أن أخبرتـه أمـي بأننـي أود أن أتكلـم معـه في أمـرٍ مهـم.

هكـذا وضعـتْ أمـي العقـدة في المنشـار ومـا كان عـليَّ إلا أن أكمـل مـا رسـمته هـي لي.. ولأن مـا بينـي وبـين خـالي صداقـة وأبـوَّة ومحبـة ليسـت للقرابـة فقـط فقـد أفصحـتُ لـه عـمَّا دارَ بينـي وبـين أمـي وأخـواتي بشـأن ارتباطـي بابنتـه.. فـما كان إلا أنـه قـال لي:

- سـبحان اللـه.. نـدى وأمهـا نازلـين مـصر كـمان كام يـوم عشـان أم عـادل وحشـتها أمهـا يا سـيدي قـال وعـاوزة تزورها.. النصيـب بقـى إنكـم تتقابلـوا ده تخطيـط ربنـا يـا فريـد. لم أنـسَ صـوت خـالي وهـو يُحدثنـي وشـكل الابتسـامة التـي ارتسـمت عـلى وجهـه مـن دون أن أراه.. وكـما قـال تخطيـط ربنـا يـا فريـد.. وأنـا أعلـم أنـه تخطيـط ربنـا.. ثـم أمـي وخالي.

وفي اليـوم المُحـدد لوصولهـما كنـتُ في الانتظـار بالمطـار أترقـب اللحظـة التـي أراهـا فيهـا متلهفًـا لأول انطبـاعٍ يأتينـي عنهـا ومنهـا هـل سـتنطبق المواصفـات التـي رأيتهـا بالصـورة والتـي حكتهـا لي أمـي مـع مواصفـاتي الخاصـة والخاصـة جـدًّا فيمـن سـتكون شريكـة حيـاتي والتـي رسـمتُ لهـا صـورةً مـن سـنواتٍ كنـتُ أمحوهـا وأرسـمها مـن جديـدٍ عقـب كل لقـاء لي مـع امـرأةٍ عابـرةٍ في حيـاتي.

ومنذ أن وطئنا أرضَ المطار ورأيتُها تأكدت من الإحساس الذي انتابني وقتما شاهدتُ صورتها مع أمي.. آية من الجمال والرقة.. تبدو كابنة السادسة عشرة، خجولُ رقيقة.. ألوان ملابسها الناعمة تعكسُ جمالًا إضافيًّا على وجهٍ جميلٍ، ملامحها منمقةٌ، دقيقة.. انعكست ابتسامتُها على ملامحي فأشرقتُ تبعًا لها.

مرَّ يومٌ، وأيامٌ صارت أسبوعًا كاملًا، كل يوم أراها بحجةٍ أو أتصل بها لحججٍ واهيةٍ وهي بالتأكيد تعرفُ ما دارَ بين أمي وأبيها.. كان حوارًا ملتويًا عن الدراسة والغربة والموسيقى والقراءة عن الحياة بشكلٍ عام.

وجدتها على درايةٍ بقشور الأمور، لا خبرة لها في أي شيء، نقيةٌ، بكرٌ كما وصفتها أمي وهذا ما وضع السكينة في قلبي المُحب والمتخوف من جنس حواء في آنٍ واحدٍ.. مِلت إليها وصارحتها برغبتي في الزواج منها.

زادتها حمرةُ الخجل جمالًا، وتلألأت دمعةٌ حائرةٌ في عينيْها تمنيت أن أمحوها بشفتيَّ حتى لا تجرح تلك اللآلئ نضارةَ بشرتها وبهاءها..

وكنتُ أسعد المخلوقات بزفافي على ندى.

***

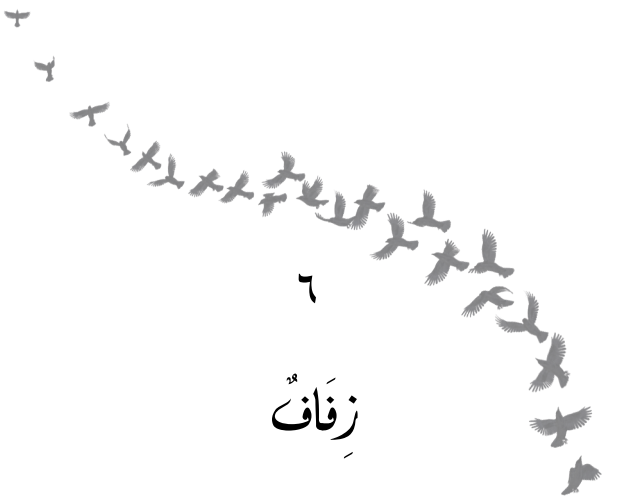

٦

زِفَافٌ

كانـت مفاجـأةُ عمتـي برغبتهـا في اقـتران ابنهـا فريـد بي غـير متوقعـةٍ بالنسـبة لي ولا لنـا جميعًـا لا سـيما أبي الـذي بـدا وكأن العنايـة الإلهيـة انتشـلته مـن حفـرةٍ عميقـةٍ قـد زلـق بهـا ولم يـدرِ كيـف ومتـى وأيـن الخـلاصُ منهـا.. كان فريـد هـو الرافعـةَ التـي أخرجَتْـه مـن تلـك الحفـرة.. فلقـب مُطلقـة كان سـوطًا يجلـده قبـل أن يصـفَ حـالي في عيـون المحيطـين.. وبالتـالي رتَّـب أبي لنـزولي مـع أمـي في أقـرب وقـتٍ لمـصر بحجـةٍ اخترعهـا هـو وأمـي وعمتـي بعـد مباحثـاتٍ وتفاصيـل وترتيبـاتٍ سريـةٍ كانـت تجـري بينهـم ونشـعر بهـا ونعلمهـا مـن خـلال الاتصـالات الهاتفيـة التـي تضاعـف عددهـا أضعـاف أضعـاف السـنوات الماضيـة كلهـا.. فصـارت مـرة يوميًّا

وتصل إلى ثلاث مرات أحيانًا لترتيب أمور التعارف والزواج بالطبع.. إلى أن توصلوا جميعًا إلى أن ننزل إلى مصر أنا وأمي بحجة زيارة جدتي لأمي ظاهريًّا أما جوهر الزيارة ما هو إلا إتاحة الفرصة لفريد ولي للتعارف وربما الاندماج أملًا في الارتباط.. ودَّعنا أبي بالمطار أنا وأمي بقبلاتٍ ودعواتٍ وكانت عيناه تُفصحان عمَّا لم يلفظه لسانه؛ وداعه لنا ما كان إلا أمنيةً أن تكون زيارتي تلك بلا عودةٍ.

رأيتُ فريد.. ورآني.. كان بالنسبةِ لي إحساسًا مهينًا مغلَّفًا بحالةٍ من الرضا والتجاهل لما قد أشعر به من أنني أصبحتُ كسلعةٍ للعرض حتى وإن كان المشتري هو قريبي لأبي؛ فلم يكن بيننا من زمنٍ أي لقاء وحتى إن كان فأنا لم أذكره؛ ففريد بالنسبة لي كان أكبر سنًّا ومكانةً من أن أفكر فيه كزوجٍ أو حتى صديقٍ.. فرق المكان والسن بيننا جعله لي هكذا.. منذ أن أتى لصحبتنا من المطار وإلى بيت جدتي وضحَ في عينيْه اهتمامه بي بشكلٍ حاول أن يُداريه لكن عينيْه كانتا تفضحانه وأحيانًا تخونه ألفاظه أيضًا.. فيلصق اسمي بأيٍّ من الشخصيات الأنثوية الموجودة بالمكان.. حتى إنه كان يُخطئ أحيانًا في أسماء أخواته ويُناديهن باسمي حال وجودنا ببيتهم أو وجودهن ببيت جدتي للزيارة.

لا أُنكر أنه جذبني إليه بتلك النظرات الخاطفة التي كنتُ أبادله إياها دون اتفاقٍ؛ فكلانا مرشحٌ للزواج من الآخر.. بل هي أمنية الأهل أن تنجح خطتهم في أن تتم هذه الزيجة من منطلق الحب والثقة لي وله.

كان فريد وسيمًا، مهندمًا في ملبسه، جميل الملامح، حلو اللسان.. لم يسألني عن زواجي الأول مكتفيًا بما عرفه من عمتي وأخواته أو من أبي وأمي ربما عن ملابسات الزواج والطلاق.. ذوقه ورقته في التعامل معي شدَّا انتباهي وجعلاني أعجب به.. كان إعجابًا فقط وليس حُبًّا.. لكني تأكدتُ أنه كافٍ لقبولي الزواج منه.. اقتصرت لقاءاتنا المعدودة على أصابع اليد الواحدة على حوارات هامشيةٍ في الموسيقى والقراءة وأحيانًا الطبخ وشتى أمور الحياة العامة والخاصة.. وخصص وقتًا كبيرًا لوصف حالة الغربة التي عاشها على مدار عشر سنوات وما أنجزه فيها ووضعه المادي والاجتماعي برغم صغر سنه مقارنةً بغيره ممن كانوا معه في نفس مجال تخصصه.. وكيف أنه بنشاطه وذكائه اكتسب ما لم ينَله غيره.. كانت ثقته بنفسه تُبهرني.. وأنا بطبعي قليلةُ الكلام فكنتُ أكتفي بالتعقيب بالهمسِ أو بمجاراة الحديث فقط. وتمت الخِطبة ولم تزد على شهرين سارع الجميعُ بعدها للمشاركة بالمجهود لإعداد منزل الزوجية واستعدادات

العُـرس وحتـى تفصيـل فسـتان الزفـاف ودعـوة المعازيـم لحضـور حفـل الـزواج..

كان احتفـالًا عوَّضنـي عـن كل مـا سـبق في زيجتـي الأولى التـي اُحتُسِـبَت عـليَّ رغـمًا عنـي.. أو ربمـا لأني هـذه المـرة كنـتُ أعـرفُ أني عـلى الأقـل لـن أهـان؛ فهـو ابـن عمتـي.. ولـن يسـتطيع إهانتـي كـما فعـل وجـدى وأهلـه.. بـل والأهـم بالنسـبة لي كان هـو أن زواجـي بـه كان كـردٍّ اعتبـارٍ أمـام النـاس جميعًـا؛ خاصـة طليقـي وأهلـه أننـي لسـتُ بعاقـر ولسـتُ أنثـى ناقصـة في شيء وأننـى حتـى وإن تزوجـت وتطلقـت مـا زلـت مرغوبـةً في حـين أنَّ بنـاتٍ مـن سـني لم يتقـدم لهـن أحـدٌ بعـد.. وكان شرطـي الوحيـد أن أكمـل دراسـتي الجامعيـة التـي توقفـت عنهـا مـدة العامـين.. ولم يرفـض "فريـد" بـل وعـدني بـأن يقـفَ بجانبـي خـلال الأعـوام المتبقيـة وبـكل الأوجـه، كان فريـد بالنسـبة لأهـلي ولي فرصـةً ربمـا لـن تُعـوض لامـرأةٍ مطلقـةٍ في بدايـة حياتهـا.. ولِـمَ لا وهـو الأقـرب والأغنـى والأصلـح لي ماديًـا وأسريًـا واجتماعيًـا.

كان حفـلُ زفـافي أسـطوريًّا بالنسـبة للأهـل والأقـارب والمعـارف، ظـل حديثهـم لفـترةٍ طويلـةٍ.. لم يـتردد فريـد للحظـةٍ في أن يدفـع في ليلـة العمـر هـذه مـا يجعلهـا بالفعـل ليلـة عمـر لـكل مـن حضرهـا وليـس لنـا فقـط.. ربمـا كان

هـذا جانبًا مـن شـخصية فريـد.. حُـب الظهـور والتباهـي بمـا يملـك.. أو يسـتطيع أن يملـك ويفعـل.

ارتديـتُ فيـه أبهـى مـا يُمكـن وصفـه بفسـتان زفـاف.. نُسِـجَ مـن الحريـر الطبيعـي الـذي كاد يتنافـس مـع رقـة ملمـس بـشرة ونضـارة ابنـة العشريـن ربيعًـا، بـدوتُ كلوحـةٍ فنيـةٍ.. أشرقـتْ وجنتـاي بإطـار أطرافـه كانـت مـن قـرط الماس تـدلى مـن أذنيَّ ليصـلَ بمـن يـراه إلى سـحابةٍ بيضـاء شـفافةٍ في نهايـة عنقـي ازدانـت بــ "عقـد" يُشـير إلى صـدر الفسـتان المُـرصَّع بأحجـارٍ مـن الشوارفيسـكي الأصـلي الـذي أُحـضِرَ خصيصًـا لترصيـع فسـتان زفـافي حتـى بـدا جميـع الحضـور في حـيرةٍ.. هـل الفسـتانُ هـو مَـن زيَّـن العـروس أم أن العـروسَ هـي مَـن ازدان الفسـتانُ بارتدائهـا لـه!

كنـتُ محـط أنظـار الجميـع، فمـع أننـي مُطلَّقـة في عُـرف المجتمـع إلا أننـي مـا زلـت أمتلـك الشـباب والحيويـة والجـمال.

منـذ أيـام زواجنـا الأولى ولم يبخـل فريـد عـليَّ بـشيء، فقـط كنـتُ أتمنـى أو أحلـم بـشيءٍ وقبـل أن أكمـل الحُلـم يُحقَّـق دون أن أتفـوه بكلمـةٍ منـه.. لم يشـعرني للحظـةٍ بأنـه الرجـل الثـاني في حيـاتي.. بـل شـعرتُ معـه بـأني تزوجـت الآن فقـط.. وكأني تركـتُ بيـت أبي لأول مـرةٍ لأكـون مـع فريـد.

صرتُ ملكةً لقلبهِ وبيته بكلِّ سهولةٍ لم أبذل مجهودًا لنيْل تلك المكانة، فقد كنتُ بالفطرة وعدم خبرتي بالحياة كقطعة صلصال بين يديْه يشكِّلها كيفما أراد.. يجعل منها نموذجًا مصغرًا إن أراد.. وإن لم يعجبه فله أن يدمجها من جديدٍ ويُعيد تشكيلها حسبما أراد أن يفعل لتسعده أو تكمل إطار حياته الذي حدده لها ولنفسه..

لم تكن معضلة.. فقد خرجت من بيت أبي وتعليماته إلى بيتٍ وجدت فيه المهانة لمدة عامين ومن ثمَّ عليَّ أن أكون مطيعةً طاعةً عمياء لزوجٍ شاب فضَّلني عن مثيلاتي ممن لم يتزوجن بَعد، وهي صفة لا تتوافر في الكثيرين كونه يُقبِل على زواج من سبق لها الزواج بغيره وإن ظُلِمَت فيه.. لكن المبدأ واحدٌ.. إنه ليس بأول رجلٍ بحياتي.. كانت تضحيته بالنسبة لي "جميل" يستحق أن أتنازل مقابله عن أي شيء ممكن أن أسعده به فصار لي كأب آخر ولكن بصفة ومواصفات زوج له حقوق وواجبات وطاعة لم تكن لغيره.

عانيتُ الكثير في أيام زواجنا الأولى كعَلاقة زوجية خاصة.. فقد كان خيالُ وجدي دائمًا أمامي- في الفراش- لم أنسَ للحظةٍ الإهانات والسباب الذي نلته منه بسبب عدم الإنجاب.. تولَّد لديَّ هاجس أن البداية هنا- في الفراش- والنهاية أيضًا ستكون بسبب نفس الفراش..

لم أشعر بنشوة اللقاء أو حتى مجرد الرغبة فيه.. ومع ذلك كنتُ أتفنن في إخفاء هذا الشعور وأنا معه.. بل كنتُ أُفرط في تدليله وإظهار سعادتي معه، للقضاء على أيِّ تفكيرٍ يتسرب إليه أو إحساسٍ من خلاله يُمكن أن يصدمني مرةً أخرى في أنوثتي التي طُعِنَت من قبل ولو بلفظٍ كنتُ أخشاه دومًا.. "أن أكون امرأةً لا تُشبِع رغبات زوجها الشرعية" أو مطلَّقة للمرة الثانية.

وأخيرًا..

صالحني القدر.. وبعد ثلاثة أشهر من الزواج جاءت بشارةُ حملي الأول.. ولم تكن الأرض لتسعني ولا السماء.. فقط هنا استعدتُ أنوثتي التي طُعِنتُ فيها.. استرددت كرامتي كامرأةٍ لا حول لها ولا قوة أمام جبروت رجلٍ تناسى كل شيءٍ إلا رجولته وفحولته التي يجب ألا تُهَان أو يُقلَّل منها.. فرحتُ وفرح زوجي وفرح الأهل بقدوم أول فرحتنا جميعًا وقد كان وأسميناها.. "فرح" وبالطبع كان عليَّ أن أتناسى دراستي الجامعية مدة الحمل والإنجاب أولًا لأهتم بالحمل وأضمن أن يتمه الله على خير، كاملًا دون تدخُّلٍ منِّي أو تقصيرٍ يجعل به مشكلةً ما.. وحتى بعد الإنجاب كان عليَّ الاهتمام بالمولودة في بداية عمرها فلن أستطيعَ ترك فرح مع مَن يرعاها في غيابي أوالنزول دونها إلى الجامعة..

اختلف مذاقُ الأيام منذ جاءت إلى الدنيا فرح.. وبدأتُ أعرفُ مذاقًا جديدًا عليَّ.. إحساسٌ غريبٌ تملَّكني لم أكن أعرفه مِن قبل.. إحساسُ الأمومة كم هو عظيم.. شعرتُ كوني ممتلئةً بالحنان والرغبة في العطاء كما لم أكن من قبل مهما وصفت.. أن تكون دومًا مصدرًا للعطاء شيء غير عادي.. العطاء بدون انتظار مقابل، الرغبة فقط في إسعاد شخصٍ آخر، هو بالفعل جزء منك، حياته ترتبط بحياتك.. كأنك تحيا لأجله.. نهر يصب ببحيرة، لا النهر ينقص ولا البحيرة تكتفي.. أصبحتْ فرح كل حياتي بل وحياة فريد أيضًا..

وكأن الله يُغدق عليَّ من نعمه لتزداد ساحتي براءةً في نظر الجميع ويتوجني بتاجٍ تتمناه كل امرأة.. "تاج الأمومة".

في العام الذي يليه أنعم عليَّ الله بـ "هنا" أختًا لـ"فرح" وصرتُ أُمًّا لبنتين يتحاكى الجميع بجمالهما.. أصبحتْ ابنتاي هما كل حياتي وبهجتها.. فيهما أرى الدنيا وزينتها. تناسيتُ دراستي ولم أنسَها..

مرَّت تلك الأعوامُ برغم أعبائها ومسئولياتها من حملٍ وإنجابٍ وتلبية رغبات أسرةٍ صغيرةٍ لضمان حياةٍ مستقرةٍ

وهادئةٍ.. ولكنها مرَّت ولم أحسبها بمعيار الزمن بل بمعيارٍ آخر استشعرته ولم أُجِد التعبير أو الإفصاح عنه.

سعادتي بإنجاب ابنتيَّ وتدليل زوجي لي كانت تنسيني الكثير من أمور الماضي: ".. فبرغم كل ما مرَّ إلا أنني ومنذ أول يوم لزواجي افتقدت متعة العلاقة الحميمية بزوجي.. ولا أدري ما السبب لها.. برغم محاولاتي التمرد على هذا الشعور إلا أنني انتهيتُ إلى أن أكون مُستسلمة له ولممارسة الحياة كما هي ما دامت تسيرُ بشكلٍ لائقٍ.. خاصة أن شبح الاتهام بالبرود في العَلاقة أخذ يُلازمني في اللاوعي بشكلٍ مستمرٍّ.. ولا أدري لِمَ تذكرتُ "عهد" الآن!!

تُرى أكانت هي أحد تلك الأسباب؟

هل ما كنتُ أستشعره معها من لذةٍ في الحديث واستحضار لخيالي المراهق وقتها كان سببًا تأثيره مُستمرًّا أفقدني إحساسي بالواقع الفعلي للعلاقة؟ لا أعلم.

وبرغم ذلك، اعتدتُ الحياة ومجاراتها والانغماس فيها دون أن أشعر بلهفةٍ أو إقبالٍ عليها.. حالة من البرود لازمتني بشكلٍ عام بعد مرور أعوامٍ قليلةٍ من زواجي وإنجابي لابنتيَّ.. لم أعد أعرفُ كيف أُرضي نفسي لتتصالح

معـي وتحيـا برضـا وسـلامٍ، كنـتُ بارعـةً في عـدم إظهـار أي شيء مـما أشـعرُ بـه وأحيـاه بشـكلٍ دائـمٍ بينـي وبـين نفـسي.. في حـين كان فريـد- كـرجل أعـمال- يتميـز بالعمليـة في كل تفاصيـل حياتـه.. يحسـب كل شيء بمبـدأ المكسـب والخسـارة.. يُعطـي ليأخـذ.. يـزرع ليحصـد.. هكـذا علمتـه الغربـة والأرقام ألا يُحكِّـم عواطفـه في حياتـه إلا مـا نـدر.. حياتـه مـع الأرقـام جعلتهـا مبرمجـةً، الحيـاة كلهـا عمليـة حسـابية وكانـت عباراتـه الشـهيرة: "واحـد زائـد واحـد لازم يسـاوي اتنـين"، إذن لا مجـال للاختيـارات معـه في أمـورٍ محسـومةٍ مسـبقًا عـادةً.

اعتدتُ.. واعتاد

اعتدتُ.. أن أستمعَ بل وأنصتَ لأحاديثه المكررة في صمتٍ.

اعتاد.. الثرثرة والمباهاة بنفسه وبطولاته.

اعتـدتُ.. أن أرسـمَ الابتسـامةَ عـلى وجهـي باسـتمرارٍ وقلبـي حزيـنٌ دون تحديـدِ سـببٍ بعينـه..

اعتاد.. أن يُعطي ليأخذَ مقابلًا.

اعتدتُ.. أن أعطي بلا مقابل.

اعتادني جزءًا من البيت بل ومن حياته..

اعتدتُه فقط.. اعتدتُ وجودَه.

***

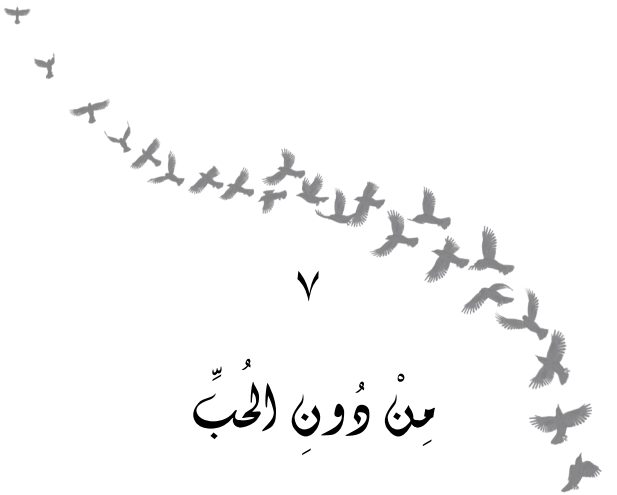

٧

مِنْ دُونِ الحُبِّ

ندى.. مالك؟ مش معايا ليه؟ سرحانة في إيه؟

ـ أبدًا.. معاك أهو.. هاروح فين يعني.

ـ لا لا لا، إنتي مش معايا خالص.. شاردة فين؟

ـ إنت عارف إحنا بقالنا أد إيه متجوزين يا فريد؟

ـ سنين مرت هوا يا حبيبتي.. أجمل سنين عمري.. كفايه وجودك إنتي والبنات في حياتي.. إنتي مش مبسوطة معايا ولا إيه يا ندى؟

لم أرد..

ـ يااااه.. محتاجة التفكير ده كله عشان تردي يا ندى؟

ـ حقيقي أنا مش عارفة أنا مبسوطة ولا اتعودت!

ـ اتعـودتي؟! اتعـودتي عـلى إيـه؟ إنتـي مـش مبسـوطة معايـا؟!!!

ـ فريـد.. أنـا محتاجـة أكمـل دراسـتي.. إنـت عـارف إن ده حلمـى الـلي اتحرمـت منـه وإنـت وعدتنـي قبـل الجـواز تحققهـولي ولمـا خلفـت البنـات أنـا قعـدت علشـانهم.. وهـما دلوقتـي اتفطمـوا وبيتكلمـوا وبيروحـوا الحضانـة كـمان.. متهيـألي أقـدر أروح الجامعـة أنـا بقـى وأقـدم في أي كليـة مـن جديـد؟

كان وقـع كلامـي عـلى فريـد كمـن صُفِـعَ عـلى غفلـةٍ فلجَّـم لسـانه وبرقـت عيناه واتسـعت مسـتفسرةً دون التفـوه بـشيء.. تعبـير قرأتـه عـلى ملامحـه وأكدتـه عينـاه.

ـ إفهمنـي يـا فريـد.. أنـا اتجوزتـك وأنـا كنـت في البيـت ومـا دخلتـش الجامعـة للظـروف الـلي إنـت عارفهـا وإنت وعدتنـي تحقـق لي حلمـي وأكمـل دراسـة.. دلوقتـي زميـلاتي اتخرجـوا مـن الجامعـة ولسـه مـا اتخطبـوش حتـى.. أنـا حققـت لـك السـعادة الـلي إتمنيتهـا إنـت، وإنـت لسـه قايـل بلسـانك أهـو، وخلفـت نـور عيوننـا الاثنـين، مـش مـن حقـي أنـا كـمان أكمـل دراسـتي؟

ـ طيب ليه يا ندى؟ ناقصك إيه؟ عاوزة تدرسي عشان إيه؟!!!وظيفة؟

فلوس؟

مكانة اجتماعية؟

كل ده عندك موجود ومن زمان كمان.. يبقى ليه بقى الجامعة؟

ـ أنا محتاجة أشوف ناس- أتعلم- أقرأ- أتعامل مع بنى آدميين غير اللي في البيت والجيران اللي حتى دول ما بعرفهمش.. محتاجة يكون لي كيان غير إني زوجة وأم بس يا فريد.

ـ يعني إنتي عاوزة تخرجي وتتعلمي وتعملي لنفسك كيان؟ حاااضر تقدري تعملي ده من غير الجامعة.

ـ من غير الجامعة إزاي؟ وليه لأ؟ ليه رااافض؟

ـ يا ندى أنا بغير عليكي ومن الآخر كده مستحيل أسيبك للي رايح واللي جاي يتفرج عليكي.

ـ إيه؟ يتفرج عليَّ؟ هو اللي بيروح الجامعة بيبقى فرجة للناس؟

ـ أيوه إنتي مراتي أنا وبس.. وأنا الوحيد اللي أقول إيه يتعمل وإيه ما يتعملش.. إنتي ملكي أنا وبس. اللي

إنتـي عـاوزاه أجيبـه لـك هنـا- هنـا في بيتـي في بيتـي وبـس- وخلـص الـكلام لحـد هنـا خـلاص.

كانـت كلماتـه كخناجـر طعنتنـي في أحلامـي.. كسـيوف بـترت كل أمـل لي في التخلـص مـن ذاك القيـد الـذي يربطنـي بروتـين وملـل وبـرودة حيـاتي.. والـذي لم أعـرف لـه سـببًا حتـى الآن..

تملكنـي شـعور مُلـح بأنـه قـد آن الأوان لتحديـد هويتـي؟ مـاذا أريـد؟ عـمَّ أبحـث؟ مـا الـذي ينقصنـي ولا أعرفـه؟ هنـاك شيء مفقـود بداخـلي غـير محـدد ليسـت الدراسـة هـي كل الأمـر.. ولكـن هنـاك شـيئًا آخـر لا أعلمـه يسـيطر عـلى خواطـري ومكنونـات نفسي.. عـلى وحـدتي وأفـكاري بـل وحيـاتي أيضًـا.

وفي إحـدى الليـالي.. كان فريـد كعادتـه يعمـل عـلى الكمبيوتـر وأنـا بجانبـه أتصفـح إحـدى المجـلات النسـائية، غالبـه النعـاس فقـام بالاسـترخاء عـلى الشـازلونج في الجانـب الآخـر مـن الغرفـة وطلـب منِّـي أن أنبهـه بعـد أن أنتهـي مـن إعـداد كـوبٍ مـن الشـاي لـه.. ليسـتريح دقائـق ومـن ثـم يواصـل عملـه.. وقـد كانـت بالفعـل دقائـق.. مـا هـي إلا دقائـق وغـط فريـد في سـباتٍ عميـقٍ، كان الإرهـاقُ يبـدو واضحًـا عليـه فاستسـلم تمامًـا للنـوم.. جئتـه بغطـاءٍ خفيـفٍ

وأرحتُ يديْه وقدميْه على الشازلونج ثم توجهتُ لشاشه الجهاز لأوقف تشغيله..

في تلك اللحظة.. خطر على بالي أن أتطفل على هذا الجهاز، شيء من الفضول دفعني لأتأمل تلك الشاشة وأطّلع على هذا العالم الساحر الذي يختبئ وراء تلك الشاشة الساحرة التي طالما قابلها فريد دون ملل أو ضجر بل ويظل يُحادثها وتُحادثه ساعاتٍ وساعاتٍ حديثًا صامتًا فقط بالعيون دون أن ينطق بكلمة أو حتى إيماءة.. حتى إنه لا ينتبه لما يفعله كل من حوله، تغيب حواسه بالكامل أثناء عمله على الكومبيوتر.

إذن.. لا بأس من أن أتلصص على استحياء على ذلك العالم المخبَّأ داخل ذلك الصندوق السحري في منزلي منذ سنواتٍ.. وقد أصبح قطعةً أساسيةً بالبيت شأنه شأني تمامًا!

إذن.. فلنتعارف أيها الرفيق الذي يعج بالحياة أكثر منِّي.. هيَّا بنا نتعارف.. فكلانا هنا لراحة صاحب الدار المالك لنا جميعًا.. أنا ندى وأنت؟!!

لم أدرك كم من الوقت مضى وأنا أحاول أن أتعرَّف على الكمبيوتر بمفردي.. وقد بدوت كالقروي الساذج الذي يقف مشدوهًا أمام كل جديدٍ حينما قدم إلى مدينة

العجائب، مدينة يتسارع كل من بها لإبهار الزائر بكل جديدٍ ومستحدثٍ لم يُدركه بقريته.. حقًّا كنتُ أجهلُ تمامًا ذلك الجهاز ومعرفتي به لا تتعدى كيفية تشغيله وإيقاف تشغيله فحسب أو تنظيف ما حوله من أتربة أو لملمة أوراق وما شابه، وذلك بعد انتهاء فريد من العمل عليه.. إلى أن لاح النهار فسارعتُ بإغلاق الشاشة ولم أستطع غلق تفكيري به من وقتها وقررتُ أن أتعرف عليه بشكلٍ عملي وجادٍّ.. فما لم أدركه خارج البيت سأدركه وأنا بالبيت، هكذا أراد فريد وهكذا سأفعل أنا ولكن بما يُناسبني ودون اختياره هو...

بعد وقتٍ بسيطٍ وإلحاحٍ كبيرٍ بالسؤال والاستفسار عن كل كبيرةٍ وصغيرةٍ بالكمبيوتر على فريد مرة وأخواته بل وأبنائهن الصغار أيضًا مرات.. صرت كلما استطعت أن أعرف من أحدٍ شيئًا سعيتُ إليه ولم أخجل من طلب التعلُّم ممن هم أصغر منِّي.. فما يعرفه أبناء أخواته الصغار في سنوات عمرهم البسيطة لم أعرفه أنا وعمري أضعاف أعمارهم.. وخلال شهرٍ بالتقريب تعلمت أبجديات الكمبيوتر وأساسياته.. اجتهدتُ في سؤال كل من أعرف ومن له دراية به إلى أن أصبح له نصيبٌ يومي من وقتي يبدأ بخروج فريد للعمل صباحًا ويظل قائمًا بتفكيري إلى أن أعودَ إليه مرة أخرى.. ويومًا بعد يومٍ

ازدادت ساعاتُ رفقتي للكمبيوتر، أصبحنا صديقيْن.. لازمني حتى أثناء النوم كنتُ أفكر بما تعلمته عليه وما الذي يتبقى لأعرفه.. صرتُ أتصارعُ وأتسابقُ مع الوقت لنيل أكبر قدرٍ من المعرفة عن هذا الجهاز العظيم..

إلى أن طلبت من فريد أن يحضر لي جهاز لابتوب خاصًّا بي حِرصًا على جهازه من أن أتعرض لخطأ ما في التشغيل أو الاستعمال فيؤثر سلبًا على ملفاته أو أعماله الخاصة.. وحتى يتسنى لي العمل والتواصل من داخل البيت كما هي رغبته التي صرَّح بها منذ أيام.. وقد كان وأتى لي به فريد ولا أستطيع وصف التحول الذي حدث لي وقتها.. وكأني نلتُ نافذةً على العالم متاحةً لي طول الوقت كيفما أريد ووقتما أريد.

وجدتُ فيه تعويضًا عن الدراسة التي حُرِمتُ منها بل ومُنِعت منها بإصرارٍ من فريد عن مواصلتها أو استكمالها خارج نطاق البيت.. لم أعد أشعرُ بالوقت ولا بالملل منه، كنتُ أسرع في إنهاء التزاماتي اليومية للبيت والبنات وله أيضًا حتى أكون على موعدي في لقائي بمن عوَّضني عن فراغٍ كبيرٍ داخلي لم أكن أعلم مصدره.

أشبعتُ رغبتي في التعلم والدراسة بانتقاء عشوائي كل يوم.. ماذا سأقرأ؟ ماذا سأتعلم؟ ماذا سأسمع؟ ماذا سأشاهد؟

إلى أن جاء يومٌ وقع اختياري بالصدفة على مقطوعةٍ موسيقيةٍ صوفيةٍ تُصاحبها كلمات للعالم الصوفي الجليل/ جلال الدين الرومي..

من دون الحب..
كل الموسيقى ضجيج
كل الرقص جنون
كل العبادات عبء

أثارت تلك الكلماتُ انتباهي وجذبتني بشدةٍ.. وكان لوقع الموسيقى المصاحبة بالناي شجنٌ لمس داخلي شيئًا ما، حرَّك كوامن نفسي.. شجن خفي عجيب لم أفسره. تذكرتُ أبي.. وأبياتُ الحلاج التي كانت تُشجيني دون أن أعرف معناها.. أعدتُ تشغيل الموسيقى مراتٍ ومراتٍ.. تمعنت في المعنى ولم أستوضحه، ولكن كل ما شعرتُ به وقتها أن شيئًا ما سُلِبَ منِّي.. ما هو؟ لا أعلم.

من دون الحب.. !!

الحب؟
أين هو منِّي؟

بل أين أنا منه؟

بل.. ماهو ذاك الحب؟

***

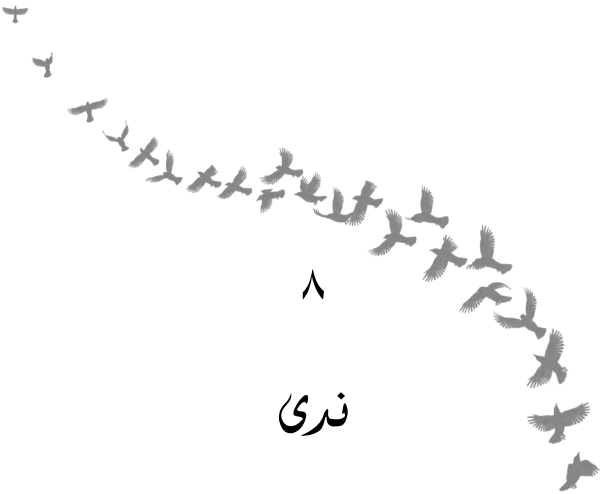

٨

ندى

لم أذق طعم النوم في تلك الليلة..

ظللتُ في مخدعي مفتوحة العينيْن.. خاملة الجسد.. شاردة الذهن.. أحملق في سقف الغرفة.. شريط سينمائي مرَّ أمامي على شاشة العرض التي انبثقت من داخلي وصارتْ أمامي كفيلمٍ أراه وأسابق كادراته بما لديَّ من مخزونٍ من مشاهد أُخِذَت وتُرجِمَت وتقمص الأبطال أدوارهم جميعًا في سنوات عمري السابقة فاعلين بها ما يحلو لهم.. وكأن اسمي بهذا الفيلم كُتِبَ كدور بطولة ولم أنجز من مشاهده إلا الثانوي منها..

كـم مـن العمـر مـضى؟ مـاذا جنيـتُ مـن أحلامـي؟ وكـم تبقـى لتحقيقهـا؟

وهل كانت لي أحلام بالفعل؟

أي أحـلامٍ لمـن اخُتطفـت مـن سـنوات عمـر الطفولـة لتصبـح زوجـةً وأمًـا..

مـن المراهقـة وقلـة الخـبرة وعـدم النضـج.. إلى خـبراتٍ اكتسـبتها بالفطـرة.. لا تتعـدى كيفيـات فطريـة تسـتطيع أي فتـاة وامـرأة في الكـون أن تكتسـبها..

كيف تُرضعين طفلك

كيف تُدللين زوجك

كيف تطهين طعامك

كيف تُجيدين استقبال ضيوفك

كيف تكرِّسين حياتك كـزوجةٍ وأمٍّ فقط!!

تلك هي الخبراتُ التي تعلمتها قسرًا وليس اختيارًا منِّي..

أيـن أنـا مـن ذلـك؟ أنـا بالفعـل كل ذلـك.. البيـت، الـزوج، الأبنـاء، الأسرة..

كل هذا "حب" أعلم ذلك.. ولكن هل هذا هو كل الحب؟

هل هو الحب الذي ينقصني؟

هل هناك حب يتعدى تلك المعاني؟

أم أنه محض تعوُّد.. ومِران تدربت عليه خلال سنوات عمري التي تعدَّت العشرين بكثيرٍ.. كم كانت الأعوامُ برغم قصرها أو قلة عددها ثقيلةً!

وكأن القدر يضعني في اختبار أو أن الله قدَّر لي أن أقع فريسة الحيرة والتفكير.. فليس كل تفكير إيجابي ولكن نحن مَن بأيدينا أن نحوِّله من سلبي إلى إيجابي.. أن نتحرى النقاط التي تُحول مسار تفكيرنا..

ماذا نريد؟

ما الذي يشغلنا؟

وماذا بعد أن نعرف الإجابات؟

***

ـ على فكرة يا ندى.. أنا مسافر كمان كام يوم النمسا ضمن بعثة مشتروات للماكينات الجديدة للمصنع.. جهِّزي لي شنطتي يا حبيبتي اليومين دول من فضلك.

ـ فجأة كده؟

ـ لأ مش فجأة ولا حاجة.. ما أنا بقولك أهو بعد كام يوم- يبقى فجأه إزاي؟

ـ ها تقعد أد إيه؟

ـ شهر.

ـ إيه؟ شهر؟ هاتسيبنا شهر لوحدنا يا فريد؟

ـ طب هاعمل إيه؟ هي أول مرة؟ يعني أخدك معايا؟ طب والبنات؟ هاخدهم كمان؟!!!

ـ "ممتعضة" لأ طبعًا ما ينفعش.. طيب إبقى كلمني كل يوم يا فريد- اتطمن علينا.

فريد: "مبتسمًا" أكيد.

سافر فريد في الموعد المحدد- وكعادتي كل مرة قبل سفره الذي اعتدت عليه والذي لم يكن يطول أكثر من أيام تُعَد على أصابع اليد.. ودَّعته بدعوات وأمنيات لذهابه وعودته لنا بخير.. وإن كان قلبي قد ساوره قلقٌ مبهمٌ.. وبمجرد وصوله النمسا هاتفني لمدةٍ لا تقل عن نصف الساعة حكى لي فيها تفاصيل كل دقيقة بعد أن غادر مصر.. منذ أن ودَّعتُه في مطار القاهرة، وكيف كانت رحلته مرهِقة ليس لطول السفرولكن بسبب من رافقته بالمقعد المجاور له في الطائرة.. كانت امرأةً عجوزًا يبدو من حديثه عنها ومعها أنها المرة الأولى لها في ركوب الطائرة.. وأنها مسافرةٌ لرحلةٍ علاجيةٍ حيث ينتظرها هناك ابنها وزوجته وأولاده.. وكيف كانت تنام وتستيقظ

كل عـدة دقائـق مفزوعـةً وممسـكةً بيـده عـلى غفلـةٍ مـما أصابـه بتوتـرٍ نتـج عنـه اعتـلالُ مزاجـه طـوال الرحلـة وحتـى بعـد أن وصـل وقـد تمكَّـن الصـداع مـن رأسـه بـل فتـك بـه فتـكًا..

تكـرَّر اتصالـه بي ثـاني يـوم.. وثالـث يـوم.. لدقائـق معـدودة وكأنـه يتصـل لواجـب عليـه أداؤه.. ومـن ثـم مـرَّ يومـان وثلاثـة وأربعـة ولا اتصـال واحـد فقـط للاطمئنـان عـليَّ أو عـلى بنتيْـه..

في اليـوم الخامـس اتصـل بي ومـا وجـدتُ نفـسي إلا وأنـا أمطـره بوابـلٍ مـن العتـاب واللـوم والشـجار أيضًـا.. ولم يكـن رده سـوى لطمـةٍ صُفِـعَ بهـا قلبـي قبـل أن تصفـع مسـامعي..

قال لي "صارخًا": حصل إيه يا ندى!

كل شـوية نكـد نكـد نكـد.. حتـى وأنـا مسـافر عـاوزة تحملينـي مشـكلة قلقـك وتوتـرك؟

أنا جاي أشتغل ولا أقعد أونِّسك بالتليفون؟

...

أنهيـتُ المكالمة التليفونيـة.. وأغلقت الاتصـال ولكن فُتِحَت علامـات اسـتفهام كثـيرة.. عـن دمـوعٍ لم تتوقـف ولم أحـدد هل

سببها الاتصال الأخير؟ أم أنه كان بمثابة الحجر المُحرك لبحيرةٍ راكدةٍ من المشاعر الباردة التي لم يأتِ أوان تحريكها بعد!! هل عدم اتصاله لأيام هو السبب؟

هل رده هو السبب؟

هل اشتياقي له هو السبب؟

لا.. لن أكذبَ على نفسي أكثر من ذلك.. لم أشتَقْ إليه يومًا.. ولم أشعرْ بلهفةٍ للقائه.. فقط تعودت على وجوده كركنٍ أساسي في حياتي وتركيبتها الاجتماعية التي لم أختَرها بل وجدتُ نفسي في إطارها باختيار والديَّ مرةً وبتحريض من المجتمع مرةً أخرى..

كنتُ أعلمُ جيدًا أن سنوات حياتي معه ومسئولية تربية بنتيَّ وتعليمهما كانت كعربات القطار تجرُّ بعضها البعض ولو أن عربة تخلَّت عن الركب لصارت كارثة.. جميع العربات تسيرُ في اتجاه العربة الأولى وهو وحده من يتحكم بقيادتها كسائقٍ ماهرٍ وما أنا سوى إحدى تلك العربات التي تنقاد وراءه، وحده هو القائد، هو المُسيطر، هو من بيده السير والوقوف وقتما شاء وأينما شاء.

ظل يتملكني شعورٌ خفيٌّ وقويٌّ بأن ما ينقصني شيء كبير.. ليس سفر فريد هو السبب.. فأنا أعرف أنها أيام

ويعـودُ، ولكـن مـا أفتقـده أشـعر بمكانـه خاليًـا داخـلي فكـرًا وروحًـا.. إحسـاسٌ صعـب الوصـف- شيءٌ مـا يحـدث بداخـلي.. يُناديـني في الخفـاء وفي الأحـلام خاصـة.. أثنـاء نومـي لا يـكاد يخلـو أسـبوعٌ مـن حُلـمٍ أرى فيـه كيانًـا مـا ولا أرى ملامحـه ولكـن همسـه يعنِّفنـي وبشـدة.. يؤنبنـي عـلى عـدم بحثـي عنـه. صـارت أحـلام لا تُبارحنـي.. أشـعرُ دائمًـا أن سـياجًا مـا يحوطنـي.. مجهـول قيـوده حريريـة وقويـة معًـا.. لا تؤلمنـي بـل عـلى العكـس أسـتعذبها.. قيـدًا أحببتـه وإن كنـتُ أجهلـه لكنـي أستشـعره ولا أسـتطيع تحديـد معالمـه..

أصبحتُ كالمسحورة

نعـم مسـحورة ولا أعلـم مـن أيـن ولا كيـف ولا متـى بـدأ هـذا الشـعور يتملكنـي..

كل مـا أثـق بـه هـو أننـي غـير راضيـةٍ عـن نفـسي ولا حيـاتي- متمـردة في صمـت-لم أسـتطع تحديـد هـذا الشـعور ولا نكرانـه.. يـزدادُ هـذا الشـعور ويتضـح جليًـا عنـد قـراءتي أو سـماعي لكلـماتٍ حانيـةٍ.. لم يـزل قلبـي يخفـق بشـدةٍ لسـماع كلـمات الحـب والوَلـه وإن فاجـأني القـول ولم أتأهـب لسـماعه.. يأخـذني الفكـر بعيـدًا إلى مـا وراء الموقـف، أشرد، فـلا أجـدني عـلى الأرض ولا أفهـم لغـة أهـل الأرض.. هنـاك معـانٍ خاصـة تهيـم بي وأهيـم بهـا، أسـتمع إلى موسـيقى

خاصـة غـير محـددة النغـمات ولا المصـدر ولا الآلات، فقـط كل مـا أدركـه أنهـا تُسـكرني، تشـجيني، ترحـل بي إلى عـوالم لا أعرفهـا، ولكـن بهـا أجـدُ مسـتقرًّا نفسـيًّا وروحيًّـا.. أجـد نفـسي وروحـي معهـا وترتبـط في مخيلتـي دومًـا بـأبي.. وأذكـر أبياتًـا هـي لي دعـاء ورجـاء للـه.. مـن أنشـودة غنَّتهـا أم كلثـوم في فيلـم رابعـة العدويـة.. وكان أبي يُغنيهـا أيضًـا لي مبتسـمًا عنـد كلمـة "نـدا" وكأنـه يشـير لي بهـا:

لغيرك ما مددت يدا وغيرك لا يفيض"ندا"

وليس يضيق بابك بي فكيف ترد من قصدا

فيا رب.. لا ترد لي يدا وكن لي عونًا في حيرتي.

***

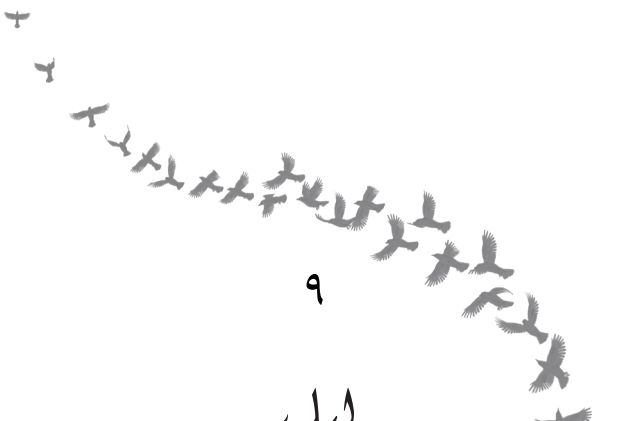

٩

ليلى

ما أصعبه إحساسٌ للرجل أن يشعر بأنه أصبح لامرأته مجرد عائل لها ولبيتها، مسئولًا عن تدبير أمور المعيشة فقط.. نعم بعد أن تزوجت ندى وعشت معها أجمل شهر عسل لم أشعر إطلاقًا أنني لستُ أول رجلٍ بحياتها لأنها بالفعل كانت لا تزال بِكرًا، بِكرًا في مشاعرها والتعبير عنها، وخجلها في الإفصاح أو حتى استيعابها لي كزوجٍ وإرضاء رغبتي لها باستحياء كان يرضي رجولتي ويسعدني بإحساس أني من امتلك هذه الزهرة الندية.. فكانت لي أغلى ما امتلكته في حياتي.

كان إحساس ينال من سعادتي ورغبتي بها كحبيبةٍ وزوجةٍ.. لا أدري لمَ تسرب البرود في علاقتنا بهذه السرعة

بعد أن أنجبنا البنتين، صارت تثور على أتفه الأسباب ولم أعهدها إطلاقًا عصبيةً من قبل، ومع ذلك لم يكن صوتها ليعلو في وجودي إطلاقًا كانت محتفظةً بسِماتِها الخاصة جدًّا من هدوءٍ ونعومةٍ حتى في عصبيتها التي كنتُ أعرفها من حركة يديْها أو عينيْها أو لجلجة حروفها في الكلام إثر غضبها والذي بتُّ لا أعرف له سببًا معينًا.. وإن كان كل ما يتضح لي هو سبب عدم موافقتي لها على استكمال دراستها بالجامعة.. كنتُ أغار عليها بشدةٍ.. أغار عليها أحيانًا من أخواتي البنات أيضًا.. كنتُ لا أريد لأحدٍ أن يراها أو يستمتع بجمالها ولو بالنظر فقط غيري.. فأنا زوجها ورب بيتها ومالك قلبها وأبو ابنتيها لا حق لأحدٍ فيها سواي فلم ولن أسمح لها أبدًا بالخروج للجامعة لتحتك بالشباب والرجال من كل لونٍ وسن فأنا أعلم الرجال جيدًا.. كأي رجلٍ لن يترك لامرأةٍ في جمالها أن تمرَّ من أمامه دون أن يلتهمها خياله قبل عينيه، لا لن تكون ندى لسواي ولو بنظرة.

كانت مأمورية العمل إلى النمسا في توقيتها المناسب لنا.. فقد كنتُ أرغبُ في تجديد حالة البرود والركود التي طرأت على حياتي مؤخرًا أنا وندى والتي لم أكن اعتدت عليها إلا مرغمًا كاسرًا بداخلي فريد الذي لا يرضيه سوى أن يفعل ما يريد لا ما يرغمه غيره عليه.. ولكن

حبـي لنـدى جعلنـي أرضـخ للبيـت ولـلأسرة.. وبالفعـل لم أكـن لأتركهـا لسـببٍ أو حجـة أهـم مـن العمـل ومـا يلزمـه مـن سـفر للنمسـا بخصـوص اسـتيراد قطـع غيـار لآلات وشراء ماكينـات ومعـدات جديـدة للمصنـع الـذي أعمـل بـه ضمـن مجموعـةٍ مـن المهندسـين والاستشـاريين.. وفي الموعـد المحـدد سـافرت.

وصلـت النمسـا مسـاءً، ونزلـت بفنـدق بوسـط العاصمـة بمحـض صدفـة لم تخطـر عـلى بـالي.. ولم أسـعَ لهـا فبديهـي أن المصنـع هـو مـن يقـوم بجميـع الحجـوزات الخاصـة بإقامـة للوفـد الـذي أتى خصيصًـا لتلـك العمليـة.. كنـتُ مرهقًـا للغايـة وأشـعر بـأن رأسي مُحمَّـلٌ بأطنـانٍ مـن الحجـارة تتصـارع وترتطـم ببعضهـا البعـض جـراء إزعـاج رفيقتـي بالسـفر بالإكـراه.. تلـك العجـوز التـي أصرت عـلى أن أرافقهـا حتـى سـلمتها بيـدي إلى ابنهـا الـذي كان ينتظرهـا بالمطـار بخـوفٍ وقلـقٍ شـديدٍ عليهـا حيـث إنهـا امـرأةٌ مُسِـنَّة ومريضـةٌ وهـي بالمقـام الأول أمـه التـي بالتأكيـد "وحشـته جـدًّا".. والتـي بـدت كطفلـةٍ باعدوهـا عـن أبويهـا وطـال فراقهـما لهـا، ومـا إن رأت ابنهـا حتـى هرعـت إليـه بوداعـة وتـودد طفلـة تتمسـح بأبيهـا حبًّـا وشـوقًا ودلالًا وكأن مـن كانـت تـصرخ وتزعـج كل مـن بالطائـرة، إنسـانة أخـرى غـير تلـك الوديعـة!!

وأثناء تدوين بياناتنا أنا وزملائي بالكاونتر الخاص باستقبال النزلاء الجدد.. وبرغم الإرهاق والإجهاد والرغبة المميتة في أن أصل إلى غرفتي بسرعة الريح لأنال قسطًا من النوم.. جذبني وخطف لب عقلي وجهٌ مبتسمٌ وعينان زرقاوان لامعتان ملؤهما حيوية وجاذبية.. وجه أعرفه ولم أنسَه مطلقًا بيد أنه ازداد جمالًا وبهاءً مع مرور السنوات، "ليلى".. موظفة خدمة النزلاء بالأوتيل.. تلك الابتسامة التي فتحت براكين الذكريات والأشواق بشكلٍ عشوائي.. تبعثر كل ما بداخلي من صيحات فرحة وتنهيدات عشق قديمة وشهيق لأحلام مضت وظننتها بُليَت وذَبُلَت ونال منها الزمن.. وجدتني كطفلٍ وجد ضالته في مدينة ملاهٍ.. صحتُ: "ليـــــــــــــلى!!"

ويبدو أنني بالفعل لم أشعر بنفسي إلا وأنا أقذف بالقلم من يدي وأتسابقُ مع أنفاسي للوصول إلى يديْها لأصافحها وربما لتمنيتُ أن أحتضنها بكل قوة الشوق واللهفة والسنوات التي مضت دونها.

ـ مش ممكن أنا مش مصدق عينيا..

معقول؟ ليلى؟ أنا بحلم ولَّا صاحي؟

ـ مش معقول؟ فريد!! إزاي؟ مش مصدقة عينيا؟ إنت هنا؟ وبعد العمر ده في النمسا يا فريد؟

ـ أنـا الـلي مـش مصـدق.. إنتـي لسـه هنـا في النمسـا يـا ليـلى؟ معقـول السـنين دي كلهـا تبقـى هنـا؟ عشـان آجـي أنـا صدفـة وأقابلـك؟

ـ سـنين عـدت عليـك وعليـا.. بـس إنـت فعـلًا مبسـوط للصدفـة دي يـا فريـد؟

ـ بتسـألـيني؟ سـنين عـدت إزاي وإمتـى مـش عـارف.. الشـغل والسـفر والمشـاريع نسـوني كل حاجـة، خلـوني مـا أفكـرش في نفـسي حتـى.. بـس مـش هاينسُّـوني أول حـب في حيـاتي.

ـ مافيـش فايـدة فيـك! لسَّـه بتقـول أول حـب! وبـردو الشـغل والسـفر والمشـاريع بـس؟

ـ أكيد يا ليلي مش ممكن أنساكي..

ـ إنت أكيد اتجوزت وخلّفت كمان- صح؟

***

"ليـلى".. أول مـن خفـق لهـا قلبـي.. أول مـن شـعرتُ معهـا بإحسـاس الحـب والرغبـة تجـاه الجنـس الآخـر إحسـاس تولَّـد معـي بسـببها، ولأول مـرة أشـعر أني شـاب ولي مشـاعر موجهـة لأنثـى بعينهـا.. أول دقـات قلـب وأول نظـرة حـب.. شـعرتُ بهـا كانـت لـليـــلى.

بنت الجيران..

وفي الغربة يُصبح الجيران بمثابة الأهل بل والأقرب من الأهل أحيانًا.. كانت طبيعة عمل أبي تتطلب أن يتنقل حسب احتياج العمل له.. فعمله كمهندس مدني تابع لمصنع حكومي معروف بالدولة ومجاله يتمركز في مواقع الإنشاء والبناء من بدايتها وحتى تمام العمل وتشغيلها.. كان سببًا لتركنا القاهرة ولبيتنا بمنزل العائلة بالظاهر وانتقالنا إلى أسوان حيث كانت دراستي الابتدائية والإعدادية هناك بمدارسها.. وأذكر أن عمل أبي هنا في أسوان كان سببًا لاحتدام الشجار بين أهل أمي وبين أبي فهم يعتبرون سفر ابنتهم مع زوجها إلى أسوان "غربة" هم لا يرضونها لابنتهم حتى وإن كانت مع زوجها وأبنائها.. وما كان من أبي إلا أن وضعهم في موقف اختيار بين أمرين حلوهما مُرٌّ بالنسبة لهم.. وهو أن نذهب جميعًا بصحبته إلى مقر عمله الجديد أو أن يُسافر هو بمفرده ونكون جميعًا مسئوليةً في عنق جدي وأخوالي طيلة فتره عمله بأسوان ولا يعرف إلى متى ستمتد على أن يزورنا يومين ثلاثة كل شهر أو أكثر حسب ظروف عمله فالمسافةُ ليست بالهينة حتى يتسنى له القدوم على فتراتٍ متقاربةٍ..

كان الاختيار الثاني من الصعوبة تقبُّله فقد كنتُ ولدًا واحدًا على ثلاث بنات أصغر منِّي وأمي لا تزال بمقتبل العمر ولن تقدر على تربيتنا بدون رجلٍ أو بالأصح بدون أبي.. مسئولية أربعة أبناء صغار وأمهم ليست بالهينة على جدي وأخوالي.. فلا مناص لهم من الموافقة على سفرنا جميعًا مع أبي.

وقد كان وسافرنا مع أبي إلى أسوان.. وهناك رأيتها.. أول من وقعت عيني عليها في السكن الجديد.. ابنة صاحب المنزل وجارنا النوبي "عم مرزوق" كان رجلًا قصير القامة غليظ الصوت معقود الحاجبين ينال منهما الشيب كما نال من شَعر رأسه.. إذا ابتسم تبدَّلت ملامحه إلى النقيض فتشعر أنه لا يعرف التكشيرة من شدة بياض أسنانه والتي تُوحي للرائي بأن الكون يبتسم معه.. لكنه سرعان ما يعود لطبيعته حال تكلم في أمور المال أو الإيجار أو البيع والشراء وهو من يمتلك بقالة وعطارة أسفل منزله ذي الألوان المميزة بين بيوت الشارع كلها.. كان له مبدأ، "أن يصرف ويكلف ليحصد ويكسب- ادفع قرش وإنت عارف رايح فين واستنى مكانه عشرة قروش".

كان لا يُعطي إلا إذا ضمنَ الرد أو المردود من هذا العطاء فعُرِفَ بين أبناء البلدة بالبخل الشديد.

كانت ليلى ابنته الوحيدة، لم ينجب هو وزوجته غيرها بعد أن تأخر الإنجاب لديهما سنواتٍ بعد زواجهما لأسبابٍ يعلمها الله.. وجزاء صبرهما كافأهما على كبرهما بأجمل بنات الحي وإن صح القول أجمل بنات أسوان بأكملها في عيني، ليست أجملهن ملامح فقط بل أكثرهن جاذبية ونضارة؛ رشيقة القدِّ، غير ممتلئة ولا نحيفة، تميزت ببشرة سمراء لامعة تنبض بالحياة.. شفتاها الممتلئتان تنازعان حبتين من الفراولة في نضارتهما واشتهاء من يراهما ليتذوق حلاوتهما وما تخفيانه وراءهما من ابتسامة لحبات لؤلؤ أبدع الخالق في رصها لتكون لبنةً لابتسامةٍ لا يُقاوم انعكاسها على وجه كل من ينظر إليها فيصير أسيرًا لها مكبَّلًا بعينيْن فرعونيتيْن بزرقة النيل الصافي.. وهي نتيجة جينات لجدتها التركية التي حازت عقل وقلب وأملاك جدها لوالدها.. جمال رباني فطري أُحيط بشَعر أجعد.. ولأول مرة أشعر بجمال الشعر غير الناعم وهو ما يكون من علامات جمال الفتاة وقتئذ.. لكنها تظهر كقطةٍ بريةٍ شرسةٍ لمن يقترب منها عنوة.

شكلت ليلى حلم مراهقتي.. ككل أقراني كنت أحلم بها وأتخيلها وهي تتأبط ذراعي ونتجول بالحدائق معًا.. كم غفت على كتفي بالسينما.. كم أطعمتها بيدي وهي متوسدة صدري أسفل الصفصافة

العجـوز عـلى شـط النيـل بأسـوان.. كـم.. وكـم.. وكـم.. لكنـه كان حُلـمًا مبتـورًا؛ فقـد كانـت ليـلى بالثانويـة العامـة وقـت أن كنـت أنـا مـا زلـت تلميـذًا بالمرحلـة الابتدائيـة.. فقـد كانـت تكـبرني بأكـثر مـن سـت أو سـبع سـنوات وهـي سـنوات كافيـة لتقتـل تفكـيري فيهـا فيـما هـو أبعـد مـن خيـالٍ مراهق لم يعـد طفـلًا ولم يصبـح رجـلًا بعـد..

هـي عـلى قمـة الجـمال والشـباب وأنـا عـلى أعتـاب الرجولـة كـما كان خيـالي يصـوِّر لي وقتهـا.. كل مـا نلتـه مـن مظاهـر الرجولـة هـو أن خـط شـاربي بخيـالٍ أخـضر أسـفل أنفـي وهـو مـا يُوحـي ويُبـشر بأننـي هـا قـد اقتربـت مـن الدخـول إلى عـالم البلـوغ.. ولكـن هـل سـتقتنع بي ليـلي يومًـا مـا.

***

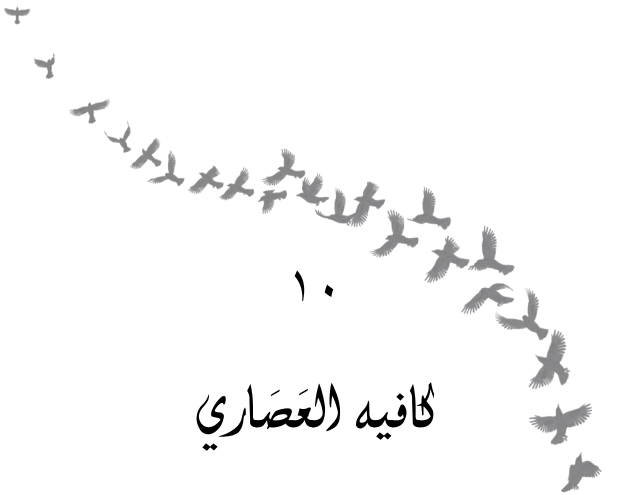

١٠

كافيه العَصَاري

لم يكن لي ونيسٌ في حياتي بعد ابنتيَّ وسفر فريد سوى صندوق الدنيا كما تخيلته وكما صار بالفعل.. نافذتي على العالم الخارجي ليس خارج بيتي فقط بل خارج أسوار حياتي وبيتي ومجتمعي ككل.. أخذتُ في تعلُّمي كل ما يتعلق بالكمبيوتر من أساسياتٍ للتعامل معه ومن برامج وإنترنت، صرتُ أبحثُ عن فيديوهات تعليميةٍ لجميع البرامج.. اشتهيتُ المعرفة لكل ما أجده أمامي وكأني أحاولُ أن أثبت لنفسي أني قادرةٌ على التعلم والاستيعاب.. ربما كنوعٍ من التعويضِ عن الدراسة التي منعت منها واستسلمت راضخةً لذلك المنع.. امتلأ وقتي بعد أن كان الفراغُ يقتلني.. أصبحت وأمست عادتي اليومية بل طقس

مـن طقـوس حيـاتي متابعـة مواقـع الإنترنـت والبحـث عـن الجديـد دائمًـا في كل مـا يجـذب انتباهـي واهتمامـي..

وأثنـاء تجـولي ذات يـوم عـلى صفحاتـه.. أثـار انتباهـي عنـوان لجـروب نسـائي..

كافيه العصاري

مـن اسـمه تخيلـت أنـه مُلتقـى نسـائي للثرثـرة والقضـاء عـلى وقـت الفـراغ بـل وربمـا يكـون "جـروب" تافهًـا أيضًـا فـما أكـثر الجروبـات التـي امتـلأت بهـا الشاشـة العنكبوتيـة والتـي ترتكـزُ عـلى الشـات وتبـادل الأغـاني ومـا شـابه ذلـك.. وكـحب اسـتطلاع سـجَّلت (دخـول) بـه لمعرفـة مـا إذا كان عنوانـه يـدل عـلى مضمونـه الواضـح أي ملتقـى وقـت العـصر.. أم أنـه قـد يُوحـي بالعصـاري لمضمـون آخـر ولـه أبعـاده وليـس فقـط المعنـى الواضـح، قـررت أن أتجـول بـه وقـد كان.. وقمـتُ بفتـح حسـاب للجـروب.. تصفحـت موضوعاتـه التـي نُقِشَـت مـن قِبَـل العضـوات مـن قبـل، وجدتنـي أعقِّـب عـلى بعضهـا مـرةً منتقـدةً وكثـيرًا مؤيـدةً.

بعـد فـترةٍ ليسـت بالطويلـةِ كنـتُ مـن أهـم المشـاركات بـه.. فقـد وجـدتُ أن عضواتـه يتناسـبن إلى حـدٍّ مـا؛ فكـرًا

وعمرًا واهتماماتٍ معي- فمن خلاله تعرفت بأخريات، قد تتشابه مفرداتُ حياتنا إلى حدٍّ كبيرٍ وقد تختلفُ إلى حدٍّ ما؛ فمن الواضح أن الجميع يُعاني الفراغ والوحدة والغربة.. هن أثَّرن في حياتي منذ عرفتهن ذاك اليوم.. صارت بيننا علاقاتٌ وطيدةٌ بسرعةٍ عجيبةٍ ربما كان سببها هو الاحتياج المُلِحُّ لكل منا للأخريات.. صرنا لا نفترق عن بعضنا البعض إلا وقت النوم ونستيقظ لنتواصل عما فاتنا أثناء الليل.. أو بالأحرى بعد الفجر حيث كان لقاؤنا يمتد كل يوم إلى اليوم الذي يليه غالبًا.. فلم نكن جميعًا في مكانٍ واحدٍ.. ولا توقيتنا واحدًا.. فالصباح عند إحدانا كان منتصف الليل لغيرها وبالتالي صار التواصل طوال ساعات اليوم متاحًا لنا..

أصبحنا كأسرةٍ واحدةٍ أخوات ما بين الكبيرة والوسطى والصغرى، والأم الروحية فيه كانت هي مدام "نشوى" أو أنوش كما أطلقنا عليها.. هى امرأةٌ أربعينيةٌ جامعيةٌ ومثقفةٌ خفيفة الظل ذكية فيما بدا من تعليقاتها، وأثناء حواراتنا الكتابية برزت لي تلك الصفات.. درسَتْ في كلية العلوم ونالت درجة الماجستير في تخصص النباتات.. وهو ما كان يجعلها دائمًا في حالة حب وعشق للطبيعة والخُضرة كما قالت.. وفاة زوجها وانشغال أبنائها عنها كانا أهم الأسباب لاندماجها بالنت ومعرفة كل أموره واجتهادها

باستمرارٍ لمعرفة الجديد والغريب في عالمه؛ كانت طيلة الوقت "أونلاين" على اتصالٍ دائمٍ بنا جميعًا.. وربما غيرنا أيضًا؛ فعلى الرغم من صعوبة البدايات في تعرُّفها وتعلُّمها لمراسم الدخول إلى عالم الإنترنت إلا أن شغفها به كان للقضاء على الفراغ وميلها للاستزادة من التعلُّم والتعرُّف على عالم النباتات والطبيعة والذي كانت تسعى لنيل درجة الدكتوراه فيه وهو ما لم تتِحه لها ظروفُ الحياة والزواج وما تبعه من وفاة زوجها والتزامها بتربية أبنائها من بعده.. كل هذا دافعًا لها للهروب لعالم الإنترنت ليل نهار، تستنشقُ عبيرًا أحبته لدراستها وهواياتها ولا بأس من المزيد من العلاقات النسائية إلى جانب هذا.. لم تتردد إحدانا يومًا في البوح لها بكل ما يؤلمها أو ما قد يُحدد مسار حياتها وزوجها وأبنائها.. كانت محل ثقة عمياء من الجميع.. وإن كنتُ أشعر أني مميزةٌ لها بشكلٍ خاص.. ولكن لعله شعور كل منا على حدة.. كانت بئر أسرار للجميع.. تعددت اللقاءات والحكايات وتنوعت أسباب اشتراك عضوات الجروب وتحت مظلة الاحتياج والفراغ- اجتمعن..

جميعهن مغترباتٌ من جنسياتٍ متعددةٍ.. جمعتهن الغربة في مكانٍ واحدٍ ليصبح لهن وطنٌ باختيارهن ويصبح عالمهن الافتراضي الذي يلتقين فيه كلما اشتقْنَ للغةٍ تجمعهن فقلما تجد في الغربة ما يجمعك بشبيهٍ

لـك.. ليسـت فقـط مـن ناحيـة اللغـة التـي تشـتاقُ للحديـث بهـا ولا اللهجـة المخصصـة لـكل بلـد.. بـل هنـاك الأقـوى والأكـثر احتياجًـا.. غربتـك ليسـت عـن وطنـك فقـط بـل ربمـا تكـون في وطنـك وتشـعر بالغربـة.. غربـة النفـس أشـد قسـوةً مـن غربـة المـكان..

ماريان

"ماريـان" معلمـة موسـيقى بالإمـارات العربيـة المتحـدة، تعيـشُ فيهـا بمفردهـا حيـاةً مملـةً رتيبـة الإيقـاع.. نغماتهـا عـلى وتـرٍ واحـدٍ لا يتغـير؛ فمنـذ أن تخرجـت منـذ أكـثر مـن اثنـي عـشر عامًـا.. لم تشـأ أن تضيـع فرصـة السـفر التـي جاءتهـا فـور إعـلان نتيجـة البكالوريـوس.. فهـي فرصـةٌ يحلـم بهـا الكثـير مـن الشـباب والشـابات.. ضربـتْ بـكلام أبويْهـا عـرض الحائـط في أن السـفر سـيضيع عليهـا "النصيـب" كـما هـو متعـارفٌ عليـه في بيئتنـا كشرقيـين ولا يجـوز لهـا السـفر سـوى بصحبـة زوجهـا أو إذنـه.. المهـم أن يكـون هنـاك زوج لهـا قبـل السـفر.. لـذا عليهـا الانتظـار حتـى تتـزوج أولًا ثـم تبـدأ التفكـير في تحقيـق أحلامهـا سـواء في السـفر أو في غـيره.. عجيـبٌ أمـر الآبـاء والأمهـات فهـم يـرون الدنيـا بمنظوريـن فلـو تذكـروا وقتـما كانـوا في مثـل عمرهـا ومـا كانـت عليـه

أحلامهم لوجدوا تناقضًا بين ما تمنوه وبين ما يطبقونه مع أبنائهم ربما بوازع الخوف عليهم أو عدم الثقة في مجابهتهم للحياة بلا خبراتٍ سابقةٍ.. ولكن كيف تتكوَّن الخبراتُ بلا معايشةٍ للتجارب ووجود الخطأ.. أين لهم من معرفة لذة النجاح إن لم يتجرَّعوا مرارة الفشل.

لم تَعِر ماريان كلامهم انتباهًا لما كانت مقتنعة به وتعمل جاهدةً على إثباته لنفسها بالتجربة العملية قبل أن تثبته للناس تأكيدًا على فهمهم القاصر على مفاهيم "عفى عليها الزمن" كقولها..

أرادت أن تتحدى الكل بآرائها ومفاهيمها الخاصة عن الحرية والمساواة وبناء الذات واستقلالية الشخصية وسافرت بالفعل بمفردها وبدأت حياتها العملية بالغربة.. بالعمل كمُدرِّسة موسيقى بمدرسة بنات.. سنواتٌ تجرُّ شبيهاتها تتوالى ما بين إجازاتٍ لأيام وتواصل عودتها للعمل لسنواتٍ اعتادت فيها أن تَطّلع أو ربما يَطّلع عليها وجبة دسمة تنتظرها بانتظامٍ مع إجازاتها من راغبي الزواج.. فهي تبدو كطبقٍ شهي دسمٍ لمن يطمح في الارتباط والزواج بمن تشاركه بل قد يكون هو من يشاركها حياتها عمليًّا وماديًّا في آنٍ واحدٍ.. لم ترضَ عن أيٍّ منهم بالطبع ففتاة مثلها تحدَّت الكون لإثبات حقها في حريتها واستقلاليتها كيف لها أن ترضى بمن يراها في فاترينة عرض

لتحديد صلاحيتها للهدف المرجو من عدمه!! من يجد فيها صفقةً رابحةً لتحقيق مآربه وربما تطلعاته بأيسر الطرق وأقل مجهود.. فمثلها اقتربت من النصف الثاني للعقد الرابع من العمر.. ولديها المال.. والغربة أبعدتها عمن قد تجد فيه شريكًا لحياتها تنتقيه أو يختاره قلبها وعقلها معًا، لا أن يُفرَض عليها بحكم العادات والتقاليد وما يجب أن تكون عليه فتاة في سنِّها من وضعٍ اجتماعي يرضي الأهل والمحيطين بهم.

انعكست حالة الركود والملل على حياتها كلها.. حتى الدروس كانت متكررة رتيبة الرتم والإيقاع لكثرة ترددها على مسامعها ولم يطرأ عليها شيء من التجديد أو التغيير.. حتى جاء الوقت الذي قالت فيه لنفسها: أما قد حان وقت التغيير؟ حان الوقت لتقتنص ما تبقى من لحظات السعادة التي قد تكون تلاشت وتكاد تندثر لكثرة إهمالها لها ولنفسها أيضًا.. ها قد حان الوقت للتخلص من الشعيرات البيضاء التي بدأت تزحف على جبينها وتعتلي غُرَّتها هي ورفيقاتها من الخطوط الرفيعة التي تنسج خيوطًا لتجاعيد ستتمكن يومًا ما من ملامحها.. إذن حان الوقت لتجهيز جيش من الصبغات والكريمات لمواجهة العدوان القادم على شبابها ورونقها في دهاءٍ ومكرٍ.

ولأن شأنها شأن كل المغتربين- عن أوطانهم بحثًا عن الرزق وفرص العمل وهروبًا من ضغوط الحياة في بلادهم التي لم يستطيعوا فيها توفير الحياة الرغدة أو تحقيق حُلم ما.. قطعًا هم ليسوا برحلةٍ سياحيةٍ تمتد لأعوامٍ- كان جهاز الكمبيوتر لها كل عالمها.. هو نافذتها على العالم واتصالها بالأهل والأصدقاء ومستجدات العالم من حولها.. وقد أشارت عليها إحدى زميلاتها بالعمل بأن تلجأ لأحد مواقع التواصل الاجتماعي لتتعرف على أنسب الطرق للوصول إلى "نيولوك" يخلِّصها مما يؤرقها ويؤرق أي أنثى من مشاكل الجمال والتغيير من مظهرها بشكلٍ عام.. وفي أثناء البحث عمَّا من أجله طرقت باب الإنترنت.. وجدتْ ضالّتها في ذاك الجروب الذي اجتمعنا فيه الآن جميعًا.. وكما بدأت أنا فيه.. كانت بدايتها لمعرفة العضوات. كانت المساحة الأكبر من حواراتنا عن شؤون نسائية كمشاكل البشرة والشعر والحياة الزوجية والرجال والأبناء بالطبع.. فمن تعمل منا خارج أوقات تواجدنا على النت ليست بحاجة للحديث عن العمل وإنما تتوق لمكان يجمعها بأهل وأسرة، مكان يشبه (بيت العيلة) في الواقع..

وأذكر يوم كنا نتندر على أيام العزوبية- كما كنا نحب أن نطلق عليها فيما بيننا- وقتما كنا لا نزال في بيوت أهلنا، لا مسئولية ترهقنا سوى اهتمامنا بملبسنا

وزينتنا وأين سنقضي نهاية الأسبوع وتداول أخبار من ارتبطت ومن فكت ارتباطها.. قالت ماريان:

- أنا إيه اللي يخللينـي أتوحل زيكم وأقعد أعيط كده هههههه.. أنا مع نفسي ومِلك نفسي لا راجل يقولي رايحه فين ولا عيل يسهرني طول الليل.. قرشي لنفسي ودماغي كمان لنفسى.. عاجبكم الولايا يزيدوا واحدة زيكم "وتنفجر ضاحكة مستثيرة فينا كل أنواع الأحقاد والغل المغلف بابتسامة وسخرية بدت أيضًا من أسلوب وألفاظ كتابتها لنا بالقطع".

- يا سلام يا ماريان.. يعني عاوزة تقولي إنك مش نفسك في اللي يدلعك كده وتناغشيه ويونِّس وحدتك كل ليله بدل ما إنتي مذنبة نفسك معانا؟

- هههههه على أساس إن إنتو هنا بتعملوا إيه؟ بتناغشوا إجوازكم هههههه ولا جايين تواسوني يا ندى هههههه ضحكتيني بجد.

لم تكن مخطئةً بالفعل.. ولكن أنا من أحببتُ أن أهون على نفسي وعلى صديقاتي ونفتح مجالًا لماريان كي تحكي لنا أكثر..

- ما فيناش من زعل يا بنات.. إنتوا فيكم اللي اتطلقت وإتجوزت واللي على وَشَك طلاق واللي

عـاوزة ومـش عارفـة عشـان العيـال والنـاس وكلام النـاس.. وإنتــوا عارفــين إن جوازنــا جــواز نصــارى.. يعنــي مــا فيهــوش رجعــة يبقــى الــلي هاتجــوزه ده تدبيســة عمـري لحـدّ مـا أروح الجبَّانـة.. يبقـى أسـتعجل ليـه؟ لمـا ييجـي الـلي عـلى كيفـي أتجـوز وبشروطـي أنـا مـش شروطــه ولا شروط أهــلي ولا أهلــه.. صدقــوني مــش هاصـدق إلا عقـلي قبـل قلبـي.. مـش معنـى إني مدرسـة مزيـكا إني أبقـى هوائيـة ورومانسـية!!

ومـع ذلـك مـين قـال إني مـا بحنِّـش لراجـل يحبنـي ويحافـظ عـليَّ وأجيـب منـه الولـد والبنـت.. مـين قـال إني مـش بحلـم إني ألاقـي الـلي في حضنـه أنـسى همـي ودنيتـي كلهـا.. أحـس بالأمـان والدفـا.. أحـس بأنوثتـي الـلي قرَّبـت تختفـي ومـش باقـي منهـا غـير اسـمي؟ مـين قـال إني مـش بحلـم أكـون أم وأربِّي ولادي كويـس وأسـهر عليهـم وهـما تعبانـين وهـما بيذاكـروا وأفـرح وأتنطـط معاهـم لمـا يلعبـوا ولا لمـا ينجحـوا.. أقـرب منهـم وأخبِّيهـم في حضنـي زي مـا أبوهـم حامينـي بحضنـه.. ومـع كل ده بخـاف.. بخـاف عشـان أتحصـل عـلى ده يبقـى المقابـل عمـري كلـه أفنيـه في جـوازة مـع راجـل مـا ينضمنـش بعـد مـا أبقـى مراتـه خـلاص.

بالفعل هي لم ولن تثق إلا بمن يشير إليه عقلها قبل قلبها.. فبرغم دراستها وحبها للموسيقى إلا أنها لم تأخذ منها سوى حِدة دقات الطبول.. وقرع الآلات النحاسية وقت تحديها للزمن والمعتقدات البالية الراسخة في أذهان العموم.. اشتاقت إلى نغمات التانجو الحالمة وسيمفونيات بيتهوفن الحزينة تشد من أوتار قلبها لتبدأ معزوفتها الخاصة.. التي طالما اشتدت وتأهَّبت لعزفها حين يكتمل لحنها.. لتشدو بها عوضًا عما استُنزِفَ من عمرها بالغربة..

لم تكن "ماريان" وحدها من تحتاج إلى الاندماج بغيرها من النساء ممن يَكُنَّ مختلفاتٍ عنها فتخرج من جو العمل والروتين ولو للحظات في عالم افتراضي.. كنت أنا أيضًا وشذا ونجوى.

شذا..

هي من كانت أقربهن إلى قلبي.. استشعرت حياتها تشبه حياتي إلى حدٍّ كبيرٍ جدًّا من حيث النشأة والارتباط بشريك الحياة.. كنتُ أرى بعضًا من حياتها جزءًا من حياتي بل الأخطر أني تخوفت من أن يصبح مستقبل حياتي الزوجية هو ما مرَّت به شذا.. فصرتُ أترقب ردود أفعالها ومواقفها تجاه زوجها ومنه أيضًا تحسُّبا لأن أمرَّ

بهـا في وقـتٍ أقـرب مـما أتصـور.. فارتباطهـا بـه لم يفـرق الكثير عـن ارتباطـي بوجـدي أو فريـد.. بيـد أن كليهـما كنـت وكانـت "شـذا" لـه هـي وجبـة شـهية في ليـل غربـة واغـتراب جائـعٍ لـكل معـاني الاحتيـاج واللهفـة والتملـك..

نشـأت شـذا منـذ طفولتهـا مـع أهلهـا بإحـدى مناطـق المملكـة العربيـة السـعودية.. تعلمـت وأنهـت دراسـتها هناك.. زياراتهـا لبلدهـا كانـت أيـام كل سـنة شـأنها شـأن الكثيريـن ممـن يعمـل أبواهـما بالتدريـس فالعطلـة تنقـضي في زيـاراتٍ عابـرةٍ وبعـض مـن الترفيـه المُكلـف والمحسـوب حسـاباته قبـل النـزول للعطلـة، وكان عليهـا أن تمتثـل لـرأي أبويْهـا في الـزواج والإقامـة معهـما بنفـس البلـد الـذي كـبرت وتعلمـت بـه وقـد كان وتزوجـت زواج معـارف برجـل يكبرهـا في السـن بنصـف عمرهـا تقريبًـا يعمـل هنـاك ومشـهود لـه بالأخـلاق والراتـب الجيـد أيضًـا.. إلى حـدٍّ كبـير تشـابهت مفـردات حياتيْنـا قبـل الارتبـاط وإلى أن ارتبطنـا بأزواجنـا فعـلًا: الدراسـة خـارج مصر،عمـل الوالـد بالتدريـس، زواجنـا المبكـر.

- أنـا مئـا حبتهـوش قبـل مـا نتجـوز ولا بعـد مـا إتجوزنـا حتـى.. مـا إدانيـش الفرصـة أحبـه.. تعرفـوا!! ومـع ذلـك خلِّفـت منـه أربـع عيـال.. مـا تسـألونيش إزاي.. عارفـين الـلي بيلعبـوا عروسـة وعريـس هههههههههبـس اللعبـة رخَّمـت

وبقت مملة.. عمره ما حسسني إنه بيحبني كنت بحس دايمًا إنه بيحب نفسه فيا..

- معلش يا شذا يعني إيه؟ خلفتي منه أربعة وبتقولي عمره ما حسسك إنه بيحبك؟ إزاي طيب؟

- ما أنا قلت لكم.. الحياة كانت زي الساقية، زي الدوامة.. اليوم بيبدأ من الفجر.. صحيان وفطار ودوام.. ومدارس وبعدين شغل البيت اللي ما بيخلصش إلا لما يقرب رجوع الكل من بره.. أكل ونوم ومذاكرة ونوم وهلما جرا.. معسكر شغل ونوم وخلفة هههههههه وبس.

- يعني إنتوا ما كنتوش بتتكلموا في أي حاجة؟ غير الشغل والبيت؟

- لأ إزاي بقى؟ بنتكلم طبعًا.. طابخه لنا إيه؟ حوِّشنا إيه؟ وفاضل كام على بُنا البيت؟ والدولار بيعمل كام النهارده؟ وأهي عيشة يا بنات.

لم تحبه ولم تشعر يومًا بحبه حتى بعد أن أنجبت أربعة أطفال منه.. وحتى عندما تُوفي والداها وبقيت معه وأولادها بالغربة التي كانت يومًا ما وطنًا.. حيث كان أبواها..

هـو لم يبـذل أي جهـدٍ معهـا لجعلهـا تحبـه أو حتـى تحترمـه؛ قصـت علينـا أنهـا نالـت منـه شـتى أنـواع الإهانـات والمعاملـة الفظـة، وفي كل مـرة كانـت تغضـب عنـد أهلهـا كانـت ترجـعُ تحـت إلحـاح منهـم وللحفـاظ عـلى أبنائهـا وبيتهـا.

وبعـد أن فارقهـا أبواهـا وهـما كل أهلهـا بالغربـة، لم يعـد لهـا مـن تلجـأ إليـه بعـد اللـه إلا صفحـات النـت.. إلى أن سـاقتها الظـروفُ في يـومٍ مـا إلى التواصـل مـع طبيـبٍ نفـسي عـلى صفحـات أحـد المواقـع الطبيـة.. وكان لهـا الملجـأ والمـلاذ.. فهـو في قـارةٍ وهـي في قـارةٍ.. وهـذا يعنـي أنهـا تسـتطيع أن تفضفـض بمـا لديهـا بـلا خـوفٍ ولا قلـقٍ.. فكثـيرًا مـا نحتـاج البـوح لأنفسـنا في صـورة شـخصٍ آخـر وقد نخشى البوح خشـية عـدم صـوْن الآخـر لتلـك الأسرار أو أننـا بالفعـل قـد نخجـل مـن مواجهـة أنفسـنا بهـا في صـورة شـخص آخـر.. ولكـن فقـط لرغبـةٍ منهـا في التخلـص مـن ضغـطٍ نفـسي وعصبـي ألمَّ بهـا طيلـة فـترة زواجهـا.. لجـأت إلى الدكتـور "أحمـد عـز الديـن" وهـو بـدوره اسـتمع إليهـا بأمانـة الطبيـب المُعالـج، وبسريـة وصـدق واحـترام لمهنتـه عاملهـا.. ودون أن تـدري أو ربمـا هـي وحدهـا مـن تـدري "أحبتـه".

لم يكـن مـن السـهل عـلى شـذا أن تـصرح لنـا باعترافاتهـا هـذه؛ فأكـثر مـا يجـرح المـرأة ربمـا هـي امـرأة مثلهـا.. ولكـن

الأمـر كان مختلفًـا معنـا في العمـوم ومـع نشـوى بشـكلٍ خـاصٍ؛ فـكانت مصـدر ثقـة لنـا جميعًـا.

ـ "أحمـد" كان بالنسـبة لي الصـدر الحنـين.. الأب والأم والصديـق.. مـا كنتـش بخـاف منـه ولا بـداري عليـه، بالعكـس كنـت بأحـكي لـه الـلي بداريـه عـن النـاس كلهـا.. كأني بكلـم نفـسي ولا مـرة حسسـني إني غلطانـة، كان بيسـمعني مـن غـير مـا يقاطعنـي.. كنـت بحـس مـن صـدق كلامـي معـاه إنـه شـايفني مـش بـس بيسـمعني، كنـت بشـم ريحتـه مـن حروفـه وهـو كـمان قـالي ده.. إن لـكل امـرأة عطـرا بيبـان مـن كلامهـا، شـخصيتها بتنفـذ عطرهـا ولـو مـن خـلال حـروف وبـس، كنـت بأرتـاح أوي في كلامـه معايـا مـش بـس كنـت بحـسِّ إني واحـدة سـت، لأ كـمان كنـت بحِـس بعقـلي وتفكـيري وأحلامـي معـاه مختلفـة، مـا كنـش بيكذبنـي ولا بيقاطعنـي لمَّـا حتـى أتنرفـز أو أغضـب مـع إني أنـا الـلي بأشـتكي لـه، ده كان سـاعات بيكتـب لي دوا كـمان مهـدئ عشـان أعـرف أنـام وأبطـل تفكـير.

ـ وما كنتيش بتحسِّي إنك بتخوني جوزك يا شذا؟

ـ أخونه؟ ليه؟ وفين الخيانة دي؟

ـ نعـم!! هـو إحنـا هانتكسـف مـن بعـض؟ ولا هانضحـك عـلى بعـض طالمـا متـداري يبقـى مـش صـح يـا حبيبتـي.. إزاى بـس تبقـى علاقـة عاديـة وإنتـي متجـوزة؟

ـ إنتـي غريبـة أوي يـا نـدى.. هـو أنـا أعرفـه حتـى ولا أعـرف شـكله ولا سـمعت صوتـه حتـى؟ خيااانـة؟ الكلمـة دي كبـيرة أوي. أنـا كل الـلي عملتـه إني كنـت بحـكي لـه وآخـد رأيـه زي مـا أنـا وإنتـوا بنتكلـم كـده.. يعنـي لـو أنـا كنـت جانبـه مـش كنـت ممكـن أكـون مريضـة في عيادتـه الخاصـة؟ اعتـبرت إني فعـلًا بـأزوره في العيـادة لمـا كنـت بحتاجـه، هـو مـا كنـش بيطلـب منِّـي حاجـة ولا بيحرضنـي عـلى خيانـة مثـلا زي مـا بتقـولي، كان بيسـمعني وينصحنـي وبـس.

ـ طـب كمـلي يـا شـذا، وبعديـن إنتـي لسَّـه بتعرفيـه لحـدِّ دلوقتـي؟

ـ واللـه يـا أنـوش ده الـلي هايجننـي.. اختفـى خالـص ومـش عارفـة راح فـين بقالـه شـهور.. أنـا خايفـة يكـون جـرى لـه حاجـة.. عشـان كـده أنـا كنـت حاسـة بحالـة فقـد شـديدة، محتاجـة الـلي أتكلـم وأفضفـض معـاه زي مـا إتعـودت عـلى كلامـي مـع أحمـد.. حـدّ يخفـف عنـي

الوجع اللي أنا فيه ده والهم اللي ما بينتهيش ولا حاسس بيا، والحمد لله لاقيتكم أهو.

- يا بنتي أومال فين جوزك طيب؟

- هههههههه جوزي؟

جوزي مش مهم عنده إنه يهدِّ اللي بينا بس المهم إنه يشتغل ليل نهار عشان يجيب فلوس يكمل تمن البرج اللي بيبنيه.. آه ربنا يساعده بقى.

من الواضح جدًّا أن شذا قد تعلقت بالدكتور أحمد وأحبته دون أن تراه أو يعطيها إيحاء بتقبُّله لحبها- كرجل وامرأة- فقط كان يؤدي دوره كما يؤديه في عمله وعيادته.. أصبح كل حياتها، لا تكتم عنه تفصيلة في حياتها، وإن لم تجده كثيرًا ربما كان يتهرب منها، فهو الطبيبُ المُحنك وبالتأكيد مرَّ بنفس الحالات من الحب والإعجاب من مريضاته من قبل.. فبالتأكيد كلهن مريضات بالوحدة يعانين من الإهمال أوالاحتياج.. أحبته وهي تعلم أنه حب بلا أمل.. حب من طرف واحد.. حب-شرعًا- محرَّمٌ.. ولكن ماذا عساها أن تفعل؟ هل يلام ظمآن أن وجد مياهًا وشرب منها.. وإن كانت مالحة وتؤذيه أو ربما سامة وبها نهايته، لم تفكر في نهاية وإن تمنت أن تكون نهاية سعيدة ولو "لها فقط".

نجوى

نجوى كانت من أهل الصعيد، هي من كانت أكثرنا جدية وتحفُّظًا في كل شيء.. متزوجة منذ ثماني سنوات بزميلها وقتما كانت طالبة بكلية الآداب، أحبته وكادت أن تُقتَل بسببه من أهلها وقتما تقدَّم للزواج منها..

- إنتوا عارفين يا بنات "صابر" ده لما كنا زمايل في الكلية كان أكبر مني بسنتين بس، لما كنت في المدينة الجامعية كنت بروح كل شهر بلدنا وساعات كنت بطبق لأكتر من شهر ما أروحش.. كان هو اللي بيقضيلي كل طلباتي في مصر.. كان بيتمنى بس أقوله نفسِي في حاجة يعملها على طول ما كنَّاش بنكمل أسبوع حضور على بعضه يعني نحضر في الأسبوع يومين بالكتير قولوا تلاتة والباقيين بنبقى سوا.. إنشالله حتى بنقعد في حوش الكلية المهم إننا ما كناش بنسيب بعض لحظة، ولما اتخرج كنت أنا لسّه في سنة تانية واتقدم لأبويا.. وعشان هو من إسكندرية وإحنا صعايدة، أبويا قلب عليَّ الدنيا وكان هايقعدني من الكلية.. كان بيقولي:

- "أنا فوِّتك تتدلي على مصر عشان تتعلمي ولا عشان تتصرمحي يا بت.. ياكشي تكونى فاكره نفسك خلاص

مـا دام بجيتـي متعلمـة وبتعيـشي في المدينـة الجامعيـة لوحـدك يبجـى إني هاسـمح لـك تمـشي كلامـك عـليّ!

ـ أقولـه يـا بـوي أنـا طوعـك وعمـري مـا أخـرج عنـه.. وصابـر ولـد نـاس ومحـترم وجـه البيـت مـن بابـه أول مـا اتخـرج أهـو.. يقـولي: بـاب إيـه وشـباك إيـه يـا بـت.. مـن ميتـا وإحنـا بناتنـا بتطلـع بـره العيلـة؟ اتجنيتـي إنتـي ولا إيـه؟

ـ يـووووه قعدنـا في حـرب سـنة كاملـة اتحبسـت في البلـد وبقيـت أروح الجامعـة كل شـهر كام يـوم بـس ووورايـا عيـون تراقبنـي، وقتهـا كان صابـر دخـل الجيـش ولا كان في بينـا تليفونـات ولا اتصـال إلا بالجوابـات الـلي كان بيبعتهـالي عـلى المدينـة باسـم واحـدة بنـت عشـان المشرفـة مـا تبلغـش أبويـا وأهـي الجوابـات دي هـي الـلي كانـت بتصـبَّرني عـلى غيابـه وعـلى الحصـار الـلي عملـه أبويـا الحـج عليـا بسـببه..
- يعنـي يـا نجـوى زي مـا بنشـوف في الأفـلام كـده عـن الصعيـد؟ كانـوا هايتـاووكي يـا نوجـا هههههـه!

ـ - بتضحـكي يـا ماريـان.. طـب إضحكـوا إضحكـوا مـا هـو لـو واحـدة فيكـم كانـت جربـت الحـب زيـي كـده كانـت هاتفهـم وتحـس.. بـس هاتحسـوا إزاي وإنتـوا كلكـم

كلاكيـع هههههـ.. صابـر كان مـدة تجنيـده في الجيـش أهـون عليـه مـن الـلي شـافه مـن أبويـا وإخـواتي.. لمـا لاقـوني برفـض كل عريـس وهددتهـم أولع في نفـسي والعار هايلـزق فيهـم بعـد مـا أمـوت أنـا لـو مـا وافقـوش عـلى صابـر ويتشرطـوا عليـه زي مـا هـم عاوزيـن.. وفعـلًا بقـى يمـوِّت نفسـه عشـان مـا يفرقـوش بينـا لدرجـة إن أبويـا وافـق يقـرا معـاه فاتحـة ومـع أهلـه ومـا يشـوفنيش ولا ييجـي بلدنـا إلا بعـد سـنة بالكتـير ويكـون مجهـز بيتـه وفارشـه كـمان ويـروح أبويـا يشـوفه الأول بنفسـه وبعدهـا ييجـي يكتـب الكتـاب وأغـور معـاه "زي مـا قـال أبويـا بالظبـط"..

- وإنتـوا بقـى عملتـوا الـلي قـال عليـه أبـوكي ده؟ قدرتـوا يعنـي؟ ولا هـو أساسًـا قبِـل كـده!!!

- مـش بقولـك يـا شـذا.. لـو جربتـوا الحـب كنـت عرفتـوا الـرد.. ويـا ناصحـة منـك لهـا أومـال أنـا عايشـه مـع مـين ومتجـوزة مـين وبنتكلـم أساسًـا عـن مـين؟ مـش هـو نفسـه ولا إنتـوا سرحتـوا فـين؟

كانـت نجـوى مثـالًا حيًّـا أمامـي عـلى التضحيـة مـن أجـل الحبيـب.. هـي بطبيعـة دراسـتها ونشـأتها كانـت ملتزمـة دينيًّـا كملبـس وسـلوك أيضًـا.. وتظهـر بوضـوح تلـك الصفـات

من خلال حديثها معنا دومًا عن الحرام والحلال والعيب والواجب.. كثيرًا ما كانت شذا تخرج من الشات أثناء تواجدها.. فقد كانا على النقيض من بعضهما، كانت نجوى دائمة انتقاد شذا وما تقوله أو تفعله متعللة بأن المرأة إذا تزوجت عليها أن تتحمل زوجها بكل عيوبه ومساوئه.. فهو قدرها ولا اعتراض على اختيار الله لها.. حتى إن آذاها فعليها أن تصبر وتحتسب عند الله ولا تشكو، عكس شذا التي كانت كثيرة الشكوى ولها من الحجج والأعذار ما تُبيح به لنفسها أن تُقيم عَلاقة ولو بالكتابة فقط مع أحمد بل وتطلق عليه بكل جرأةٍ- أمامنا فقط- لقب طبيب القلب حبيب القلب.. وهو ما كان سببًا كافيًا لأن تتصارع شذا ونجوى دائمًا، إحداهما تتهم الأخرى بالتسيب والاستهتار والأخرى تتهمها بالتخلف والعقد.

تعجبنا كيف تحيا نجوى بحب مع صابر كل هذه السنوات محرومةً من الإنجاب، من نعمةٍ تحلم بها أي أنثى متزوجةٍ مع من أحبت، لكن ما كان بينها وبينه رباطٌ أقوى من الأبناء، أقوى من الغريزة التي جُبِلت عليها حواء-الأمومة- وإن كانت بشقائها وحلوها حُلمَ كل أنثى من الصغر إلا أن حبها وعشقها لصابر كان أقوى من كل ذلك، وعزاؤها أن الله لن يهملها، فقط هو يمهلها لتختبر صبرها على صابرها.

كان الوقتُ أسبوعيًّا مقسمًا بيننا دون سابق تنظيم.. كل ليلة نجتمع بعد انتهاء اليوم بأعبائه لنا جميعًا وقت الظهر قد يكون وقت الليل لأخرى لفرق التوقيت ولكنه تناسُق بشكلٍ تلقائي وصار موعدًا محددًا لنا.. تبدأ إحدانا بحكايتها فنندمج جميعًا معها بالسمع واقتراح الحلول وربما بالهجوم أيضًا عليها وكثيرًا ما قامت خلافاتٌ ومشاكساتٌ بين رأي ورأي معارضٍ فيما نتحاور فيه من أمور عامة وخاصة؛ فصعب جدًّا أن تشترك امرأتان برأيٍ واحدٍ.. ما بالنا ونحن تعدينا الاثنتين والثلاثة والأربعة أيضًا!

فقد كان بيننا من الاختلافات في الديانة والبيئة والثقافات والتعليم ما يوجد الكثير من الاختلافات.. فبيننا المتشددة في إسلامها والمسيحية والمتحررة والمثقفة والحاصلة على درجةٍ علميةٍ وربة البيت التي حصلت على أوليات التعليم فقط.. مزيجٌ تآلف بشكلٍ عجيبٍ وانصهر في بوتقةٍ واحدةٍ كلها صبَّت في إطارٍ مشتركٍ بينهن "الغربة والوحدة".

اعتادت المجموعةُ أن تتسامر كل ليلة ويتداولن بينهن أحوالهن ومشاكلهن ويتنادرن بذكرياتهن وأحلامهن وبعض

النـكات والهمسـات النسـائية المرحـة والفاضحـة أحيانًـا أخـرى.. أصبحـن أسرةً واحـدةً.. وتوزعـت الأدوار وتبادلنهـا بينهـن بـلا ترتيـبٍ مسـبقٍ أو اتفـاقٍ بينهـن.. فكانـت منهـن مـن تشـعرهن بالأمومـة وأخـرى بمواقـف حـادة تتسـم بالذكـورة والخشـونة.. وأخـرى بدلالهـا ونعومتهـا كطفلتهـن المدلَّلـة.. تبادلـن الأدوار فمـلأن حيـاة بعضهـن في وقـت افتقـدن جميعهـن العيلـة واللمـة.

***

١١

ندى

مـرَّ أسـبوعان عـلى سـفر فريـد.. اكتفـى فيهـما باتصـالٍ بـاردٍ كل يومـين فقـط لمجـرد التواصـل والاطمئنـان الظاهـري عـلى البنـات وعـليَّ.. مـا يخـرج مـن القلـب لا مجـال لـه إلا القلب.. فلـم أشـعر بصـدق لهفتـه واشـتياقه أو حتـى قلقـه علينـا في أي كلمـةٍ أو إحسـاسٍ حـاول أن يوصلـه لي.. لعلـه وجـد مـا يعوضـه عنِّـي وعـن بنـاتي..

العجيـبُ أني لم أتفاجـأ بموقفـه ولم أفـزع لتصـوراتي التـي هُيئـت لي فـورًا كـما لـو كنـتُ أتوقعـه أو أنتظـره.. أو ربمـا مـما سـمعته وعرفتـه مـن صديقـاتي الجُـدُد عـن تجاربهـن الماضيـة مـع أزواجهـن وحيلهـن الكثـيرة عند مـداراة علاقـة مـا بامـرأةٍ أخـرى أو مـا إلى ذلـك مـن نـزواتٍ مـرَّت

بهم أو ما زالت مستمرةً.. توقعت الأكثر منه.. الأكثر من سفره أو عدم لهفته علينا كالسابق. بل وشردت بفكري فيما لو حدث بالفعل ماذا سيكون تصرُّفي! لن أنكر أن الشك قد بدأ يتمكن مني.. فلم يكن فريد من النوع الذي يقضي أيامًا بعيدًا عن البيت ويكون رد فعله وغيابه بهذا البرود المتناهي وعدم السؤال عنا بشكلٍ دائمٍ كما تعودت خلال سنوات زواجنا أو سفره والذي كان لا يمتد لأكثر من أيامٍ مهما كانت أهميته.. هذه المرة الوضع مختلفٌ.. وإحساسي أيضًا مختلف.

حان وقتُ البوْح..

وجاء دوري في أن أقص ما عندي ولكني لم أستشعر أني أريد أن أطلع الجميع على ما أردت البوْح به.. فقط كنتُ أحكي لهن القليل والساذج من حياتي حتى بدوت لهن بلا مشاكل، مرفهة، ملولة من كل شيء وكأني أقضي معهن وقتًا للسمر فقط وليس للقضاء على ما أعانيه من ضغوطٍ نفسيةٍ وملـلٍ وفراغٍ نفسي اللذين لم أكن أعرف كيف المناص منها ولا أدري لِمَ اختصصت بالكلام على انفراد "نشوى" فقط.. ثَمَّة شيء خفي كان يشدني إليها.. كنتُ معجبةً جدًّا بتفكيرها الوسطي المعتدل دائمًا تجاه كل ما يُحكى لها ولنا.. وفي نفس الوقت كنتُ أشعر أنها محور اهتمامنا جميعًا وأن رأيها هو ما يهمنا جميعًا

برغم أن الحكايا كانت بيننا جميعًا وحوارنا كان مفتوحًا لنا كشخصٍ واحدٍ يحكي وشخص واحد يستمع.. ولكن بشكل خاص رسمت لنشوى صورة وهيئة رائعة قمة النضج وقمة العقل والرومانسية معًا.. استشعرتها قويةً بنعومةٍ كانت كافيةً لأن تمتص غضب أيٍّ منا بسهولةٍ بل وإقناعها بتعديل مسارها إن رأت هي ذلك أصح لها في ذلك التوقيت.. نشوى كانت مثلًا أعلى لي.. كم تمنيت لو أني ألقاها بالحقيقة وأرتمي بين ذراعيْها باكيةً.. أفصح لها عما مرَّ بي من يوم أبصرت الدنيا بالعباسية وحتى لحظة لقياها.. ربما كان هذا الإحساس وليد فقداني ضمة الأم والأخت في الواقع..

أرسلتُ لها طالبةً رقم هاتفها حتى أتواصل معها بشكلٍ خاصٍّ وخاص جدًّا لاحتياجي الشديد لها. فقد كنتُ أعلمُ أن ما أردت أن أحادثها به قد يكون مثار سخريةٍ أو انتقادٍ من صديقات الجروب.. فأنا الوحيدةُ بينهن من أمتلك كل شيء يوفر الراحة والسعادة لأي امرأةٍ أو زوجةٍ تحديدًا؛ المالُ والأبناءُ والزوجُ المُحب الغيور بل وأيضًا الرومانسية المفرِطة التي ما زلت أحملها بين جنبات آلامي الخفية والتي لا تظهر إلا لمن اقترب من كيان ندى وليس من عرف ندى الزوجة والأم.

كان رد نشوى غريبًا ومفاجئًا بالنسبة لي.. فقد رفضتْ بشكلٍ ما أن نتواصل عبر الاتصال الهاتفي أو حتى الماسنجر، قالت بالحرف:

"يا ندى لو كنت أقدر أدي رقمي لحد كنتي إنتي أول حد أديهولها.. بس ما تنسيش يا حبيبتي إن كلنا مهما حكينا تفضل عندنا أسرار ما ينفعش نقولها لحد- صح ولا أنا غلطانة؟

- الحقيقة مش عارفة أقولك إيه يا نشوى.. إنتي فاجئتيني بصراحة بردك ده.. لكن على راحتك يرجع لك القرار.. وعمومًا أنا آسفة لو تعديت حدودي.

- لأ يا ندى ما تقوليش كده، واللهِ هازعل بجد.

كل ما في الأمر إني فعلًا أفضل إننا نتلاقى هنا.. عالكيبورد، عارفه ليه؟

- لأ مش عارفة.. ليه؟

- ببساطة الكتابة بتخليكي تحكي من غير مقاطعة مني أو من غيري.. الكتابة تخليكي تعيشي اللي عاوزة تحكيه أصدق من الكلام.. مساحة البوح عندك بتزيد كأنك بتحكي عن غيرك مش عن نفسك، بترفع الحرج عنك وعن نبرات صوتك.. كمان أنا لما أديلك رد هايكون محسوب أوي.. وإنتي وغيرك وأنا محتاجين

رأي العقل في وقت إحنا عقلنا بيكون مش معانا، بنكون تفكيرنا طالع من حواسنا من قلبنا مش من عقلنا.. فهمتيني يا حبيبتي؟

"الحقيقة لم أقتنع بكلامها، ولكن لمكانتها عندي كنت لا أشك في أي كلمة تنطق بها ولا بأي رد فعل منها تجاهنا وتجاهي أنا بالذات"

أذكر في مرة قالت لي:

- إنتي يا ندى ما تعرفيش مكانتك عندي.. تصدقي إني بقيت أفكر فيكي ليل نهار.. زي ما تكوني عملتي لي عمل يا بنت إنتي.. إنتي إيه حكايتك؟ أنا عذرت جوزك له حق يغير عليكي.

كان كلامها لي يسعدني، شعرت منه بقرب المسافة بينا، ولذلك لم أتردد لحظة في ذِكر أدقِّ تفاصيل حياتي لها.. ارتباطي بالمجموعة كان في جانب وبها هي جانب آخر لا يقاسمها فيه أحد.. أخذت مكانة أمي وصديقتي بل وحبيبتي التي أثق بها جدًّا.

اتفقتُ مع نشوى على موعدٍ التقينا فيه عبر "النت" دون المجموعة.. وحكيت لها كل ظروف زواجي الأول وما سبَّبه لي من جرحٍ في أنوثتي وكرهي للعلاقة الحميمة فيما بعد مع فريد؛ فكان هاجس مرعب أن ألتقي في

الفـراش معـه وأعيـد نفـس التجربـة الفاشـلة مـن جديـدٍ ومـع أني لا يـد لي ولا حيلـة فيهـا.. كل مـا كان أني تـمَّ زفـافي عـلى رجـلٍ وفشـلَ في أن يكـون أبًـا مـن أول عـام لزواجنـا فرمـاني بالسـباب وبتهمـةٍ كادت تلتصـق بي العمـر كلـه لـولا إرادة الله أن أتـزوج فريـد ويرزقنـي بمـن أعـاد لي ثقتـي المهـزوزة أمـام النـاس، ولكنهـا لم تشـبع رغبتـي كأنثـى أو امرأة.. لم أشـعر يومًا بالمتعـة التـي أسـمع وأقـرأ عنهـا.. فقـط كل مـا في الأمـر كانـت اسـتمرارية للحيـاة.. وتعمقـت معهـا في ذِكـر كل مشـاعري تجـاه فريـد وإحسـاس الحـب الـذي أفتقـده معـه برغـم كل مـا يبذلـه وأبذلـه بالمعيـة أنـا الأخـرى لنتقـارب فكريًـا وروحيًـا وجسـديًا.. لم أخـفِ عنهـا شـيئًا.. حتـى فاجأتنـي بسـؤالها:

ـ إنتي في حدّ في حياتك غير جوزك يا ندى؟

ـ لأ طبعًا.. ليه بتقولي كده؟

ـ قـولى لي مـا تخافيـش- صارحينـي- مـا هـو الـلي بتقوليـه ده لازم يخليني أفكـر في ده.

ـ صدقيني لأ مافيش.

ـ عـاوزة تقـولى لي إن الرومانسـية الـلي حسـيناها كلنـا فيـكي دي والحـب الـلي بتكلمينـي عنـه ده مـش لحـدّ؟ طالمـا إنـه مـش لجـوزك غصـب عنـك وإن عيشـتك معـاه

بمـا يـرضي اللـه في بيتـك وبناتـك ونفسـك لكـن قلبـك مـش معـاه.. طيـب مـع مـين؟

ـ مش مع حدّ.. لوحده!

أكيـد في حاجـة أكـبر مـن إني أسـيب قلبـي لغيرهـا.. أنـا نفـسي مـش عارفاهـا إيـه.. كتـير بحلـم أحـلام وأنـا صاحيـة بتاخـدني لعـالم زي مـا أكـون أنـا فعـلًا عايشـة فيـه.. الدنيـا دي يـا نشـوى مـش بتاعتـي مـش لاقيـة نفـسي فيهـا، مـش بتاعتـي أنـا متأكـدة مـن كـده..

إنتـي عارفـة أنـا بشـوف في المنـام أماكـن عمـري مـا شُـفتها في الحقيقـة وبعديـن أفاجـأ بهـا في فيلـم أو في حـد بيحـكي عنهـا شـافها في بلـد عمـري مـا رُحتـه.

ـ لأ وضَّحي أكتر يا ندى..مش فاهمة!

ـ يعنـي مثـلًا أنـا حلمـت بجـلال الديـن الرومـي.. آه واللهَ. عمـرك سـمعتي عـن حـدّ حلـم بـه.. أو حـدّ عمـل دوره في فيلـم مثـلًا فعرفنـا شـكله بالتقريـب؟

ملامحه.. صوته.. طوله.. عرضه!

يـا نشـوى أنـا بتكلـم مـع النـاس دي وبـروح معاهـم في عالمهـم.. في زمنهـم بشـوف نفـسي بشـكل مختلـف، بكـون لابسـة لبـس غريـب واسـع وأبيـض وبـدور بيـه مـع أناشـيد

ومزيكا أنا مش مفسراها ولا أعرف بأي لَكنة ولا لغة بغنيها بس بكون سعيدة وخفيفة وطايرة وأنا رجلي على الأرض.. الأحلام دي مش بس وأنا نايمة أنا بقيت كتير بسرح فيها كمان.. أنا ساعات بأحسّ إني فقدت عقلي من كتر ما بحلم وأنا صاحية.

ـــــــــ صمت ـــــــــ

ما بترديش عليَّ ليه يا نشوى؟ صدَّقتيني ولا هاتقولي عليَّ مجنونة؟

- لأ يا حبيبتي بالعكس أنا مركِّزة معاكي أوي.. بس الحقيقة مستغربة حبتين.

- إنتي قادرة تعيشي بالشخصيتين دول إزاي؟ اللي بتوصفيه ده حاجة مش في حياتنا دلوقتي.. ولو اتوجدت فهي محدودة وقليلة جدًّا مش متعارف عليها بينا يعني لعامة الناس قليل منهم بس اللي يعرف ده مش أكتر.. يعني إنتي ما عيشتهوش قبل كده في الواقع.. ولا يمكن قرايتك عنه ولا المزيكا اللي بتسمعيها دي هي اللي خليتك تحلمي أحلام اليقظة دي؟

لأ.. مش يقظة، أنا بحلم وأنا نايمة فعلًا باللي حكتهولك.. شُفتي بقى أديكي مش مصدقاني عشان كده قلت هاحكي لك إنتي لوحدك.. دليني أعمل إيه؟

أعيش كده إزاي؟ أسيب الدنيا دي خالص وأعيش لخيال أنا حبيته.. ولَّا أتخلص من الخيال ده إزاي وأعيش الواقع وإن كنت رفضاه ومش لاقية نفسي إلَّا في الخيال ده؟

ـ طيب إهدي كده ونكمل كلامنا بكره.. أنا غصب عني مضطرة أقفل معاكي عشان ورايا موعد طبيب ضروري أروح له.. ووعد لنا كلام تاني ومش هاسيبك إلا لما ترتاحي خالص.. وعد.

كنتُ على يقينٍ ألا أحد سيُعاونني أو يُصدقني فيما أقول.. ولهذا كنتُ أكتفي بسماعهن فقط.. وأحيانًا كنتُ أشاركهن بالرأي أو بالدعابة أو بالحديث عن طريقةٍ لعمل أكلةٍ معينةٍ أو نوعٍ من أنواع الحلوى المنزلية.. أو عرض صور لهن عن أحدث قصَّات الشَّعر والتي كنتُ أجيد التعامل معها فقد كانت بناتي حقل تجاربي في قصَّات وتسريحات الشَّعر.. كُنَّ يسعدن ويثقن في ذوقي في اختيار ألوان وموديلات ملابسهن أو ألوان الستائر الخاصة بمنازلهن وديكورات غرف النوم والسفرة والاستقبال أيضًا..

فأنا أتذوق كل ما يمت بصِلةٍ للألوان والموسيقى وأجيد التصميم والتخيُّل لديكورات أو تنسيق الغرف والأثاث بالإضافة لما تعرفت عليه من أنواع ومجالات وأذواق جديدة وراقية من خلال مواقع الإنترنت المهتمة بذلك. أيقنتُ أن عليَّ أن ألجأ لنفسي فقط.. أن أصاحبَ نفسي التي انقسمت بداخلي إلى ندى الظاهرة للكل.. وندى الخاصة جدًّا بداخلي، ندى التي لا تجد نفسها إلا مع نفسها.. فما نفسي هذه التي لا تهنأ إلا بخلوتي مع روحي!

نفسي!

روحي!

لِمَ تُشقيني نفسي بالتفكير في منغصات من حولي.. ولِمَ روحي دائمًا تهيم في عالم الأحلام والخيال؟ لِمَ أخشى منها وأنا أعلم أنه مهما كان بداخل النفس من ظلامٍ قد يسود لبعض الوقت إلا أن هناك دائمًا بصيصًا من الأمل يترقب منفذًا ليعم كامل الروح.. فقط وحده.. صاحبُ الروح هو من يُتيح لها ذلك المنفذ.. فقط هو مَن له الأمرُ والنهي.. الضوء ينبثقُ من داخلنا.. رُبَّ كفيفٍ ولكنه مُبصرٌ.. والكثيرون مُبصرون ولكن لا يرون النور.. النور بداخلنا لا يحتاج لعيونٍ.. فقط يحتاج لبصيرةٍ. جمَّعت كل ما لديَّ من قوةٍ داخليةٍ وخارجيةٍ.. استجمعتُ

كل قـوتي ومـا أسـتطيعُ مـن قـوةٍ روحيـةٍ ونفسـيةٍ ومادية عزمـت عـلى أن أفتـح طاقـةً جديـدةً للحيـاة؛ فليـس كل العـالم "فريـد" وليـس كل العـالم امـرأة تنحـصر وظيفتهـا في كونهـا أُمًّـا؛ فهـي لم تبتكـر جديـدًا.. كل أنثـى تتـزوجُ تُصبـح أُمًّـا.. نامـوسُ الكـون لم أصنـع جديـدًا.. فـإن لم أسـتطع أن أتحكـم بالعـالم.. فأسـتطيعُ أن أتحكـم بنفـسي عـلى الأقـل.. العـالم المتمثـل بفريـد.. لـن أتحكـم بـه..

فقط سأتحكم بعالمي.. بـندى.

***

١٢

فريد

باتت لقاءاتنا أنا وليلى تحدث بشكلٍ مستمرٍّ ويومي.. وما بين اللقاء واللقاء عشرات المكالمات الهاتفية التي قد تقتصر أحيانًا على كلمةٍ واحدةٍ بلا مبررٍ، فقط لمجرد أن نكون على اتصالٍ وتواصلٍ معًا طيلة اليوم.. كنتُ أراها في كل لحظةٍ وما إن أنهي أعمالي وجولاتي مع وفد المصنع وتفحُّصنا وتعاقداتنا على شراء الآلات التي بصددها جئنا إلى هنا.. إلا وأجد نفسي رهن إشارتها، كنت أتسابق مع الوقت حتى أنهي جميع التعاقدات والاتفاقات المالية المكلف بها وإتمامها وإرسال الإيميلات الخاصة بها أولًا بأول للشركة.. على أن أصبح مع أول الليل غير مرتبطٍ بأي مواعيد.. في حين كان زملائي يذهبون للتسوق أو التنزه، كان

همي واهتمامي الأول هو أن ألزم بهو الفندق في انتظار أن تُنهي ليلى ساعات عملها التي كادت تقتلني فيها الدقائق بل والثواني أيضًا في الانتظار شوقًا ولهفةً للقاها بحجة تناول طعام العشاء معًا.. وما كنتُ أنتظرُ سوى ما يشبع لهفتي وحبي القديم الذي قُدِّر له أن يتجدد في وقتٍ لم أحسبه ولم أتوقعه.. اليوم صرتُ أستطيع أن أتقابل معها أنا وهي فقط دون مانعٍ أو عائقٍ.. فهي تعيشُ بالنمسا بمفردها، أصبحتْ أرملةً وليس لديها أبناء في ذلك البلد الذي تغربت فيه بعد أن تزوجت عقب وفاة أبيها بعامين.. تربية فتاة وحيدة أمها-جميلة - مرغوبة- ولها من الإرث ما يجعلها مطمعًا من الغير، عبء ومسئولية على كاهل أمها وأعمامها.. فزوَّجها عمها بابنه فور انتهاء اختبارات آخر عامٍ لها بالجامعة حفاظًا عليها كابنة أخيه التي تُعد في منزلة ابنته من اتجاهٍ، ومن اتجاهٍ آخر للحفاظ على ميراثها من أبيها وأخيه خشية أن يلتهمه آخر ليس من دمهم طمعًا في الإرث المالي. ذلك الإرث الذي عاش عم مرزوق يُقتر على نفسه وعليهم في حياته ليتمتعوا به بعد مماته وإن كنتُ أرى أنا أن ميراث أبيها كان "هي" فقط.. فأجمل ما صنعه أبوها وأمها بالنسبة لي هو وجود "ليلي" في الكون وحسب.

سافرت ليلي وابن عمها "زوجها" معًا لعمله بأحد الأوتيلات الشهيرة بالنمسا.. دام زواجها سنواتٍ وسنواتٍ أملًا في إنجاب طفلٍ أو طفلةٍ تشعرُ معه بما افتقدته هي في بيت أبويْها.. أو بالتحديد ما شعرت بأن أمها افتقدته وجنت هي ثمرته فيما لا حول ولا قوة لها ولا لأمها فيه.. لم تعرف طعم أن يكون لها أخ أو أخت يتقاسمان ألعابهما أو مأكلهما أو فراش نومهما.. تمنت وسعَت وعانت من عدم تمكنها هي وزوجها من الإنجاب.. تربَّت وحيدةً بين أبويْها وكُتِبَ عليها أن تعيشَ وحيدةً أيضًا مع زوجها.

ويشاء رب العالمين أن يُصاب زوجُها في حادث سير وتنجو هي برضوضٍ بسيطةٍ نتيجة السرعة في القيادة أثناء قضائهما عطلة نهاية الأسبوع هناك ويظل رهن العمليات الجراحية لمدة عامٍ فارق بعده الحياة.. وكان على ليلى أن تقرر أن تعودَ إلى مصر في كنف أعمامها بعد وفاة أمها من سنواتٍ قريبةٍ وتحكمهم بالطبع فيها ليس فقط كونها أرملة ابنهم ولكن لأنها أيضًا ابنة أخيهم.. ولذا كان عليها اتخاذ قرارٍ حاسمٍ تحملتْ هي تبعيته؛ فقد قرَّرت أن تستمر بالنمسا بعد أن التحقت بالعمل في الفندق بواسطة زملاء ومديري زوجها الراحل واكتفت بأن تعتمد على نفسها في حياتها من دون الغير.. فما بعد الأب والأم والزوج.. من يُعيلُ؟ حكت لي ليلى ما سبق من حياتها

منذ أن تركنا أسوان من سنواتٍ بعيدةٍ وحتى وجدتها الآن.. كانت تحكي لي كمن تستعيد ذكرياتٍ تحنُّ هي إلى سردها فقط كماضٍ، ولكن لم أستشعر منها افتقادَها لهذه المرحلة.. كانت ليلى غير ما كانت شكلًا وموضوعًا.. رأيتها امرأةً ذات ثقةٍ وقوةٍ في كل تفاصيلها وملامحها.. لم يزلْ وجهُها مُحاطًا بعرين شَعرها الأسود الغجري.. تركته ينسدلُ على كتفيْها بغوغائيةٍ وفوضى مثيرةٍ لأن يقتحم هذا العرين أي مخاطر لينالَ لذة المغامرة لخوضه ونشوة الانتصار بالفوز بصاحبته، خطواتها قوية بنعومة قد تُغري الناظر إليها ولكنها تكبِّله.. رأيتُ فيها الشيء والنقيض.. ضعفَ الأنثى القوية حينما تستكين لرجلها فيستلهم من قوتها ضعفًا ومن ضعفها قوةً في نفس الوقت.. حركت في داخلي كل ما كنتُ أجاهدُ لأخفيه حتى عن نفسي منذ زواجي بـ ندى.. وما تاقت إليه نفسي من حب المغامرة وخوض التجارب.

***

قارب الشهر الذي كان مقررًا لنا في هذه المأمورية على الانتهاء.. وقد أنهيتُ ما أتيتُ لأجله إلى النمسا من أعمالٍ كانت قد رُتِّبَ لها مُسبقًا بنجاحٍ وعلى أكمل وجهٍ أيضًا.. ولكن ما فاجأتني به النمسا ولم يكن مُرتَّبًا له كان

هـو أكـبر وأهـم حـدث بالنسـبة لي، ليـس في تلـك الرحلـة فقـط بـل خـلال الأعـوام الأخـيرة مـن عمـري.. فهـل يـا تُـرى سـأنهي الموقـف عنـد هـذا الحـدِّ مُكتفيًـا بالمزيـد مـن اجـترار الذكريـات مـرةً أخـرى وأغـادر عائـدًا إلى مـا كنـتُ عليـه قبـل المجـيء إلى هنـا؟

إلى عملي وبيتي وحياتي وروتينها المعتاد؟

ونـدى وصمتهـا الذي لا ينفك إلا عند طلبها بما لا أود فعله؟ هـل سـأترك ليـلى ينبـوع الأنوثـة المتفجـر والحـب القديـم بعـد أن عـثرت عليهـا؟

هـل سـأتنازلُ عـن حُلـم المراهقـة والصبـا والانتعاشـة التـي أحتاجهـا الآن لإضافـة البهجـة والحيويـة عـلى حيـاتي الروتينيـة، أأتركهـاالآن بعـد أن باتـت قريبـةً منِّـي مـن جديـدٍ؟

لا... لـن أتركهـا ولـن أتـرك البلـد قبـل أن أقـترن بهـا.. نعـم ومـا الـذي يحـولُ بينـي وبـين زواجـي منهـا؟ مـا كان بالأمـس تبَّـدل الآن.. لم أعـد المُراهـق المُحِـب قليـل الحيلـة.. ولم تعـد الفتـاةَ القـاصر المسـئولة مـن والدهـا.. ولم يعـد فـارقُ السـن ومـا جعلنـي أبـتر أحلامـي صغـيرًا عائقًـا أمامـي الآن.. بـل لم يعـد لهـا أحـد مُطلقًـا بهـذه الدنيـا يُحبهـا ويُخـاف عليهـا غـير طامـعٍ فيـما تملـك مثـلي الآن.. لـن يمنعنـي زواجـي أو بنـاتي مـن الـزواج مـرةً أخـرى.. فكيـف يمنعـوني ويحرمـون مـا حلـل

اللـه؟ أليسـت نـدى زوجتـي بسـنة اللـه ورسـوله؟ سـتكونُ ليـلى أيضًـا زوجتـي بسـنة اللـه ورسـوله؟ فمـن سـيمنعني؟ إلا.. هـي.

عقـدتُ العـزم عـلى أن أرجـئ عـودتي إلى مـصر لأيـامٍ أُخَـر لا أعلـم عددهـا إلى أن أصـل إلى مـا تمنيـت وحلمـت.. سـأتصل بـندى وأبلغهـا بذلـك وليكـن مـا يكون..

ـ ألو.. أيوه يا حبيبتي إزيك وإزي البنات؟ عاملين إيه؟

ـ البنـات بخـير يـا فريـد، إنـت وحشـتهم أوي، مسـتنيينك خـلاص بعـد يومـين إن شـاء اللـه.

ـ أأأأ.. لا يا ندى.. ما هو أصل..

ـ إيه يا فريد؟ مالك؟ في حاجة حصلت؟ خير!

ـ الحقيقـة إني مضطـر أأجـل عـودتى كام يـوم كـمان.. أصـل الشـغل لسَّـه مـا خلصـش ومـش هاينفـع آجـي مـن غـير مـا أخلـص الـلي جيـت عشـانه.. معلـش يـا حبيبتـي كلهـا كام يـوم وأرجـع إن شـاء اللـه، إدعيـلي إنتـي بـس يـا أرقّ نـدى وأطيـب قلـب!

....

شـعورٌ غريـبٌ تملَّكنـي؛ مـا بـين التوتـر والمتعـة في وقـتٍ واحـدٍ وأنـا أحـدِّث نـدى، إحسـاسٌ مـررتُ بـه مـن زمـنٍ وكان

بسبب ليلى أيضًا.. أذكره جيدًا وتجلى أمامي أثناء اتصالي بندى واختلاق الأعذار والمبررات لتأجيل حضوري إلى مصر.. كانت أمي منذ سنواتٍ هي مَن أختلق لها الأعذار حال تأخُّري في العودة من الدرس الخصوصي مساءً.. فقد كنتُ أنهي الدرس وأقفز مسرعًا ألتهم الطريق عَدوًا لألحق بعم "مرزوق" والد ليلى قبل أن يُغلق الدكان.. فقد كانت ليلى تأتي آخر الليل لتساعده في تجميع الأغراض من أمام الدكان من كراتين الحلوى التي كان يصفها في شكلٍ يُغري به الصغار لتصبحَ في متناول أيديهم وأعينهم فتُثير شهيتهم ولعابهم وتستقطب أموالهم من جيوب آبائهم للشراء برضاهم أو رغمًا عنهم..

- عنك إنت ياعم مرزوق أنا ها ساعد ليلى على ما إنت تعدِّ الفلوس وتقفل الدرج..

- طبعًا ما هي إلا حجج ما أردت منها إلا أن أقترب من ليلى وأكلمها بل وربما أستطيع أن ألمس يدها في غفلة منها لأتباهى صباحًا أمام أصدقائي بالمدرسة بأني نلتُ منها ما لم يحلُم به غيري من أقراني الصغار.

- إنت يا ابني إيه اللي منزلك الشارع دلوقتي؟

- طب أنا بنزل أساعد بابا.. إنت إيه اللي جابك هنا؟ هو كل كام يوم تنط لنا كده؟

قالتها بابتسامةٍ تبدو أنها سخرية أكثر منها استفسارًا..

ـ الحق عليَّا يعني إني عاوز أساعدكم؟ ماشي يا لولا.. شكرًا أوي.

ـ هههههه.. لأ، الحق مش عليك.. حقك عليَّا ما تزعلش يا زغنن ما تعيطش يا نونو.

شطتُ غضبًا وقتها وأردت أن أظهر أمامها بمظهر

الشباب بل مظهر الرجولة أيضًا.. فكشَّرت عن أنيابي وجززتُ على أسناني حتى كاد فكي أن ينفجر من وجنتي من شدة ما قبضته.. وبكل ما امتلكتُ من قوةٍ أمسكتُ معصمها قائلًا بصوتٍ مبحوحٍ يُشبه الهمس:

ـ ما تقوليش صغنن دي تاني.. أنا راجل عارفة يعني إيه راجل؟ وبكره تشوفي وتعرفي إن الرجولة مش بالسن يا ست الحسن والجمال.

وحملت كل ما بوسعي حمله من كراتين بما يثقل على ذراعي ولكني أحببت أن أظهر بمظهر بطوليٍّ وعنفوان يُدهشها لتتراجع عن كلمتها الساخرة من صغر سني وأدخلته داخل الدكان وألقيت السلام على عم مرزوق.. وتركتها تنظر لي في دهشةٍ ممسكةً بمعصمها تتحسسُ موضع قبضة يدي عليه ذهابًا وإيابًا مما يوضح أنه يؤلمها.

وما أشبه اليوم بالبارحة.. اليوم شعرتُ بنفس إحساس الكذب الممتع الذي كنتُ أمارسه على أمي حتى أرى ليلى.. تبدلت الأدوار وصارت ندى مكان أمي ولم يتبدل دوري ولا دور مَن أكذبُ بسببها.. محبوبة الطفولة والمراهقة "لولا".

انتظرتُها ببهو الفندق حتى أنهتْ موعد عملها.. كانت تعلم بقدومي.. فرحَّبت بي وتوجهنا إلى المطعم لتناول العشاء معًا كما اتفقنا مسبقًا.

- ها توحشني يا فريد.. اتعودت على وجودك الأيام اللي فاتت دي كلها.. مَليت عليَّ وقت كتير كنت نسيت فيه حتى الكلام العربي.

- بس إنتي مش ها توحشيني يا لولا..

قلتُها مُبتسمًا.

- مش ها وحشك؟! ده رد!! طيب شكرًا يا سيدي.

قالت وقد بدا على وجهها الانقباض.. فسارعتها بالرد:

- هاتوحشيني إزاي وأنا مش ممكن هاخليكي تغيبي عن عيني لحظة من دلوقتي؟ معقول بعد ما ألاقيكي هاسيبك!!

- مش فاهمة، تقصد إيه يا فريد؟

ـ هانتجوز يا ليلى.

...

صمتتْ وشردتْ بعيدًا كما لو أنني صفعتها على غفلةٍ.. ثم قالت:

ـ مين يتجوز مين؟

ـ هههههه هو مين غيرنا بيتكلم دلوقتي؟ أنا وإنتي هانتجوز يا ليلى.. ده لو وافقتي طبعًا..

مددتُ يدي وتناولتُ كفيها اللتين بدتا كالمخدرتين بين راحتيْ يديَّ ورفعتهما برفقٍ إلى شفتيَّ وقبَّلتهما برقةٍ ونعومةٍ قد تكون مبالغًا فيها لكني لم أشعر إلا وأنا مغمض العين وأقبِّل كل جزءٍ في كفيها كمن يرسم بريشةٍ مبللةٍ بألوان شفافة تكاد لا تُرَى فيتحسس موضع ضربات فرشاته قبل النزول إليها وأثناء الرسم.. كانت شفتاي ترسمان أول طريق الحب الفعلي بيني وبينها، طريق كنتُ ظننتُ أني افتقدتُ أثره من زمنٍ.. ولكني أفقتُ عليها تسحبُ يديْها بقوةٍ من قبضة شفتيَّ المتسلسلة إليها..

ـ إيه ده يا فريد؟!!

إزاي تعمل كده؟ وإيه اللي بتقوله ده؟ إنت فاهم إنت بتقول إيه؟

ـ أكيد فاهم كل اللي بقوله واللي بعمله واللي هاعمله كمان يا ليلى.

ـ مستحيل ده يحصل..

ـ ليه مستحيل؟

ـ أسباب كتير مش سبب واحد بس.

أولهم إنك متجوز وعندك بيت وزوجة وأولاد. وثانيهم إني أكبر منك بكتير إنت فاهم أكبر منك بسبع سنين يا فريد.. مش سنة ولَّا اتنين، ثالثًا بقى إني مش مستعدة أفقد حريتي وأرتبط براجل وأنا اتعودت أكون حرة.

لم أتمالك نفسي من الضحك.. ضحكتُ هستيريًّا حتى دمعت عيناي.. فقاطعتني بتحفز وعصبيةٍ..

ـ بتضحك على إيه دلوقتي؟ إنت مجنون؟!!

ـ أيوه أنا مجنون.. مجنون بحبك من زماااان.. واللي منعنى زمان خلاص.. بخ.. راح.. انتهى.. إنتي قُلتي أهو.. إنتي كبيرة وأنا ما بقتش الصغنن اللي سخرتي منه زمان.. أنا وإنتي مش صغيرين وأمرنا بإيدينا

ومـا تنكريـش إنـك محتاجـة راجـل معـاكي يسـندك ويحبـك وتحبيـه.. يـا ليـلى إنتـي أنوثتـك وشـبابك وجمالـك مسـتحيل يكونـوا إلا لبنـت في العشرينيـات.. مـا تحاوليـش تنكـري إنـك محتاجـة الحـب دلوقتـي أكـتر مـن الأول، وبعديـن مـين قالـك إني هاكـون ضـد حريتـك؟ مـين قـال إني عـاوز أغـيَّر أهـم حاجـة بتشـدني ليـكِ؟ مـين الـلي قالـك إن جوازنـا مـش هايكـون أهـم سـماته هـي الحريـة؟

- حقيقـي مـش فاهـماك يـا فريـد؟ يعنـي إنـت عـاوز تتجـوزني ومـش هاتأثـر عـلى حريتـي؟ حتى لو اللي بتقوله صح.. طيب وولادك ومراتك؟

- مـا لهـم بـس؟ هـو في الـلي يمنعنـي مـن إني أتجـوز وأفتـح بيـت تاني؟

- ذنبهـا إيـه مراتـك تتجـوز عليهـا؟ وأنـا أتحمـل ذنـب بيـت بيتخـرب؟

- ومـين قـال لك إنـه هايتخرب؟ ولا إنـه كان عمران أساسًـا؟ لعلمـك نـدى مـش هايفـرق معاهـا.. يمكـن تتأثر شـويتين في الأول.. لكـن مـش هاتفـرق معاهـا كتـير.. هـي أساسًـا عايشـة معايـا وقلبهـا مـش معايـا.

- إيـه؟ بتقـول إيـه؟ مراتـك بتحـب حـدّ غـيرك؟ وإنـت عـارف!!

- لأ مش بالظبط.

شـوفي يـا ليـلى.. الحيـاة بينـا مـن بعـد جوازنـا بسـنتين تقريبًـا بقـت فاتـرة جـدًاا، روتينيـة لأبعـد الحـدود.. زي مـا السـت بتحـسّ بجوزهـا وإن كان فيـه في حياتـه واحـدة تانيـة ولا لأ.. الراجـل كـمان يقـدر يحـسّ كويـس أوي مراتـه بتحبـه هـو.. بتحبـه كحبيـب ورجـل يكفيهـا عـن العـالم ولَّا بـس حبهـا لـه شـكل اجتماعـي وكيـان وتعـوُّد عـلى وجـوده بـس لاكتـمال شـكل البيـت والأسرة والسـت الـلي مـا عنّسـتش ولا بـارت واتجـوزت وعايشـة ملكـة في بيـت لـه راجـل بيـصرف وبيأمِّـن الحيـاة لهـا ولولادهـا كـمان..

الـبرود الـلي بينَّـا كزوجـين.. متعـة الجـواز نفسـه الـلي أنـا وأي راجـل زيـي محتاجهـا يمكـن أكـتر مـن السـت فـإن كانـت السـت بيحوشـها الحيـاء والتقاليـد عـن إنهـا تفـسر ده أو تبـوح بـه.. الراجـل لأ.. أنـا بقولـك أهـو.. نـدى مـش سـعيدة معايـا وهـي مـش بتشـبع رجولتـي معاهـا.. أنـا سـعادتي معـاكي إنتـي.. أنـا محتـاج واحـدة زيـك إنتـي.. ليهـا شـخصيتها وكيانهـا.. واحـدة بتشـد كل حتـة فيـا ناحيتهـا، كلامـك، سـكوتك تفكـيرك، ملامحـك، جسـمك.. كلـك يـا ليـلي كلـك.

يبـدو أننـي انفعلـت أثنـاء كلامـي، وتـدرج صـوتي في العلـو حتـى إن آخـر كلـماتي كانـت كصيـاحٍ.. جعـل همهـمات مـن حـولي ونظراتهـم وقيـام ليـلى المفاجـئ مـن عـلى طاولـة الطعـام بشـكلٍ ملحـوظٍ، يُشـعرني بقـوةٍ كأن ارتطـم رأسي بحافـة الطاولـة- انتبهـت وتناولـت علبـة سـجائري والولاعـة وسلسـلة المفاتيـح بحركـةٍ سريعـةٍ وركضـت وراءهـا إلى بـاب الخـروج.

***

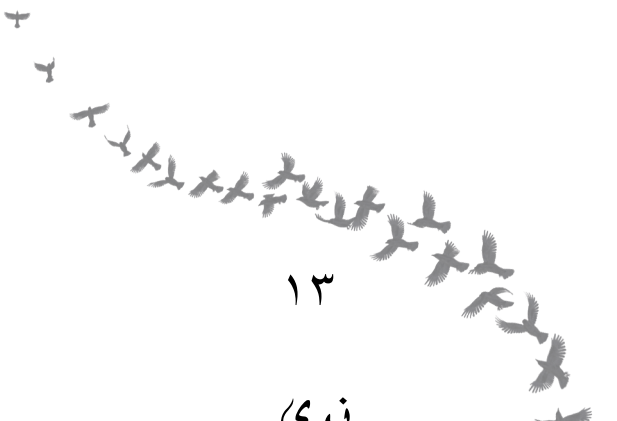

١٣

ندى

غياب فريد المفاجئ والمطول أربكني كثيرًا.. شردت فيما وراء عذره الكاذب.. فأنا أعرفه جيدًا.. متى يتلعثم ويبتلع كذبه عندما يُحاكيني في أمرٍ ما يود فرضه على إقناعي به.. فريد يُخفي شيئًا أكبر من تأجيل سفره لإنهاء عمله هناك.

مرَّت أيامٌ وتبعتها رفيقاتها من الروتين اليومي.. مع البنات والبيت وليلٍ أقضيه حتى الصباح في حوارٍ على النت مع رفيقات الوحدة ونشوتي الغالية "نوشا" التي كدتُ ألا أحتسب يومًا من عمري يمر دون أن أطمئن عليها وأطمئنها عليَّ.. سواء على النت أو الرسائل بيننا وقد احترمتُ جدًّا عدم رغبتها في اتصالاتٍ صوتيةٍ بيننا

لأمـورٍ خاصـة بهـا وحدهـا كـما لمَّحَـتْ سـابقًا وصرَّحـت بالفعـل بهـا للجميـع.. فلـم يكـن يعنينـي إلا أن أجدهـا وقتـما احتجتهـا.. أصبحـتْ لي الأم والصديـق.. نعـم الصديـق وليسـت الصديقـة، الصديـق الـذي قـد أحتـاج لمشـورته يومًـا كرجـلٍ لا كامـرأةٍ وهنـاك فـرقٌ بـين الاثنـين لا يدركـه سـواي.. أعـادت إليَّ مـرةً أخـرى ذكريـات "عهـد" وهمسـاتنا التـي كانـت تُرضينـي وتُعوضنـي عـما افتقدتـه في حيـاتي وصبـاي مـع والـديَّ بالخليـج مـن التعـارف أو الزمالـة أو حتـى القرابـة لذكـور، اسـتمرَّ معـي وبشـدة أكـبر بعـد زواجـي.. حتـى إني تخيَّلـت لـو أننـي اضطـررتُ للتعامـل بالدراسـة أو العمـل يومًـا مـا- "كحلـم أوشـك أن يصبـح سرابًـا لي"- مـع رجـالٍ.. فسـيكون الوضـعُ لا يختلـفُ كثـيرًا عـن طائـر صغـيرٍ اقتطـع مـن حضـن أمـه وأُلقـي ببحـيرةٍ عميقـةٍ يقـاومُ الميـاه فقـط ليسـبح.. فينظر الـكل إليـه إمـا ضاحـكًا سـاخرًا لضآلتـه وسـط البحـيرة أو متعاطفًـا لسـذاجته وقلـة خبرتـه بالسـباحة في بحـيرةٍ،، فـما بالـك لـو أُلقـيَ بالبحـر!!

مـع نوشـا نتصـارح بـكل شيء حتـى إنهـا أرسـلت لي يومًـا كتابـاتٍ شـعريةً لهـا بشـكل خواطـر منظومـة راقتنـي جـدًّا، ليـس لروعتهـا ولكـن ربمـا لأنهـا صاغـت لي مـا يجعلهـا بجـواري بعـد أن تتركنـي خلـف أبـواب الشاشـة الجهنميـة

التـي جمعتنـا عـبر قـارات.. طلبـتْ منِّـي أن أكتـب لهـا.. لنفـسي ولا أخـشى أحـدًا؛ فلـن يقـرأ مـا بيننـا ثالـثٌ.

تشـجعتُ جـدًّا وبـدا لي الأمـر متنفسًـا خفيًّـا بعيـدًا عـن أعـين رفيقـات الجـروب وفريـد وبنـاتي بـل أحيانًـا كنـت أتقلـص مـن نفـسي ذاتهـا وأكتـبُ لنفـسي التـي أتـوق إليهـا في عالمهـا المجهـول.. أشرد معهـا وأعـود بـين السـطور لأجـدني قليلـة الحيلـة إلا مـن الإنصـات لهـا "مـا بـين نفـسي ونفـسي كـدت أن أجـن" لـولا وجـود نشـوى وتبادلنـا الخواطـر بشـكلٍ شِـبه يومـي.. في حـيرتي بـين اضطـراري لاسـتمرار حيـاتي مـع مـن تأكـدت أنـه أيضًـا مضطـرٌ للحيـاة معـي.

- وإنتـي يـا نـدى هاتسـيبيه كـده يعمـل الـلي عـاوزه وتقـولي قلبـي مـش متطمـن؟
- وإيـه الـلي بإيـدي أعملـه طيـب؟ أي واحـدة مـكاني مـش هايكـون لهـا حجـة تقنـع النـاس ولا تقنـع جوزهـا نفسـه بالـلي بفكـر فيـه.. دلينـي إنتـي!
- بإيـدك يـا بنتـي كل حاجـة.. اتحـرري مـن نفسـك الـلي قهرتـك دي.. اتحـرري منـه هـو كـمان.. اخرجـي بـره قوقعتـك دي.. شـوفي حياتـك وكمـلي دراسـتك وإنـسي النـاس وكلام النـاس الـلي هايموِّتـك مـن التفكـير ده.. بتقـولي أي حـدّ مكانـك.. أي حـدَ يـا نـدى مـش آني.

ـ أتطلق يعني؟ تاني يا نوشا؟

ـ لأ، خليكي كده جارية عنده يروح ويجي يرمي لك شوية فلوس وهدايا يضحك بيهم عليك. واقعدي اخدميه هو وبناته وإنسي نفسك بقى.. لحدّ ما تموتي من التفكير والقهر ولا حدّ هاينفعك.

ـ بناته إيه بس؟ بناتي أنا.. دول أهم حاجة في الدنيا عندي ومش ممكن هاسيبهم له أبدًا.. ده هما اللي معيشنِّي أصلًا.. وبعدين معنديش أسباب واضحة ولا حتى ترغمني أنا على طلب الطلاق.. يعني أنا لا عاوزه أتجوز ولا عاوزه أبقى مطلقة تاني.. أنا تايهة، تايهة يا نشوى.

ـ خلاص.. خديهم منه ونفقتهم ونفقتك كمان.. وشوفي نفسك بقى عاوزه إيه وهاترتاحي فين وإزاي ومع مين.

على الرغم من عدم وجود أسباب مباشرة تقنع أي مخلوق بطلاقي من فريد.. أو مقنعة بمعنى أصح من وجهة نظر الناس، إلا أني بالفعل لم أعد أرغب في استمرار علاقتي الزوجية به.. لم أعد أرغب في استكمال المسرحية التي أقنع نفسي بها لاستمرار دور

البطولـة في حيـاةٍ أنـا عـلى الهامـش فيهـا لا أكـثر كأني داخـل فيلـم مـن إنتاجـه وإخراجـه وبطولتـه أيضًـا..

قطـع حديثنـا اتصـالٌ هاتفـي.. وكانـت المتحدثـة عمتـي والـدة فريـد..

- كـده يـا ندى..عمتـك مـا بتوحشـكيش يـا وحشـه إنتـي؟ مـش تسـألي عليًـا ولـو كل سـنة مـرة عـلى رأي سـيد درويـش؟

- واللـهِ يـا عمتـي اليـوم بيخلـص مـا أعرفـش إزاي متعفرت، مـا بـين مذاكـرة البنـات وشـغل البيـت.. وعـلى مـا بـروَّق بيكـون الليـل هجـم خـلاص لا بقـدر أروح ولا آجـي.. مـا إنتـي عارفـاني بقـى لخمـة ولا حتـى أعـرف أمـشي في الزحمـة بالعربيـة الـلي مـن يـوم ماعلمنـي عليهـا فريـد مـا سـوقتهاش إلا كام مـرة ومعـاه، أنـا مـا بخرجـش إلا مـع فريـد مـا إنتـي عارفـه بقـى.

- آه يـا حبيبتـي طـول عمـرك مـن بيتكـم لبيـت جـوزك اسـم اللـه عليـكي سـت العاقلـين ومـش زي بنـات الأيـام دي... آه صحيـح إسـكووتي شـفتي فريـد قابـل مـين في النمسـا؟

- مين؟! لأ ما أعرفش؟

ـ ليلى.. بنت مرزوق صاحب البيت اللي كنا فيه في أسوان من ييجي ٢٥ سنة كده.. كنتِ إنتي يا دوب بتعرفي تمشي هههههههه.

ـ آه فريد كان حكالي على أسوان وأصحابه هناك.. مش دي جارتكم اللي..

قاطعتنى عمتي بضحكةٍ عاليةٍ وبنبرةٍ ساخرةٍ:

ـ هو قالك؟!.. شوفي الواد بيقول لمراته على حبه الأولاني هههههههه كان بيموت فيها وهو عيِّل لسَّه شنبه ما خطِّش في وشُّه.

ـ آه آه حكالي فعلًا.. كان نفسه يتجوزها وقتها بيقولي.

بالطبع فبركت الجملة الأخيرة بسرعة لتشجيع عمتي على الاستمرار في الحوار دون مقصِّ الرقيب.. فما يُقال لبنت خاله.. لا يُقال لزوجته إلا إذا كانت تعرف منه شخصيًّا.

ـ قال إيه اتجوزت وعاشت هناك ولمَّا جوزها مات حتى ما رجعتش مصر.. هاترجع لمين يا ولداه أبوها وأمها ماتوا وهي ما خلّفتش يعني لا عيل ولا تيل.. يبقى خليها هناك أحسن واهي لسَّه حلوة وشغلتها هناك مريحاها زي ما فريد قال لي.

كان هـذا الحديـث كافيًـا لأن يجعلنـي لا أنـام الليـل ولا أركـز بـأي شيء أمامـي سـوى التفكـير فيـما وراء الحديـث.. ولِـمَ أخـبر أمـه بـكل تلـك التفاصيـل أثنـاء اتصالـه خـلال الأيام التـي سـافر بهـا ومـا تحويـه مـن معلومـاتٍ وربمـا حكايـاتٍ أيضًـا، بينـما اتصالـه بي لا يزيـد عـلى دقائـق الاطمئنـان عـلى البنـات والبيـت وعـليَّ ودمتـم؟

لمـاذا كل تلـك التفاصيـل عنـد عمتـي ولَـم يلمـح حتـى لي أنـه قابـل أحـدًا يعرفـه مـن مـصر هنـاك صدفـةً؟

أرملـة.. حلـوة.. لهـا عملهـا هنـاك.. لا "عيِّـل ولاتيِّـل".. وكانـت حبـه الأول، وأمنيتـه في الـزواج بهـا ربمـا اسـتيقظت مـن جديـدٍ؟ أو ربمـا الصدفـة لعبـت لعبتهـا مـع إنعـاش عواطفـه مـرةً أخـرى بعـد سـنواتٍ وسـنواتٍ!! ربما وربما ويجوز و...

دوامـة مـن التفكـير اسـتمرَّت حتـى جـاء موعـد وصولـه إلى القاهـرة.

***

اتصـل فريـد بنـا وأعلمنـي بموعـد وصولـه وعـما إذا كنـتُ أريـد أي شيء مـن الهدايـا قبـل مغادرتـه النمسـا لي أو للبنات.. لم يكـن اتصالـه بنـا سـوى شيء روتينـي، ولكـن هـذه المـرة

كان مختلفًا؛ فقد لاحظتُ بهجة صوته وانتعاشة تعبيراته على غير عهده من وقت ما تركنا وسافر وخلال مكالماته الماضية.. بدأ الشك يتمكن منِّي بالفعل في علاقته بحبه القديم الذي وجده بالنمسا.. ترى هل لقاؤه بـ "ليلى" تكرَّر كثيرًا؟ وفيم تحدَّثا؟ وإلى أي مدى أخذ حوارهما مجراه؟

هل تواعدا على الزواج؟ هل تزوجها بالفعل؟! ولِمَ لا بعدما روت لي عمتي عنها وما ربطتُه أنا بغيابه وأسلوبه في الاطمئنان علينا كل بضعة أيام وبشكلٍ باردٍ وروتيني وهو من كان لا يتحمل بعدنا عنه أيامًا قليلةً، وكيف الآن كاد أن ينسانا وخلال أيام قاربت الشهرين؟

عاد فريد

عاد بمظهرٍ مختلفٍ.. بدا أخف روحًا وأصغر سنًا وأكثر تألقًا وتأنقًا.. أمطرني بالهدايا والعطور.. صار يُجاملني ويُدللني بشكلٍ مُفرطٍ أثار شكوكي بل وأكَّدها.. تذكرتُ إحدى جمل "شذا" في جلسة سمر لنا في يوم.. "وأول ما تلاقى الوش بيضحك والبسمة من الودن للودن والورد عِرِف طريق بيتكم اجرري على جيوبه وقلّبيها وعلى موبايله وفتشيه وعلى جهاز الكمبيوتر بتاعه وفصصيه..

ساعتها هاتعرفي إن البيه بقى رومانسي معاكي تفريغ شحنة من مؤثر غيرك يا فالحة منك لها..".

لا أعلم لمَ رنَّت بأذنيَّ تلك العبارةُ بالذات.. ربما هي ربطٌ بين ما علمته وبين ما شعرتُ به الآن؟ أو ربما لأن بالفعل فضولي يدفعني بشدةٍ إلى أن أعرف منه ما الذي حدث في النمسا ولِمَ لَم يُخبرني كما أخبر أمه بوجود ليلى معه هناك صدفة إذا كان الأمر عاديًا؟ ما دام أخفى عنِّي بالذات ولم يخفِ عن أمه إذن بالأمر عِلة.. وإن سألته قطعًا سيكذب عليَّ.

تملك منِّي الشك وساورني القلقُ فبدأت أنتبه لمكالماته الهاتفية طوال مكوثه بالبيت لعلّي أجد ضالتي في نفي أو تأكيد ظنوني.. حتى جاءت اللحظة التي أمسكتُ فيها بجهازه المحمول على غفلةٍ منه أثناء تناوله فنجان قهوته التركية المحبب له والذي لم يفصله عن حالة عشقه له أثناء ارتشاف قطراته سوى أن رآني أمسك به.. حتى انتفض مُختطفًا إياه من يدي بشكلٍ سريعٍ مما جعل يدي تؤلمني من قوة مسكتهِ له..

- إيه ده؟ مالك يا فريد؟ بتعمل ليه كده؟

- إيه يا ندى.. في إيه؟ افتكرت إني لازم أعمل مكالمة حالًاااا لواحد صاحبي كنت ناسيها خاااالص..

ـ - بالشكل ده؟

ـ - طيب وإنتي عاوزة موبايلي في إيه؟

ـ - ولا حاجة، كنت هاتفرج على صور الرحلة بتاعتك.. إنت ما فرجتنيش عليها مش أكتر.

تغيَّر فريد..

صار يُغلق مكتبه عليه لساعاتٍ حتى إنه معظم الوقت ينام به أيضًا.. حتى إن فراشنا صار باردًا أكثر من سابقه.. ربما كانت البرودة تأتي سابقًا من عدم إحساسي بدفئه بينما هو كان يشتعل دفئًا بي.. الآن نال صقيعُ الهجر الداخلي لكلينا من روحينا أيضًا.. حتى تلامُسنا لم يتعدَ ارتطام قارورتين فارغتين تُحدثان صوتًا ورنينًا مسموعًا، ولكن لا معنى ولا طعم له..

لم أعهده بالفراش هكذا.. كانت رغبته بي دائمًا أراها بعينيْه قبل أن يُفضي بها إليَّ.. أيقنتُ أني لم أعد أُشبع حاجته لي إلا لكوني كما كنتُ أشعرُ دائمًا وكنتُ أعاتبُ نفسي وألومها على ظلمي له.. أنا فقط مجرد كائنٍ من كائنات ذلك الكيان الذي يحوينا معًا.. ركن من أركان المنزل.. واجهته الاجتماعية لتكتمل لا بد من وجودي.

كان لا بد من زلزالٍ يُحركني وبشدةٍ، زلزالٍ يهز أركان حياتي الغريبة التي أحياها.. ووقفة لتعديل مسار حياتنا..

أو بمعنى أصح لانفصالي عنه بشكلٍ واضحٍ ومعلومٍ للجميع.. شكل أنا من أحدده يكون هو أول اختيارٍ لي في حياتي.. وما أوجع أن يكون أول اختيار للبناء.. هدمًا.

***

صارحتُ توءم روحي "نشوى" بكل التغيرات الحاصلة بيننا منذ عودته من السفر؛ من تصرفاتٍ واضحةٍ وأحاسيس خاصة.. قلتُ لها إني أود الانفصال عنه.. لم أعد أتقبل وجوده بحياتي لا هو ولا أي رجل غيره.

- شوفي يا ندى..إنتي فعلًا كده بتظلمي نفسك وبتظلميه بشكك ده.. اتأكدي الأول وبعدين شوفي تنفصلوا ولا لأ.. بس إووووعي تيجي منك إنتي.

- مش فاهمة إزاي يعني؟ عاوزاني أعيش معاه وأنا حاسة إنه بيخونِّي يا نشوى؟ وما أقولهالوش؟

- ومنين عرفتي إنه بيخونك؟ عندك دليل؟

- إحساسي عمره ما خانّي ولا كدبته.. وأنا إحساسي بيقولّي إنه في واحدة ست في حياته.. كمان حطي على إحساسي ده ظروف سفره وغيبته وتغيره الملحوظ ده.. والمكالمات اللي ليل نهار شغالة والهمس ووووو.

ـ طيب طيب، بس إهدي كده واعرفي هاتعملي إيه الأول.. وأنا هاقولك تعملي إيه.

ـ هاقوله طبعًا في وشه ومش هاخاف كمان.

ـ لأ مش هاينفع من غير دليل.. بصي يا ستي إنتي تديله الأمان خاااالص.. سيبيله الحبل عالغارب.. خلليه يعرف إنك مش مركزة معاه خالص.. فووووتي له وكأنك عبيطة مش فاهمة.. سيبى له الحبل لما يلف حواليه ويكتّفه كمان.. ساعتها هايبقى جالك متكتف.. اتشرطي إنتي بقى عشان تفكيه.

ـ يااااه يا نوشا ده إنتي مشكلة هههههههه جبتيها إزاي دي؟

ـ أنا عشان بحبك وحاسه بيكي وصعبان عليَّ شبابك وجمالك وروحك الحلوة دي تتحبس وتتدفن بالشكل ده عاوزة أساعدك عشان تطلقيها وترفرفي كمان.

ـ ربنا يخليكي لي يا حبيبتي مش عارفة من غيرك كنت هاعمل إيه.

بالفعل نفذت خطة نشوى كاملة إلى أن وقع تحت يدي الموبايل أثناء نومه.. فتحته وشاهدت صورًا لها ومعه.. لم تكن أجمل منِّي ولا هي بالقبيحة.. حلوة مقبولة.. أو هكذا رأيتها عاديةً ولكن لن أخدع نفسي بها

جاذبيةٌ ما تشد من يراها ولو بالصورة.. لا يبدو عليها سنواتُ عمرها.. تصفحتُ أيضًا رسائل يوميةً بينه وبين ليلى تنبضُ حبًّا وهمسًا وغرامًا وعباراتٍ لا مفهوم لها ولا تفسير إلا أنها جزءٌ من علاقةٍ حميمةٍ بين حبيبيْن إن لم يكونا زوجيْن بالفعل..

اشتطتُ غضبًا، أحسستُ بمشاعر الغضب والحنق، إحساس أن حقًّا لي يُغتصَب وأراه بعيني وأقف متفرجةً بلهاء لا حيلة لي إلا الصمت والبكاء وبداخلي بركانُ حمم وغضب سببه تراكم بداخلي مِن كل رجل.. كان أبي بطيبته المعهودة وتَماثُله لرأي أمي المُتسلطة ورضوخي للزواج مرتين بمن اختاروه لي.. وجدي بغبائه.. فريد بخيانته.. ومع ذلك ظننتُ للحظةٍ أنها غيرة، ولكنها غيرة الأنثى على أنوثتها وليست على رجلها، ولكني تراجعتُ فورًا عن أن أضعف لإحساسي بأن هناك امرأةً تأخذ منِّي حقًّا لي وإن كنت أهملته.. لكن أنا أهمله ولا أقبل أن يهملني هو.. أنا أرفضه ولكن لا أقبل أن يُفضِّل عليَّ امرأةً عمرها ضعفُ عمري.

غرورٌ أصابني فجأةً أم كبرياء أم غضبٌ، لا أعلم إلا أنه في النهاية كل تلك المبررات والمسميات السبب فيها هو رغبتي في الخلاص من ذاك القيد الذي يربطني به.

كان لا بد من المواجهة وقطع الشك باليقين.. باءت كل محاولاتي تجاه التصنع باللامعرفة بالفشل، كانت عيني تفضحني وتصرفاتي وانتباهي لكل تحركاته لافتة أيضًا، حتى جاء مساء يوم بعد أن أنهينا عشاءنا مع البنات وناداني فريد أن أنتهي من الاطمئنان على البنات وألحق به في أمر مهم. أغلقتُ باب غرفتنا وارتديتُ قميص نوم مفضلًا له وتعطَّرت من أحدث قارورة عطر أتى لي بها بعد عودته هذه المرة.. وأخفضتُ نور الأباجورة بجوار السرير وتعمدت أن يستشعر ابتسامتي دون أن يراها.. وهو من أخبرني بكيفية رؤيته لي دون حاجةٍ لإضاءة، وهو من تعوَّد أن يكيل لي الاتهامات بأني عابسةٌ لا أبتسم برغم ضآلة الإضاءة بالغرفة وكنت أتساءل كيف عرفت؟ فيُجيبني أن خطوتي وأنفاسي تلقي على قلبه حالتي بل وشكل ملامحي أثناء قربه منِّي ولا حاجة لضوء ليراني به..

عمدتُ إلى النوم.. فما كان إلا أن اقتربَ منِّي يُريدني.. لم يكن رد فعلي إيجابيًّا ولكني تصنعت ابتسامةً مبالغًا فيها، وقلتُ:

ـ ما افتكرش إني وحشتك أوي كده يا فريد.

ـ إنتي وحشتيني أوي يا ندى.. ليه بتقولي كده؟!

ـ يعنـي... إنـت عريـس جديـد.. هاوحشـك إزاي وإنـت بقالـك حضـن تـاني غـيري!لا أعلـم كيـف تسرَّبـت الكلـماتُ بهـذا النسـق مـن فمـي ومـا كان وقعهـا عليـه إلا أكـثر تعجُّبًـا.

ـ إيـه الـلي بتقوليـه ده يـا نـدى؟ عريـس إيـه وحضـن إيـه؟ إنتـي جرالـك حاجة؟

في هـذه اللحظـة سـاعدني القـدر وكأنهـا خطـة رسـمتُها معـه لتنفَّـذ في التـو واللحظـة.. رنَّ هاتفـه المحمـول وكان قـد أغلـق رنينـه ليحـدثَ فقـط اهتـزازةً حـال تلقـي اتصـال عليه.. انقضضـت عـلى المحمـول.. وفتحـتُ الإسـبيكر (السـماعة الخارجيـة).. ونظـرتُ إليـه بحـدةٍ مشـاورة لـه أن يـرد.. وبمجرد أن ظهـر همـس المتصـل صـارت الحقيقـة جليـةً أمامنـا:

ـ "ألـو.. فـري.. إنـت نمـت، وحشـتني أوي يـا حبيبـي". لم يتمكن فريد من التفوه بلفظٍ، ولا حتى "آلو".

انتفضـتُ مـن سريـري وأضـأتُ النـور بالغرفـة، وأمسـكتُ بالمحمـول وأعـدتُ رقـم المتصـل.. وسـارعتُ بالـكلام.

ـ ألـو.. ليـلى.. أنـا نـدى مـرات فريـد.. مـبروك جوازكـم يـا عروسـة.. بـس لـو إنتـي قبلتـي تاخديـه مـن مراتـه وبناتـه أنـا مـش هاقبـل أعيـش معـاه وهـو متجـوزك. وألقيـتُ بالمحمـول في صـدره فقـد كان جالسًـا صامتًـا

في وضع الدهشة لم يرمش ولم يبرر موقفه ولم يتكلم إطلاقًا.. كل ما فعله أن أخفض رأسه في وضع المنهزم أو المقهور أو المتفاجئ.. لم أرَه في هذا الشكل أو الانكسار أمامي من قبل.. ربما كان حسرة انكشاف حيلته أمامي أو اتضاح كذبه ولكنها أبدًا لم تكن لحظة ندم.. ففريد يُحبها وإلا لِمَ تزوجها برغم كل الفوارق بينهما؟

انتقلتُ للنوم، للإقامة بغرفة البنات وطلبت منه الانفصال بأسرع وقت.. أصبحتُ عصبيةً لأتفه الأسباب.. عالية الصوت حادة النبرة . تطوَّر الوضع بيننا وازداد سوءًا ورفض فريد تمامًا الطلاق خشيةً على بنتيْه من أن ننفصل وأتزوج أنا فتضيع البنتان بيني وبينه، أو ربما تزوجتُ أنا على حدِّ قوله فأجلب لهما زوج أم وهو ما لن يرضاه إطلاقًا لبنتيْه كما لن أرضى أنا بأن تعيشا معه بعيدًا عني مع زوجة أب حال رضيَتْ هي أيضًا بذلك.. إذن فالأمرُ لا اختيار فيه.. أنا لا أريده وهو يريدنا.. فلأبقى أنا ببيتي وببنتيَّ ويرحل هو.

اتفقنا في النهاية على أن يترك أحدنا البيت حتى نقرر الأمرَ بيننا ومع أنني قد حسمتُ الأمر بيني وبينه إلا أنه أصرَّ على أن نأخذ وقتًا للتفكير ما دمت غير متقبلةٍ أعذاره أو ما قام بفعله من الأساس.. وبديهي أن يخرج

هـو مـن البيـت؛ فأنـا لا أهـل لي سـوى عمتـي وهـي أمـه، الأولى يذهـب هـو لهـا.. ولكـن قـراره كان أقـوى مـن تفكيري.. قـال إني مـا دمـتُ مُـصرةً ولا أريـد الاقتنـاع فسـيذهب هـو مـن حيـث أتى؛ فهنـاك مَـن تنتظـره وتتلهـف للقـاه لا مـن تطـرده مـن حياتهـا وبيتـه.

سـافر فريـد مـرةً أخـرى.. عـاد لعروسـه وحبـه الأول ليـلى، وبقيـت أنـا لبنتـيَّ فقـد اخترنـا أن ننفصـل مكانًـا كـما انفصلنـا روحًـا منـذ سـنواتٍ.. فأصبحـتُ لا متزوجـة ولا مطلقـة.. وقـد أراحنـي الوضـعُ قـدر مـا أرهقنـي.. صـارتْ مسـاحة الفـراغ لـديَّ أكـبر بكثيـرٍ.. فـراغ كنـتُ أتمنـاه فراغًـا مـن تفكـيري بـه وبحيـاتي المُبهمـة معـه والتـي لم أشـعر باسـتمتاعي بهـا كزوجةٍ مـرة عـلى الأقـل برغـم عـدم كرهـي لـه إلا أننـي لم أشـعر بقـوةٍ تجذبنـي إليـه، لا أعلـم كيـف مـرَّت تلـك السـنوات ومـا زلـتُ أحيـا بـلا مشـاعر رفـض أو قبـول.. ربمـا كانـت تحديـدًا هـي مشـاعر استسـلامٍ مـن امـرأةٍ هشـةٍ مـن داخلهـا لا تقـوى عـلى اتخـاذ قـرارات ولا حتـى الخاصـة بحياتهـا.

ولأول مـرةٍ استشـعرتُ طعـمًا جديـدًا خاصًـا جـدًّا.. طعـم الحريـة وإن كانـت محـددةً جـدًّا ونطاقهـا داخـلي وهـو الأكـبر بالنسـبة لي.. دائمًـا مـا كنـتُ أشـعرُ بروحـي مقيـدةً مكبَّلـةً ولا أعـرفُ قيودهـا أيـن وكيـف التخلـص منهـا، قيـود بـدأت مـع بدايـة مرحلـة المراهقـة لي ودخـولي مـن بوابـةٍ غامضـةٍ إلى

عـالم الأنوثـة.. عـالم كنـتُ أجهلـه بـكل آلامـه ومباهجـه.. لم يكـن بـه مـن يُرشـدني أو يتعايـش معـي سـوى "عهـد" ومـا كان تأثيرهـا عـليَّ وقتهـا سـلبيًّا قـدر مـا أصبـح الآن.. وتزامـن احتـدام القيـد مـع زواجـي.. وإنجـابي برغـم حبـي لبنتـيَّ إلا أني كنـتُ أحيـا وكأني بـسرابٍ أو حلـمٍ لا ينتهـي.. ربمـا كان هـذا الإحسـاسُ سـبب فشـل زواجـي الأول وعـدم إنجـابي بسـبب فتـور العلاقـة بينـى وبينـه.. وهـو نفـس السـبب الـذي كان يُناجينـي همسًـا وسرًّا ويدعـوني للطـلاق الثـاني برغـم تخطـي مرحلـة الإنجـاب ووجـود ابنتـيَّ بحيـاتي.

***

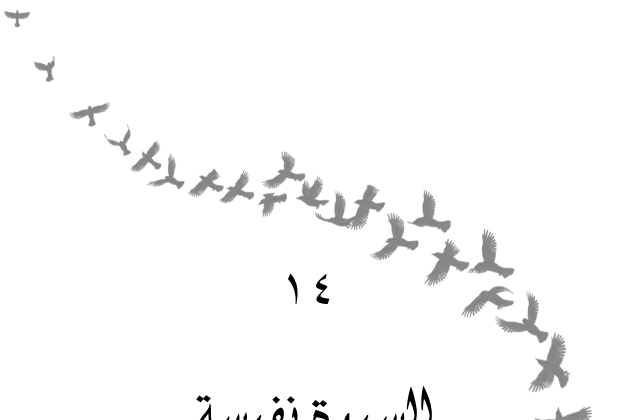

١٤

السيرة نفيسة

لم أجـد في تلـك الأوقـات ملجـأ ولا مـلاذًا إلا "نشـوى"، لم يكـن قريبًـا منِّـي سـواها وقتـما احتجتهـا وجدتُهـا تسـعى إليَّ قبـل أن أبحـثَ عنهـا.. وصفـتُ لهـا مـا بي مـن مشـاعر مضطربـةٍ وإن كانـت تلـك المشـاعر ليسـت بجديـدةٍ، لكنهـا ازدادتْ حـال شـعوري بـأن أول طريـق اختيـاري بـدأ.. أول بدايـة إعـلان الرفـض لواقعـي بـدأ.. بكيـتُ وأنـا أكتـبُ لهـا وتمنيـتُ أن ألقـي بنفـسي في حضنهـا.. سـامحك اللـه يـا أمـي.. لم تُشـعريني يومًـا بـدفء حضنـك بـل كنـتِ القـاضي والجـلاد معًـا.. لم أشـعر بحاجتـي لحضـنٍ يحتوينـي ويُلملـم أجـزائي المبعـثرةَ قـدر احتياجـي اليـوم.. شـعرتُ بهشاشـة روحـي وانكسـاري الداخـلي كـما لم أشـعر بـه بنفـس القـوة مـن قبـل.

- عاوزاكي تهدي بس كده يا ندى.. اللي كنتي حاسبة حسابه اتأكدتي منه أهو.. احمدي ربنا بقى إنه جه وقت للخلاص من الحالة اللي إنتي كنتي فيها دي.

- لأ يا نشوى مش بالطريقة دي.. أنا عمري ما بُحت له إني مش عاوزاه ولا قصَّرت معاه في حياتنا سوا، ولا عمري فكرت إن في حدّ ممكن يكون مكانه أبو ولادي.. يقوم هو يرميني أول مايلاقي واحدة زي دي؟

- ما لها دي يعني يا ندى؟ مش قلتي لي إنها كانت جارته وبيحبها من زمان؟

وكمان أرملة وغنية؟ يعني مش طمعانة فيه.. ده يمكن هو اللي طمعان فيها.. إنتي بس مش مصدقة إنك يحصل معاكي إنتي ده.. عشان طول عمرك مستخسرة نفسك فيه.

- لأ يا نشوى، أنا ما قولتش مستخسرة نفسي فيه.. أنا قلت لك إن في حاجة مفقودة بينا.. هو طول عمره معايا كويس وأنا ما قصَّرتش معاه.. لكن دايمًا كنت بحسّ إن علاقتنا مش كاملة.. فيها حاجة مش فاهماها مش مخليني أحسّ طعمها، مجرد شيء اتعودت عليه وخلاص، لكن تيجي واحدة أكبر مني ومنه كمااان.. وتلف عليه وتخليني أنا رقم اتنين

في حياتـه!! لأ ده مـش هرضـاه أبـدًا.. هـي كـمان مـش قليلـة ولا وحشـه يبقـى ليـه بقـى؟ ليـه تسـيب الرجالـة كلهـا وتاخـد فريـد مـن بناتـه الـلي أنـا راضيـة بعيشـتنا عشـانهم أصـلًا؟

ـ هاقولك أنا يا ندى..تعرفي الفراشات؟

شـوفتي ألوانهـا حلـوة إزاي.. ولمَّـا بنوصـف حـدّ بالفراشـة يبقـى بنقصـد بيهـا إنـه حـدّ جميـل وخفيـف عـلى الـكل والمـكان الـلي فيـه.. حـدّ بيخطـف النظـر ويمكـن العقـل كـمان، صـح؟

ـ صح..

ـ تعرفي بقى.. إن ليلى دي زي الفراشة؟

ـ مش فاهماكي يا نشوى، إنتي بتمدحي فيها ليه؟

ـ لأ مش بالظبط هافهمك قصدي أهو.

إنتـي عارفـة إن دراسـتي وعشـقي للنباتـات مـن أيـام الكليـة والدراسـة ولحـد الآن كـمان.. أهـي الفراشـات دي عـلى أدّ مـا كلنـا شـايفينها حلـوة ورقيقـة إلا أنهـا بتـضر الـزرع.. تخيـلي بقـى؟

ليـلى دي زي الفراشـة الجميلـة بالنسـبة لفريـد.. هايفـرح بلفهـا وتحليقهـا حواليـه.. هايتعايـق بيهـا وتـسرّ عينـه

وتشبع حواسه كمان.. في الوقت نفسه هاتئذي زرعته.. اللي هي إنتوا وهو مش عارف ده.. في نوع من الفراشات كده لما بتقف على زرعة أو حتى نخلة معينة.. شكلها بيبقى حلو والناس تتفاءل بيها.. تاني يوم ما تشوفيش إلا الزرعة محروقة ودبلانة.

سيبيه يا ندى.. سيبيه يفرح بفراشته كام يوم.. وهايجيلك تاني.

- يجيلي! بعد ما اتحرقت زرعته يا نشوى؟

- أه.. وازرعي غيرها إنتي بقى.. هههههه.

- إنتى بتتريقي عليَّا، وأنا اللي بعيّط من جوّايا؟

- لأ يا حبيبتي أبدًا.. أنا بسّ عاوزاكي إنتي كمان تحلّقي وتطيري وتنسي الهمّ ده شوية.. كأنك لسّه ما اتجوزتيش.. جربي كده وأنا جانبك أهو فضفضي معايا في كل اللي إنتي عاوزاه.. مش هاسيبك أبدًا يا روحي.

- ربنا يخليكي لي يا نوشا.. ساعات بحس إني أعرفك من زمان أوي.. ولو كنتي راجل يمكن كنت اتجننت وهربت وجيتلك هههههه.. يمكن تتغير فكرتي عن الرجالة.

ـ أيوه كده.. اضحكي وانسي الهم.. بصّي يا ندى أنا هاقولك على اقتراح حلو أوي.. هاترتاحي لو عملتيه أنا عارفاكِ، روحي زوري السيدة زينب ولَّا سيدنا الحسين ولَّا أي حدّ من الأولياء اللي موجودين في مصر جانبك يمكن ترتاحي شوية لما تصلي وتدعي هناك باللي في نِفسِك، يا ريتني جانبك في مصر دلوقتي.. ما كنتش سيبتك أبدًا.

استمررتُ على هذا الحال لفترةٍ.. ولم تكن حالتي النفسية السيئة بالجديدة عليَّ، فقد اعتدت على اضطراب ما بداخلي ولم أعرف لي منه مخرَجًا، لا سيما تلك الأيام التي عقبت انفصالنا أنا وفريد وبلا أوراقٍ.. وما ترتب عليه في أن تصبح حياتي مجرد حياةٍ بدون رجلٍ في بيت الزوجية السابق هو محض اتهام.. بمعنى أنه لا بد لي ألا أكون بمفردي بلا زوج أو أخ أو ابن، المهم أن أكون تحت مظلة اسم مُذَكَّر والسلام، هكذا هو مجتمعنا الشرقي لا يثق في امرأةٍ تحمي نفسها، لا بد من ذَكَرٍ يكون هو ظِلها ويحميها، وهل يحمي إنسان أحدًا غير نفسه؟ هل سيكون أمينًا عليها أكثر من نفسها؟ أم أنها مسألة اعتياد وأصبحت واقعًا لا بد منه؟ خاصة أني في عُرفِهم أصبحتُ كالمُعلقة كما يقولون.. لا متزوجة ولا مطلقة.

حرصتُ ألا يصل ما بيني وبين فريد من شقاقٍ إلى أهلنا.. على أن يُعرفَ في أضيق الحدود من قِبَل أمه وأمي وأبي.. حتى بنتيَّ صار الأمرُ بالنسبة لهما.. هو اضطرار أبيهما للعمل بالخارج معظم السنة، والاتصال شِبه اليومي بهما كان يكفيهما لرد أي هاجسٍ عن انفصالنا من مخيلتهما الصغيرة التي لا تستوعبُ معنى الانفصال في سنهما هذه، فلم يطرأ جديدٌ على ما كان أثناء سفره الأخير.

***

وفي أحدِ الأيام.. وصبيحة أحلام لم تنقطع وأماكن وأناس لم أعرفهم صاروا مرافقيَّ في نومي وأحلامي.. وبعد ذهاب البنات إلى المدرسة.. شعرتُ بمللٍ من جوِّ البيت والنت ففكرتُ أن أخرج خارج أسوار المنزل. توجهت إلى دولابي الذي لم أعد أتذكر ما به من ملابس للخروج أو السهرات.. صرتُ أقلِّب فيه بدون هدفٍ، أطالع فساتيني والتي لم أعد أتذكر ألوانها أو موديلاتها.. لم أكن أعلمُ وقت تجهيزي لها قبل زفافي بأيامٍ أن مصيرها سيكون ما صارت عليه.. وبرغم كثرتها إلا أن قطعةً واحدةً شدَّت انتباهي، بل أعادتني إلى أيامٍ أحببتُ ذكراها.. عباءة سوداء كنتُ قد احتفظت بها من أيام زواجي الأول.. ليست كذكرى

بالطبع ولكن كزيٍّ أعتز به وارتبطت به لفترةٍ ليست بالقليلة.. سنوات الدراسة بالخليج.. وذكرياتها.. وصورة "عهد" التي لم تفارقني.. ويا للدهشة والسعادة.. ما زالت تستوعبُ جسمي حتى بعد أن زاد تلك "الكيلوات" البسيطة من أثر الزواج والإنجاب والمكوث بالمنزل طيلة الوقت.. إلا أني والحمد لله ما زلت أحتفظ بجسد فتاةٍ كأنها لم تتزوج بعد.. ارتديتها ولففت طرحتي الحريرية البيضاء حول شَعري ووجهي وأطلت النظر إلى قسماته..

"اتغيرتي يا ندى.. الحزن والتفكير علِّم على وِشّك.. وشِّك اللي كان الابتسامة ما بتفارقهوش.. إيه اللي حصل لك؟"

لم أطل الحديثَ مع نفسي وسارعتُ في الخروج من هذا الإحساس وهذا البيت بأكمله. وضعتُ نضارتي السوداء الشمسية على عينيَّ.. ونزلتُ إلى الشارع فورًا، توجهتُ صوب الجراج وأدرتُ مفتاح سيارة فريد الرابضة أمام المنزل تفتقد وجوده كإحدى بناته.. «عاوزه تتعلمي السواقة ليه يا ندى؟ أي وقت وأي مكان عاوزه تروحيه قولي لي أنا.

- يا فريد على الأقل أخرج أوصَّل البنات للمدرسة لو الباص ما جاش.. أروح أزور عمتي لما تكون أنت مسافر.. هي السواقة كمان زي الجامعة؟

ربما هي إحدى حسنات فريد أن قضى معي ساعاتٍ ليُعلمني فيها القيادة خلال أوقات فراغه، ولا أنسى يوم استخراج رخصة القيادة بالنسبة لي كأكبر إنجازٍ اجتزته بمفردي وها قد جاء وقتها.

فتحت زجاج النافذة بجواري أتنفسُ نسمات الصباح وإن كانت مشوبة بعوادم السيارات وبعض الأتربة، توجهتُ إلى "مسجد ومقام السيدة نفيسة".. وهو أقرب المساجد إلى قلبي وسكني أيضًا، ومنذ أول لحظةٍ خطوتُ فيها داخل المسجد.. بدأت الطمأنينة تتسللُ إلى نفسي.. شعورٌ غريبٌ انتابني وتملكتني رغبةٌ عظيمةٌ في البكاء.. لم أكن متحفزةً لذلك ولم أفكر فيه مسبقًا، ولكن بمجرد أن دنوت من الضريح بدأت دموعي تنهمرُ غير مباليةٍ بمن جواري أو من يسمعني، صارت دموعي بوحًا بلا صوتٍ.. كلماتٍ بلا حروفٍ.. نبض خاص ينطلقُ من داخلي يعرفُ طريقه إلى أين ولا أعرف أنا إلا أنني مع كل دمعةٍ كنتُ أنفض عن قلبي ثقلًا، استندتُ برأسي على جدار المقام المعدني اللامع ذي الرائحة العنبرية المميزة.. برودة سور المقام كانت مثل الكمادات الباردة على رأسٍ التهمته حرارةُ الحُمى فصارت تهدأ ومعها يهدأ نبضُ القلب، أغفلت عيني إلى أن انطلق الأذان لصلاة الظهر ولا أعرف كم من الوقت مضى فقد غفوتُ ودموعي تنهمرُ براحةٍ عجيبةٍ..

انتظمت الصفوفُ التي لم تتعد الصفين في مصلية النساء ولم أُدرِ بنفسي عقب انتهاء الصلاة إلا وأنا أرفع يديَّ إلى السماء وأنا جالسة مكاني وأقول:

- يا بنت بنت النبي.. يا حبيبة المصطفى اشفعي لي عند جدك يشفع لي عند الحبيب الأعلى.. أنا ضعفت ويئست وكرهت دنيتي.. ساعديني واطلبي لي المساعدة.. يا رب يا رب خد بإيدي وهوِّن عليَّ اللي اخترتهولي.

فإذا بي أجدُ من تحنو عليَّ وتُناولني منديلًا ورقيًّا بابتسامةٍ طيبةٍ وهادئةٍ، قائلةً:

- صلي عالنبي يا بنتي.. ما دام جيتي لحدّ عندها أبشري.. مش هاتخليكي تمشي من غير ما تراضيكي، بصي كده بصي على اللي مكتوب في البرواز اللي على الحيطة ده.. توجهت بنظري صوب ما أشارت إليه.. كان إطارًا خشبيًّا ذهبي اللون يُحيط بأبياتٍ شعريةٍ كُتبت مخصوصًا للسيدة نفيسة رضى الله عنها.. مكتوبًا به:

"ما خاب من زار النفيسة مخلصًا.. إن النجاة لدى كريم لقاها".

كانت سيدة تبدو بمنتصف الخمسين من عمرها تقريبًا.. بيضاء البشرة نحيفة الوجه دقيقة الملامح..

عيناها العسليتان برغم ضيقهما إلا أن لمعتهما وبريقهما كانا لافتين يوحيان بجمال ونقاء سريرة.. وجهٌ مريحٌ ألمَّت به بعض التجاعيد والخطوط الدقيقة على جبهتها وبجوار عينيْها ومما زادها تميزًا، ابتسامتها البسيطة المريحة.. يدها تنفر منها العروقُ، ذات أصابع رشيقة رفيعة محلاة بخواتم تحتوي على أحجارٍ ذات ألوان تجمع بين الأخضر والفيروزي.

ـ إنتي من مصر؟ من القاهرة يعني ولا من ضواحيها؟

ـ أيوه ياحاجَّة أنا من القاهرة.. بس أول مرة أزور المقام.

ـ عشان كده.

قالتها بابتسامةٍ أضاءت وجههَا وجعلتني أبتسمُ بدوري دون أن أعرفَ ماذا تقصد بكلمتها "عشان كده".

ما دام قصدتي بيت حبايب المصطفى اطمني خالص هاترتاحي ويتطمن قلبك ويقر عينك إن شاء الله باللي نفسك فيه.

ـ أنا نفسي بس ربنا يهدي لي نفسي وأبقى مطمنة زي ما بتقولي كده..

ـ وإنتي إيه اللي قالقك يا ست البنات؟

- هههههه ست البنات الله يجبر خاطرك يا رب. أنا متجوزة وعندي بنتين.

- وما له ربنا يخلي، بردوا ست البنات.. إنتي مش عارفة إن البني آدم مننا روحه بتطغى عليه وعلى ملامحه؟ وإنتي باين روحك طيبة ونفسك راضية.

- إزاي بس ده أنا حاسّه إني كبرت عشرين سنة على عمري.. اللي شُفته في سني الصغير ده أكبر من أي واحدة في سني.. الكل بيحسدني على اللي أنا فيه.. وأنا بس اللي مش مستمتعة به ولا حسَّاه حتى.

- لاااا لا دايمًا افتكري الأقل منك هاتلاقي إنك في نعمة كبيرة يا.. إلا إنتي اسمك إيه؟

- ندى..

- عاشت الأسامي يا أرق من الندى... أنا اسمي راضية.. وبيقولوا لي يا أم الرضا.

- أهلًا وسهلًا يا أم الرضا.

- شوفي يا ندى لو كل واحدة قابلِتها مشكلة مع جوزها ولَّا عيالها ولَّا حتى شغلها حبست روحها جوَّه نفسها كده محدِّش هايعيش مرتاح.. البني آدم مننا متقسم حتتين.. قلب وعقل.. روح ونفس يفضل عمره

كله يصارع نفسه وروحه وما بيخلصش الصراع ده إلا بانتصار واحد فيهم.. فيا ترى إنتي مين الأقوى عندك؟ فكري ده وتدبري أمرك ولما توصلي لحاجة.. تعالي هنا هاتلاقيني دايمًا.. مش باجي كل يوم بس اليوم اللي هاتعوزيني فيه أنا هاحسّ بيكي وهاجيلك.

**

عدتُ إلى منزلي وأنا أشعر بحالة ارتياحٍ عجيبةٍ.. استقبلت فرح وهنا بحضنٍ دافئ جدًّا استشعرتُ حلاوته أنا قبلهما كما لو كنتُ عائدةً من سفرٍ بعيدٍ وبعد غيبةٍ طويلةٍ.. تناولنا غداءنا وذهبتُ إلى غرفتي ملقيةً بجسدي فوق فراشي كنتُ أحتضنه لا أرتمي عليه ككل يوم.. حالة من الارتياح ربما أكون أوهمت نفسي بها لكنني راضية، شعور بالهدوء جعلني أنام نومًا عميقًا كما لم أَنَم من قبل.. وما إن استسلمت للنوم إلا ورأيته.

خيالٌ مبهمٌ غامضٌ لا ملامح تصفه كما لو كان جسدًا تحوطه هالةٌ نورانيةٌ من فرط شدتها تخفي ملامحه.. كل ما اتضح منه هو ابتسامة مشرقة مبهجة وطيفٌ فقط لملبس تميَّز بعمامةٍ بيضاء ناصعة البياض يتخللها رسومات زخرفية خضراء كُتِبَ عليها بالخيوط الذهبية حروفٌ كما يرتدي دراويش أولياء الله الصالحين.. ورائحة البخور

تمـلأ المـكان وأثـر دخانـه يُغطـي ملامـح هـذا الرجـل الـذي لم أتبـين سـوى بيـاض بشرتـه وحُمـرة شـعيراتٍ ذقنـه الكثيفـة المتدليـة لتغطـي عنقـه، ملامـح كـدتُ أتعـرَّف عليهـا أو أن إحسـاسي بهـا مألـوفٌ بالنسـبة لي ولا تتضح، ويـده الممتـدة لي والتـي يفصلهـا عنِّـي شيءٌ غـير مـرئي.. حاولـتُ أن ألمـسَ يـده لم أسـتطع، كانـت المسـافةُ برغـم قصرهـا إلا أنهـا مسـتحيلةٌ للتلامـس..

أفقـتُ مـن نومـي وكأنهـا كانـت مجـرد غفلـةٍ للحظـاتٍ، اسـتيقظتُ وأنـا أشـعرُ أني بـين الأرض والسـماء.. إحسـاسٌ عجيـبٌ ولطيـفٌ وغامـضٌ انتابنـي.. كـما ريشـة نعـام، تحسسـتُ جسـدي مـرورًا بعنقـي نهايـة بأخمـص قدمـيَّ.. قشـعريرةٌ سرت بجسـدي طالـت روحـي ومسَّـت شـغاف قلبـي.. خيـال جامـح نالنـي وحلَّـق بي في أعـالي السـماء.. لم أشـعر إلا وروحـي سـابحةٌ في رحـاب الرؤيـة ومـن كان بهـا.. ما زال عبـق وأريـج حضـوره يحملنـي إليـه.. إلى سرابٍ أو لا مـرئي لم أدركـه ببـصري ولكنـي أشـعر بـه بوجـداني، أو ربمـا تمنيتُ أن يكون بالفعل هناك سببٌ ملموسٌ لهذا الإحساس..

تمنيـتُ لـو أني أظـل نائمـةً ليسـتمر الحُلـم أو لأعـرف لـه تفسـيرًا أو مدلـولًا.. وددت أن أجـده بالفعـل أسـأله.. من أنت؟ وماذا تريـد؟ ولِـمَ لَـم أسـتطع أن أمسـك بيـدك الممـدودة لي؟ وأنـت عـلى مقربـةٍ منِّـي وأنـا احتجتـك ومـددتُ يـدي؟

فكـرتُ أن أفتـح "اللابتـوب" وأبحـثُ عـن نجـوى؛ فهـي مـن تُريحنـي في حوارهـا الصـادق الحنـون والجـاد أيضًـا أو أن أحـادث نشـوى وأحـكي لهـا.. ولكـن في نفـس اللحظـة تجلـت أمامـي صـورة أم الرضـا وكلامهـا لي..

"فكـري كـده وتدبـري أمـرك ولمـا توصـلي لحاجـة.. تعـالي هنـا هاتلاقينـي دايمًـا.. مـش باجـي كل يـوم بـس اليـوم الـلي هاتعوزينـي فيـه أنـا هاحـس بيـكي وهاجيلـك".

بعـد تفكـيرٍ سريـعٍ قـررتُ أن أذهـبَ في صبـاح الغـد إلى أم الرضـا.. وبالفعـل في صبـاح اليـوم التـالي وبعـد الطقـوس المُعتـادة وانتهـائي مـن إعـداد الطعـام وتنسـيق المنـزل ومـا إلى ذلـك مـن عملٍ لا ينتهـي بالبيـت.. وانتظـرتُ حتـى عـودة بنـاتي مـن المدرسـة وارتديـت ملابـسي وانطلقت صوب السـيدة نفيسـة.. كان وقـت صـلاة العـصر.. توضأت وتوجهـت لصفوف المصليـات والتـي لم تتجـاوز الأربعـة صفـوف.. عنـد تسـاوي الصفـوف، وجـدتُ مكانًـا فارغًـا في الصـف الأول دخلـت فيـه وأقيمـت الصـلاة. وعنـد الانتهـاء والسـلام مـن الصـلاة، وجدتُها بجـواري عـلى يـدي اليمنـى، راضيـة بابتسـامتها المشرقـة.

- نمتي كويس يا غالية!

- نمـتُ وحلمـتُ وجيـت أدوَّر عليـكي يـا راضيـة زي مـا قُلتـي لي.

- إنتي مش بتدوري عليَّ أنا يا بنتي.. إنتي بتدوَّري على روحك التايهة.. وعشان تلاقيها لازم تشيلي من قدامها كل اللي مخبيها منك ومخليها في الضلمة ما تُشوفش النور.

- روحي التايهة؟ أشيل اللي قدامها إزاي؟ أنا من يوم ما وعيت ع الدنيا غيري اللي بيختار لي.. من أول أمي وأبويا لحدّ جوزي ويمكن ولادي كمان.

- اللي جواكي إنتي بس اللي تقدري تنضفيه.. ترتبيه.. تهديه وتبنيه تاني لو عاوزة، بس إنتي إعرفي الأول إنتي عاوزة إيه.

- أنا عاوزة إيه؟ طول عمري بسأل نفسي السؤال ده؟ أنا عاوزة إيه؟ وليه ما بعرفش أكون مبسوطة زي ما كنت طفلة؟ عاوزة إيه من الدنيا دي كلها؟ حتى كتير كنت بتمنى أموت وأرتاح منها.

- والموت بقى هو الراحة اللي إنتي عاوزاها؟

- الموت هو النهاية دايمًا.. لكل حاجة نهاية ونهاية الإنسان الموت.

ابتسمت أم الرضا ابتسامة عريضة ساخرة، وقالت:

- إنتي ما حبتيش يا ندى؟

ـ حبيت!! أنا اتجوزت واتطلقت واتجوزت تاني وخلفت اتنين وأنا عمري لسه ما جاش تلاتين سنة أهو.. وما حبيتش الحب اللي بيقولوا عليه اللي في سني.. حب ست لراجل.. حب يخليني أشتاق له وأستناه وأجري عليه لما أشوفه وأبقى نفسي ما سيبهوش ولا ثانية عشان هو الحياة بالنسبة لي.. لكن الغريبة بقى إني فعلًا حاسة بقوة الحب ده من غير ما أعيشه.. ساعات بلاقي نفسي كده من جوايا زي ما أكون عاوزة آخد نفس هوا كبير أوي.. وأغمض عينيا عن كل اللي حواليا وأشم بس ريحة الحب ده.. بس عمري ما حسّيت إن ده معناه أن في حدّ يستاهله أو حتى يكون سببه.. أنا أساسًا كرهت الرجالة يا راضية، كرهتهم.

ـ هو الحب لازم يكون لراجل بسّ يا ندى؟

الحب اللي أقصده هو اللي خلاكي تيجي هنا.. الحب اللي ربنا خلقنا بيه وعشانه.. المحبة يا ندى.

ـ المحبة! ربنا خلقنا عشان نحب؟ طيب أنا ليه ما حسيتش الحب ده؟

ـ عشان إنتي جواكي نفسك اللي بتأمرك دايمًا.. ومخلية قدامك كل حاجة مش كاملة كل حاجة حلوة لها

مـرارة في حلقـك مـش مديـاكي فرصـة تسـتطعميه لوحدك مـن غيرهـا ومـن غـير أوامرهـا..

ـ صـح أوي أنـا كل حاجـة في حلقـي مـرة مـا فيـش حـلاوة أسـتطعمها كاملـة، عرفتـي إزاي؟

ـ مـش محتاجـة معرفـة.. البنـي آدم ربنـا خلقـه نفـس وروح وجسـم.. الجسـم بيشـيل الـروح والنفـس هـي الـلي بتمـشي الاتنـين.. زي القطـر كـده عربيـه بتشـد التانيـه والـلى بيسـوق هـي النفـس.. عشـان كـده دايمًـا تزيِّـن لنـا الشـين زيـن يعنـي الحاجـة الوحشـة حلـوة.. أومـال يـا بنتـي مـا هـي أمَّـارة بالسـوء.

ـ طيـب مـش ربنـا الـلي خلقنـا يـا راضيـة وهـو الـلي عارف جوانـا إيـه؟ ليـه بيسـلط علينـا النفـس دي؟ وليـه روحنـا بتمـشي وراهـا ومـش العكـس؟

ـ شـوفي يـا نـدى ببسـاطة كـده النفـس الـلي جوانـا ثـلاث أنـواع أمَّـارة بالسـوء ونفـس لوامـة ونفـس مطمئنـة.. وعشـان نوصـل لأعلاهـم دي "المطمئنـة" لازم نجاهـد الاتنـين.

ـ يبقـى نمـوت روحنـا يعنـي عشـان نخلصهـا مـن السـوء الـلي بتأمرنـا بيـه ده؟

- لأ يا بنتي.. النفس دي زي الجبل عشان توصلي للقمة وتسيطري عليها لازم تطلعي واحدة واحدة بهدوء بسياسة.. سايسيها لحد ما تسيطري عليها وتوصلي القمة.. إنما لو جريتي ونطيتي قلبك هايقف قبل ما توصلي.. ولو وصلتي بسرعة هاتنزلي أسرع- فهماني؟

- فهماكي بس بحاول أستوعب عاوزة أفهم أكتر كمِّلي يا أم الرضا كملي..

- قرَّبي من ربنا أوي يا بنتى.. خلّي صفاته هي اللي تسيطر على اللي جواكي.. القوي بيطرد الضعيف.. الصح بيزيح الغلط من قدامه.. قوِّي روحك الطاقة اللي جواكي خير وكبيرة بس نفسك هي اللي بتخليكي يتهيألك إنك ضعيفة وإنتي أقوى منها بحبك لربنا ورضاه عليكي روحه الطاهرة اللي نفخ فينا منها هاتغلب على الشر اللي بيحوم حوالينا دايمًا وفي أقرب الناس إلينا كمان.
- كلامك بيريحني أوي يا راضية.. مش عاوزة أسيبك ولا أتكلم وأفضل أسمعك كده.

- لأ، أنا مش هاطوِّل عليكي دلوقتي.. بس نصيحة، حاولي تقعدي كده مع نفسك وسبحي كتير واستغفري وإنتي بتستغفري غمضي عنيكي.. وفكري

واستخيري ربنا.. إنتي عاوزة إيه؟ وما تنسيش إن ربنا خلق لنا الدنيا واللي فيها عشان نستمتع بالحلال، نستمتع بجمال كل ما خلق من غير ما نعصيه.

مرَّ الوقت مسرعًا والحديث بيننا لم ينقطع ولكني انتبهت إلى ضرورة العودة إلى المنزل قبل أن تنزل ستائر الظلام على قُرص الشمس ويفتح بسببها طاقات السؤال والاستفسار والتهكم من عمتي أم زوجي وأخواته عن سبب عدم وجودي أو خروجي وترك بنتيَّ وحدهما ودون علم أحدٍ منهم.. سلمت عليها وودعتها على أمل اللقاء كلما سنحت لي الفرصة..

ـ لأ هاتيجي وقريِّب أوي كمان.. بس وإنتي جاية إبقي هاتيلي معاكي "السبحة".

***

حديثُ أم الرضا لم يبرح تفكيري.. الروح والنفس؟ هما من يتحكمان فيَّ.. تقودني نَفسي للشك والحزن وعدم الرضا.. بينما روحي لا أعرف أين هي.. ومن تنتظر.. وما الذي يُرضيها ويُسكنها في جنبي لا تُزعجني ولا تُؤرقني.. متى تسكن روحي وتُهدئ من روعي وقلقي الدائم؟

تكرر حلمي بنفس الرؤية أكثر من مرةٍ، وفي كل مرة أستيقظ وأنا لاهثة محاولة الوصول إلى يد هذا الطيف

هـذا النـور الـذي أعرفـه ولا أعرفـه.. ذاك الـذي يـزورني بالمنـام والأعجـب أننـي عنـد اسـتيقاظي أجـد رائحـة البخـور تمـلأ الغرفـة التـي أنـام بهـا مـما جعلنـي لا أدري أهـو حلـم أم واقـع فأجـدني أسـتيقظ لأتلفـت في أرجـاء غرفتـي باحثـةً عنـه.

تملكنـي إحسـاسٌ عجيـبٌ لم أتذوقـه مـن قبـل ولم أجـد لمذاقـه تفسـيرًا.. حِـرتُ في أمـري ومـا أصابنـي مـن مشـاعر خفيـة غامضـة ولكنهـا مُحببـة إلى نفـسي لم أبغضهـا أو أتملـل منهـا.. وجدتنـي أود أن أحـكي لأحـد عـما بي.. أسـأله عمـن زارني بالمنـام ومـا شـعرتُ بـه ومنـه ولـه.. خطـر عـلى بـالي أن أتجـه لصديقـات الغربـة والعـالم الافـتراضي.. صديقـات جـروب "كافيـه العصـاري".. فتحـتُ "الـلاب" وأدرتُ موسـيقاي المُحببـة إليَّ.. مزيـجٌ مـن النـاي والعـود للحـنٍ تميَّـز بهدوئـه لكلـماتٍ تغنـت بهـا أم كلثـوم في فيلـم رابعـة العدويـة.. وخِلتنـي أتغنـى أنـا بهـا في شـجنٍ دافـئ..

سألتُ عن الحب أهل الهـوى.
سقاة الدمـوع ندامـى الجـوى
قالـوا حنانـك مـن شـجوه..
ومـن جـده بـك أو لهـوه

بحركةٍ وتصرُّفٍ لا إرادي، فتحتُ مُحرك البحث الإلكتروني وكتبت مواصفات من رأيته وملامحه؛ رغبة مني دون أن أفكر مسبقًا بتلك الخطوة أن أراه مرةً أخرى أو من يشبهه.. وللعجب ظهرت أمامي صورةٌ هي أقرب ما تكون لنفس الشخص الذي رأيته بالمنام..

ـ هو.. أهو أهو يا راضية تعالي شوفي..

ـ هههههه أنا شايفة أهو يا ندى.. هو ده!!

ـ أيوه هو يا أم الرضا.. نفس الابتسامة ونفس اللبس اللي شفته بيه.. بس ده مش باين بقيته.. الصورة جايبه وشه بس والعمامه اللي على راسه كمان لونها والكتابه اللي عليها..

ـ طيب طيب أنا مصدقاكي..

ـ يا ترى ده اسمه إيه؟

وهو مين؟ ومنين؟ وديانته وجنسيته..

ـ بس بس بس يا ندى.. عاوزة تعرفي كل ده ليه؟

ـ ليه؟ أقولك وهاتفهميني صح؟

مبتسمة: أكيد أنا فهماكي صح مش لسّه هافهمك.. إنتي حبيتي الروح دي.

ـ حبيتها؟ تقصدي حبيته؟ ومن غير ما أعرفه؟

ـ أيوه، وهو كمان بيحبك.

ـ بيحبني؟ إزاي ده؟ هو مين وحبني إمتى وإزاي وأنا إيه اللي خلاني أحسّ الإحساس ده ناحيته وهو حلم.. حلم مش أكتر؟

ـ المحبة يا ندى ما يلزمهاش معرفة ولا تفاصيل للمحب، المحبة عطاء من غير مقابل.. ما لهاش شروط غير الحب للحب والخير والجمال وبس.. مش مهم بقى مصري ولا هندي مسلم ولا مسيحي غني ولا فقير.. الحب في الله ولله مالوش معيار ولا دين ولا جنس وطالما حسيتي إنك حبيتيه يبقى هو في الأصل في رباط بينكم روحي كان السبب في الإحساس ده.

ـ أنا فعلًا ما أنكرش إني من لحظة ما حلمت بيه والحلم مسيطر عليَّا.. خاصة الحاجة اللي إداهاني ووقعت مني دي.. وما لمستهاش لسه وصحيت من النوم.. نفسي أعرف إداني إيه؟ وليه؟ ووقعت ليه؟ وليه ما مسكتهاش؟

ـ ما تستعجليش الإشارة..

ـ إشارة؟

ـ أيـوه الإشـارات جاياـلـك كتـير.. مـن أول ما قابلتـك في مقام ستنا نفيسـة ولسّـه الـلي جـاي.. المهـم إنـك تسـتقبليها بقلبـك.. خلـلي النـور الـلي جـوّاه يدلـك.. سـيبي نفسـك عشـان تلاقـي روحـك.

ـ كلامـك حلـو وغريـب يـا راضيـة.. أسـيب نفـسي عشـان ألاقيهـا؟

ـ لأ.. سيبي نفسك عشان تلاقي روحك.

خـدي.. إمسـكي السـبحة دي.. قـولي عليهـا لحـدّ ماعينـك تغفـل وتنامـي: يـا حـي يـا قيـوم برحمتـك أسـتغيث، أصلـح لي شـأني كلـه، ولا تكلنـي إلى نفـسي طرفـة عـين.

ـ يـا حـي يـا قيـوم برحمتـك أسـتغيث، أصلـح لي شـأني كلـه ولا تكلنـي إلى نفـسي طرفـة عـين.. يـا حـي يا قيـوم برحمتـك أسـتغيث، أصلـح لي شـأني كلـه ولا تكلنـي إلى نفـسي طرفـة عـين.

ـ مامـا.. مااااااااااااامـاااااا.. ردي عليَّـا بقـى إنتـي بتتكلمـي وإنتـي نايمـة هههههـه وكـمان نايمـة عـلى اللابتـوب بتاعـك.. إلحقـي يـا فـرح مامـا نونـو نامـت وهـي قاعـدة!!

انتبهـتُ عـلى صـوت فـرح وهنـا وضحكهـما المتـدرج في العلـو والبهجـة والسـخرية معًـا ولكـن بطعـم الـبراءة.. مـاذا

حـدث لي؟ هـل مـا زلـتُ أحلـم؟ لا لم يكـن حُلـمًا.. اللابتـوب مفتـوح بالفعـل.. وراضيـة كانـت هنـا معـي وأمامـي تُحادثنـي وأحادثهـا.. نعـم هـي هنـا.. راضيـة.. راضيـة أيـن أنـتِ؟ هـا هـي ذي المسـبحة التـي أعطتنـي إياهـا منـذ دقائـق.. لم يكـن حُلـمًا لم يكـن حُلـمًا.

***

غريبـةٌ هـي تلـك الحيـاة.. تُصارعنـا وتدفعنـا بأحداثهـا.. أشـعرُ بهـا تجتاحنـي كشـلالٍ تندفـعُ مياهـه مـن أعـلى ليرتطـمَ بهـدوءٍ ببحـيرةٍ سـاكنةٍ.. قوتـه تُحـدث فقاعـاتٍ متتاليـةً ومتجـاورةً.. سريعـةً شـديدة التلاحـق والتلاصـق أيضًـا.. لحظـةً بلحظـةٍ تتقـاربُ- تتلامـسُ ولا تلبـثُ أن تنصهـرَ بداخـل بعضهـا، تمتـزجُ جزيئاتهـا فتـذوب وتتـلاشى في كيـانٍ واحـدٍ ينصهـرُ بـذات البحـيرة، تتسـع بـؤرة التجمـع لتعـم البحـيرة كلهـا.. تصبـح الـذرات كلهـا واحـدةً- تنسـاب الميـاه، تتدفـق.. ويسـتمر الشـلال في لطـم البحـيرة وتسـتوعب البحـيرة تلـك الفقاعـات ومـن ثـم تنهمـرُ وتسـيرُ في مجراهـا. وإلى أن تسـتقر بمجراهـا الطبيعـي عـليَّ أن أصمـد وأحتمـل التغـيرات والصدمـات.. إلى أن أصـلَ إلى مـا أريـد عـليَّ أن أصـبرَ وأنتظـر..

***

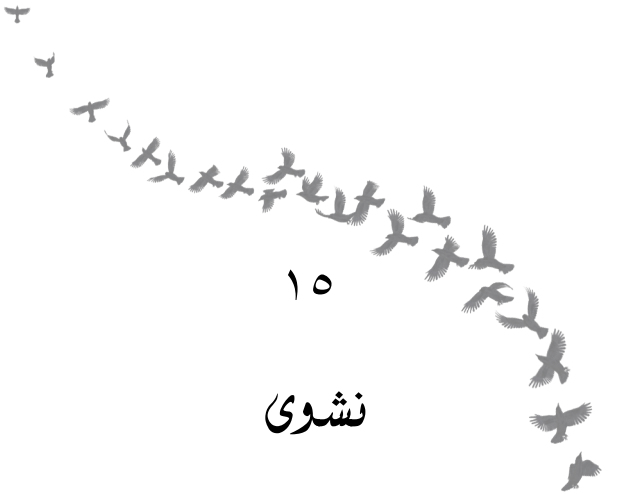

١٥

نشوى

ـ أخبارك إيه يا شذا.. وأخبار أحمد إيه لاقيتيه؟

ـ أبـدًا يـا نـدى.. أنـا يومـي اتبـدل وحـالي اتلخبـط.. كان هـو الـلي مواسـيني ومخليـلي للدنيـا طعـم غـير المُـر الـلي ماليهـا، كان مهـوِّن عـلى عيشـتي بكلامـه ونصايحـه لي.. تصدقـي إني بقيـت أغلـط وأنـادي عـلى ابنـي وأقولـه يـا أحمـد.. مـن كُـتر مـا بفكَّـر فيـه وفي غيابـه.. لدرجـة إني إتهيـألي إنـه كان حلـم مـش حقيقـي.

ـ حلم!! إنتي كمان؟

ـ أنا كمان إيه يا ندى؟ مش فاهمة.

ـ لا أبـدًا.. بـس أصـلي مسـتغربة هـو ممكـن بعـد مـا اتكلمتـوا كتـير كـده يكـون تهيـؤات أو حلـم؟ تقـدري تحسـميها إزاي دي؟

ـ يـا بنتـي حتـى لـو حلـم.. الحمـد للـه أنـا فرحانـة بيـه عـلى الأقـل ريَّحنـي شـوية مـن الضغـوط الـلي عـلى قلبـي.. حلـم لحظـات حتـى خـلاني أفـكّ عـن نفـسي حمـول شـيِّلها لي المحـروس جـوزي سـنين.. بـسّ لـو ده حلـم تفتكـري مشـاعري دي كـمان يـا نـدى كانـت حلـم؟ أنـا لحـدّ الآن بفكـر فيـه وبتكلـم معـاه لمـا تقابلنـي مشـكلة.. بفتكـر نصايحـه وأعملهـا كأنـه قدَّامـي.. تفتكـري ممكـن الواحـدة تنسـج بخيالهـا حلـم وتصدقـه؟ تبنـي بإيديهـا تمثـال وتعبـده مثـلًا؟

ـ يـا شـيخة.. تعبـده إيـه بـس وخِّـدي اللـه! هو بس مشكلتك إنك مش لاقية اللي يفهمك.

ـ هههههه ضحكتيني يا أم فرح.. ده أنا؟

عـلى أسـاس إنـك مـش صفحـة تانيـه مـن كتـاب كل صفحاتـه سـتات مـش لاقيـة الـلي يفهمهـا؟

ـ صدقتـي.. طيـب مـا تيجـي نسـاعد بعـض بجـدّ.. أنـا محتاجـة الـلي زيـك وإنتـي محتاجـة الـلي زيـي وكلنـا في الجـروب محتاجـين بعـض.. مـش بـس للرغـي والضحـك..

يعنـي لـو اعتبرتينـي أنـا مـكان أحمـد وأنـا اعتبرتـك مـكان فريـد.

- إيييييـه.. إيـه الـلي بتقوليـه ده هههههـه، إنتـي مالـك النهـارده إوعـي تكـوني مـن اياهـم يـا نـدى هههههـه.

- يـا بنتـي أبـدًا اللـه يكرمـك إفهمينـي صـح.. وبطّـلي تريقـة عـلى كل كبـيرة وصغـيرة.. أنـا أصـلي بتحصـل لي حاجـات غريبـة الأيـام دي أوي.. أحـلام مـش عارفـة ولا بجـد أنـا بقيـت مـش عارفـة حاجـة.. كل الـلي عارفـاه إني حاسّـه بروحـي خفيفـة أوي ومـش عارفـة أوجههـا.. حتـى نشـوى كلامـي معاهـا بقيـت أحسُّـه طعمـه مختلـف أو مـا بقنـاش فاهمـين بعـض زيّ الأول..

- مختلـف إزاي يعنـي؟ دي مـا بقتـش تـردّ عـلى حـدّ مننـا خالـص وسـابت الجـروب.. وشـكلها جـرى لهـا حاجـة هـي كـمان، اختفـت تقريبًـا هههههـه لا تكـون إتجـوزت!.. هـي بتكلمـك؟!!!

تعجبـت لـكلام شـذا عـن نشـوى.. فهـي عـلى اتصـالٍ دائـمٍ معـي مـن خـلال الرسـائل عـلى الجـوال أو الشـات، ولـو كان رقـم برنامـج المراسـلة عـلى الجـوال وأسـتطيع التحـدث معهـا لفعلـتُ حتـى أطمـئن عنهـا وأُطمـئِن باقـي الجـروب، هـي مَـن كانـت تُراسـلني مؤخـرًا وأنـا مَـن لم تـرد عليهـا بسـبب

تشتيت فكري وانشغالي.. وإحساسي منذ آخر حوار لنا؛ أني أثقلت عليها بمشاكلي حتى إنها تهربت منِّي بحجة موعد الطبيب.. شعرتُ بأن الملل أصابها منِّي وأنها عجزت عن استكمال نصائحها لي.

توجهتُ إلى صندوق بريدي الإلكتروني وبالفعل وجدتُ رسائلها وآخرها كانت أقواها على الإطلاق.. رسالة هزَّت كياني وزادت من شتات نفسي.. تمنيتُ أن تكون ضمن كابوسٍ وأنتهي منه.

حبيبتي ندى:

أكتبُ إليكِ بعد ترددٍ دام لأيامٍ وأيامٍ.. أرسلتُ لك للاطمئنان عليكِ مرارًا ولم تُجبني ولو بكلمةٍ.. وهذا ما جعلني في حيرةٍ من أمري وقررتُ أن أكتب لك الآن ولا أدري هل هو التوقيت المناسب أم لا.. ولكني على يقينٍ أنه التوقيت المُلح بالنسبة لي.

ندى.. أعلم أنني الأقرب لك من جميع الصديقات وأنتِ أيضًا يعلم الله مكانتك في قلبي ومدى تعلُّقي بك وشغفي لإخبارك دومًا.. قد استمعتُ لكِ مرارًا بقلبي قبل عينيَّ من خلال ما تبادلناه من رسائل على مدى شهورٍ مضت.. فهل لي أن تنصتي إليَّ بقلبٍ وعقلٍ متفهمٍ لما سأقول!

في بدايـة تعارفنـا مـن خـلال الجـروب لا أنكـر أننـي كنـتُ أتـوقُ إلى مـا تكتبـين منـذ بـدأتِ تعرِّفيننـا بنفسـك.. كان لأسـلوبك حـلاوة تـترك بصمتهـا عـلى القلـب.. جذبـتِ انتباهي بحكيـك الراقـي المُهـذب غـير المُفتعـل.. بـدت كلماتـك كأنهـا ترسـمُ ملامحـك ومنهـا غُرِسـتِ في قلبـي وصرتِ موجـودةً بالفعـل في حيـاتي ويومـي لا كشـخصيةٍ افتراضيـةٍ مـن عـالمِ مـوازٍ.. بـل كأخـتٍ وابنـةٍ وصديقـةٍ.. وأحيانًـا أُمّ وحبيبـة أيضًـا.

ولا أنكـرُ أننـي مَـن حاولـت أن أجعلـك تبوحـين لي بشـكلٍ خـاصٍّ بعيـدًا عـن المجموعـةِ بشـكلٍ عـام.. وعـن صفحـات الجـروب وأن أجـد رابطًـا خاصًّـا بيننـا نكـون فيـه أكـثر قربًـا وصِدقًـا وعمقًـا داخـل نفـس وقلـب وحيـاة كل منـا.

أصبحـتُ أنـتِ مـن تحلـو بهـا مـرارة أيامـي.. أصبحـتِ بحيـاتي ويومـي إدمانًـا ولا أود التعـافي منـه.. ارتشـاف كلـمات منـك يوميًّـا لـه مـذاق الكـمال في كل يومـي.. حتـى دموعـك التـي كانـت تنهمـرُ عـلى بُعـدٍ كنـتُ أشـعرُ بانسـيابها عـلى وجنتـيَّ.. يُبلـل عطرهـا وجهـي فأستشـعرُ وجـودك بجـواري.. ألفـت مشـاكلك واضطراباتـك وصرتِ جـزءًا منِّـي دون أن أدري.. لم أكـن بالنسـبة لـك أمًّـا أو صديقـةً فحسـب.. بـل أنـتِ مـن كنـتِ دون أن تـدري أمـي وابنتـي في آنٍ واحـدٍ.

تمنيتُ أن أرى فريد فأعنِّفه على عدم احتوائه لك.. وكيف تكونُ جوهرةٌ مثلك بين يديْه ويدع الأتربة تنالُ من بريقها فتطفئه وتُذهِب بريقها.. تمنيتُ أن أراك أنتِ فأضمك إلى صدري وأنتزع كل أوجاعك لتسري بيدني ولا أنها تؤلمك لحظة..

تمنيتُ أن أراكِ وتريني على الواقع وليس بين السطور.. تأسفتُ جدًّا عندما طلبتِ رقم هاتفي ولم أجب بما انتظرتِه أو تمنيتِه بحجة الظروف والأولاد وأموري الخاصة.. وفضلت أن تكون مراسلتنا هاتفيًّا على أحد برامج التواصل دون معرفة مكان أو رقم المراسل.. أعلم أنها كلها تساؤلات خطرتْ على بالك: لماذا لم تعطِني نشوى رقم هاتفها أو تجعلني أتصل بها وقتما أحتاجها؟ لماذا لم تثق بي وأنا مَن أوليتها كل الثقة؟

ندى..

أنا من شجَّعتك على قرار الانفصال بطريقةٍ غير مباشرةٍ عن فريد.. حيث شعرتُ أن راحتك ستكون حال انفصالك عنه.. حال معرفتك ماذا تريدين أنتِ بنفسك.. حينما تضعين قدمك على طريقٍ تختارينه بنفسك لا يُفرَض عليكِ.. قرار الانفصال كان هو الخلاص لك من حالة الانفصام التي كنتُ تعيشينها.. وحينما علمت بانفصالك عنه دون طلاقٍ

تألمت.. ليس للانفصال ولكن لأنه لم يقع الطلاق فعليًا بينكما.. وقتها أصابتني حالةٌ من السعادة المشوبة بالحزن.. شعرتُ بأنني أنا من تحررتْ من قيدٍ.. ولكني لم أكن أعلم أن تحررك سيكون قيدي أنا.. لا تتعجبي من كلامي فستعرفين الرد على تعجبك هذا خلال الأحرف القادمة.. ندى.. طلبتِ منِّي ذات مرةٍ أن أسمعك صوتي أو تمنيتِ وتمنيتُ أن نتقابل فعليًا..

في نهاية الرسالة تجدين ردي في حروفٍ بسيطةٍ.. وإن كان ما زال طلبك وأمنيتي متاحًا تنفيذها.. لن يسعني الكون وقتها.. ردك بالصمت. رفض. وبكلماتٍ بسيطةٍ تضيئين حياتي بأكملها.

وأرجو ألا أصبح لك مجرد ذكرى.. فقد تمنيتك لي حاضرًا.. ومستقبلًا.

"شريف"

....

فركتُ عينيَّ بشدةٍ؟! انتفضتُ من مكاني غير مصدقةٍ ما خُتِمَت به الرسالةُ من توقيع؟ ولم أتفهم أي شيء.. عاودتُ القراءة مراتٍ ومراتٍ وفي كل مرةٍ أتوقف عند

الاسم وأعيد القراءة، بل أعيد كل ما دار بيني وبين نشوى..أو شريف من حوارٍ على سبيل أنه امرأة مثلي!!!

نشوى.. شريف!!!!

مَن شريف؟

وكيف؟

ولماذا؟

نشوى رجلٌ؟

مَن بُحتُ لها بكلِّ كبيرةٍ وصغيرةٍ لخبايا بيتي ونفسي ما لم أَبُح به لزوجي أو أمي أو إخوتي.. رجلٌ؟

مَن قصصتُ عليها أحلامي وبكيتُ ساعاتٍ معها رجلٌ؟

يا إلهي.. ما الذي يحدث معي وبي؟

أهربتُ أنا من رجلين مرًّا بحياتي لأبوحَ لرجلٍ ثالثٍ بأمرهما؟

ما هذا النوع من الرجال؟ وما هي متعته في التلصص على حياة النساء؟ إن كان نصابًا يتلذذ بمحاورة النساء والتدخل في حياتهن ربما يجد متعته في ذلك أو ربما ينالُ منهن المال أو غيره نتيجة ابتزازه لهن حينما يستطيع.. .

إذن: فلماذا باح لي أنا بكل ذلك؟

مـا الـذي يُجـبره عـلى الاعـتراف.. وكان مـن الممكـن أن يخـرج نهائيًّـا مـن حياتنـا جميعًـا بضغطـةٍ عـلى الكيبـورد فقـط!

وما الذي جعلني أتفوَّه بكل ما قلتُ له!

تبًّا للاحتياج.. تبًّا لمرارة الاغتراب.

تبًّـا لرجـلٍ لم يعـرف مـا تحتاجـه أنثـاه فيجعلها لا تسـتكينُ لـه وتبحـثُ عـن غـيره بـلا تفكـيرٍ ليكـونَ هـو مَـن تسـتكينُ إليـه جوارحُهـا...

يا الله كرهتُ الرجال جميعهم، بل كرهتُ نفسي.

***

١٦

ليلى

مـرَّت شـهورٌ عـلى زواجـي بليـلى وتواجـدي هنـا؛ فقـد عملـتُ عـلى أن تسـتقر حيـاتي بالنمسـا إلى جوارهـا معظـم شـهور السـنة، حتـى إننـي وقتـما طلبـتُ مـن الشركـة التـي أعمـل بهـا والتـي أصبـح لي فيهـا اسـم ونشـاط ومكانـة معروفـة- حينـما طلبـت إجـازة بـدون راتـبٍ لمدة سـنة وبرغم تعجـب الجميـع لطلبـي هـذا واستفسـار المقربـين مـن الزمـلاء عـن السـبب الأسـاسي لـه والـذي اختلقتـه بالطبـع عِوضًـا عـن السـبب الحقيقـي .. فقـد أعلمتهـم أننـي بصـدد عمـل خـاص وطلبـت أمنياتهـم ودعواتهـم بالتوفيـق والنجـاح فيـه.. وقـد كان بالفعـل أشـبه بعمـل أقـوم بـه، كان شـغلي الشـاغل هـو وجـودي إلى جـوار "ليـلى" وتحديـدًا تحـت قدميْهـا، نعـم

بالفعل تحت قدميْها وطلباتها وأوامرها، قبل أن تطلب يُجاب طلبها.. صرتُ وكأني مسحورٌ بها ورهن إشارتها وكأني لم أرَ أو أعاشر امرأةً قبلها ولا أتمنى أن تكون امرأة بعدها.

وقد كان بالفعل.. كشغلٍ خاصٍّ.. كل ما في الأمر أنني بمالي وكامل قواي العقلية اخترتُ أن أكون موظفًا لإسعاد "ليلى" حُلم المراهقة والشباب.. أمضيتُ أجمل أيام حياتي الزوجية معها.. نلتُ منها ومعها ما لم أعرفه أو أتذوقه مع ندى.. كل منهما زوجتي.. ولكن الفارق بينهما كبير.. ندى كانت تجتهدُ لتسعدني.. تُخفي مرارة ما بداخلها، كنتُ أستشعرها وقت لقائنا الحميم بزفراتها التي كانت تلفظها دون أن تدري أنها تحرقني.. تُدمر اشتياقي لها.. تدفنُ كل مشاعر اللهفة والرغبة بداخلي.. كان إحساسي بها آليًّا خاليًا من النبض، من الحياة.. ومع ذلك كانت لا تردني إطلاقًا بل وتسعى لإسعادي وإن كان هدفها فقط هو ألا تصبح زوجةً فاشلةً أو تكون سببًا في هدم ما بيننا من علاقةٍ زوجيةٍ فتُغضِب الله فيَّ أو تنال من كلمات الأهل ما هي في غنى عنه.

ليلى.. كانت الأنثى الكاملة.. ذات شخصيةٍ مميزةٍ في عملها وأهلها ومجتمعها.. وأيضًا في فراشنا. معها كنتُ ما بين الأمير المُدلل والعبد المُطيع.. سلبت عقلي، لم تجعل لي مجالًا لأعيد التفكير أو أعدل عن قرار..

كانـت لي مثـال الدنيـا بزهوهـا وجمالهـا وخداعهـا أحيانًـا.. كانـت لهـا مـن الخـبرة الحياتيـة مـا يجعلهـا تسـيطر عـلى قلـب وعقـل رجـلٍ قـضى حياتـه في جمـع المـال لتوفـير حيـاةٍ رغـدةٍ لـه ولمـن يختارهـا ليُكمـل بهـا هالتـه الخاصـة والتـي لا يُشـاركه فيـه أحـدٌ..

ومـع ذلـك لم تنـسَ "ليـلى" نفسـها بالفعـل.. ففـي تلـك الأشـهر كانـت تمتلـك مـا يقـترب مـن نصـف مـا أملـك.. بطيـب خاطـر ورضـا تـام كنـتُ أهديهـا وأهـب لهـا مـا أملـك مـن عقـارٍ أو مـالٍ.. عـلى سـبيل الهديـة.. أو التصالـح بسـبب مواقـف أبسـط مـن أن تكـون سـببًا لزعلهـا منِّـي.. باتـت ليـلى كأنثـى تأخـذ لتُعطـي.. لم تكـن هـي مـن حلمـت بهـا وطـرتُ فرحًـا حينـما وجدتُهـا وتمنيتُهـا بـل ووافقتهـا عـلى جميـع شروطهـا أيضًـا.

- فريـد.. إنـت مـش هاتنـزل مـصر تشـوف بناتـك ولا إيـه؟ بقالـك هنـا ١٠ شـهور مـا سـافرتش ولا مـرة.

- غريبة.. وإنتى إيه اللي فكرك ببناتي دلوقتي؟

- ومين قالك إني نسيتهم..!!

- ربنـا يخليـك ليَّ يـا لولـو.. طيـب تحبـي نحجـز وننـزل إمتـى؟

ـ نحجـز؟ تقصـد تحجـز إنـت وتنـزل إنـت يـا حبيبـي لوحـدك.. أنـا مـش هانـزل مـصر خالـص.

ـ نعـم؟ مـش هاتنـزلي خالـص؟ ليـه إن شـاء اللـه؟ مـش المفـروض إنـك إتجـوزتي ومـا ينفعـش تقعـدي لوحـدك مـن غـيري هنـا يـا ليـلى.. يبقـى ننـزل سـوا يـا حبيبتـي.

ـ هههههـه مـا ينفعـش إيـه يـا فريـد؟ أقعـد لوحـدي؟ إنـت نسـيت اتفاقنـا قبـل الجـواز ولا إيـه؟

فريـد.. إنـت لمـا جيـت هنـا لاقتنـي مـع بابـا وماما؟ أنـا اتعـودت عـلى إني أكـون لوحـدي يـا فريـد وكان شرطـي عليـك إنـك مـا تقيـدش حريتـي يـا حبيبـي.

ـ وإيـه الـلي يمنـع حريتـك لـو نزلتـي معايـا إجـازتي أو رُحتـي معايـا في أي مـكان أكـون فيـه يـا روحـي؟

ـ خليني أحبـك زي مـا أنـا يـا فريـد.. إنـت روح لبناتـك ومراتـك وغيـب زي مـا تحـب.. سـافر وتعـالى هاتلاقيني- أنـا مراتـك مـش هاسـيبك- بـس كـمان مـا تخنقنيـش.. عيـش حياتـك وأنـا أعيـش حيـاتي بـردو، ومـا تخافـش هاكـون مسـتنياك أي وقـت تحـب تجينـي فيـه.

ـ إحنا متجوزين يا ليلى.. مش أصحاب!

ـ وهـو في أجمـل مـن أننـا نكـون أصحـاب ومتجوزيـن يـا فريـد!

ـ أنـا مـش قـادر أسـتوعب الـلي بتقوليـه يـا ليـلى؟ بعـد مـا لاقيتـك وجـددتي كل الذكريـات والأحـلام الـلي فاتـت؟ طيـب إنتـي كنتـي أحلامـي.. أنـا كنـت إيـه بالنسـبة لـك يـا ليـلى؟ وبقيـت إيـه؟

ـ إنـت الـلي نكشـت صنـدوق الذكريـات يـا فريـد، قلّبـت الصـور كلهـا وشـغلت بـاك جراونـد موسـيقى كنـت بحـن لهـا سـاعات.. إنـت عملـت ريفـرش لحالـة الـبرود الـلي اعتـدت عليهـا هنـا في النمسـا.. لا أهـل ولا عـرب ولا حـد يفكـرني باللغـة حتـى.. ظهـرت لي فجـأةً ومعـاك كل ده في وقـت كنـت ملّيـت فيـه أنـا مـن بـرودة كل شيء.. وإنـت فاكـر كويـس إنـك إنـت الـلي ألحيـت عليَّـا عشـان نتجـوز وفضلـت تطـاردني وسـيبت كل الـلي وراك وقعـدت لي هنـا..

ـ ألحيـت عليـكي؟ وطاردتـك؟ عشـان بحبـك وكنـت عـاوز نتجـوز!

ـ لأ يـا فريـد.. خلينـا واضحـين أكـتر.. إنـت إتجوزتني عشـان تحقـق رغبـة لـك قديمـة مـا نسـتهاش.. مـش بـس عشـان كنـت بتحبنـي وإحنـا عيـال.. وأنـا كـمان قعـدت ١٠

سنين أرملة وغريبة في بلد هي بقت بلدي خلاص.. يعني كانت شركة متكافئة بينا.. إنت اشتريت الحب والرغبة وأنا اشتريت الوَنَس والتغيير.

- لا، تقصدي إني أنا اللي إشتريت وإنتي اللي بعتي.. أنا ما خبيتش ولا منعت عنك حاجة، لا حب ولا مشاعر ولا أملاك ولا فلوس.. ما كنتش عاوز مقابل إلا الدفا اللي إنتي كمان مفتقداه.

- طيب، أنا افتقدته بغربتي وبموت جوزي.. وإنت؟ ما مراتك وبناتك موجودين.. ليه سبتهم عشاني؟ زي ما سبتهم النهارده عشاني بكره هاتسيبني عشان غيري.

- لو هي دي نظرتك يا لولا ليَّا.. يبقى فعلًا لازم ناخد وقت نبعد تاني عن بعض ونشوف كل واحد وتقييمه للتاني إيه؟

- لأ يا حبيبي مش تقييم ولا حاجة، أنا بحبك وإنت بتحبني، كل واحد بيحب التاني بطريقته. مش مهم نشرحها ونفصصها لبعض.. كفاية إن كل واحد فينا مبسوط ومحقق السعادة اللي محتاجها، بلاش نفقد معنى حلو بأننا نقننه ونحسبه، نمنطقه بطريقتنا.. سافر يا حبيبي وتعالى وقت ما تحب هاتلاقي

حبيبتـك وعشـيقتك ومراتـك مسـتنياك، مـا تخليـش الحـب يقيدنـا، خـلّي فيـه حريتنـا أحـلى.

***

كان لزامًـا أن ينتهـي الحـوار عنـد هـذا الحـد.. لم تـترك لي ثغـرةً ألتمـسُ منهـا العـذر لمـا تقـول.. فهـي لم تكن منفعلـةً أو غاضبـةً، بالعكـس كانـت تتحـدث بـبرودٍ تـامٍّ وهـدوءِ أعصـابٍ لم تعـلُ نـبرةُ صوتهـا أو ترتجـف.. وكأن الحـوارَ هـو أغنيـةٌ تترنـم بهـا أثنـاء لحظـاتِ اسـتجمامها.. ولم تشـعر بـأن رمـادَ سـيجارتها التـي كانـت تُدخنهـا أشـد تماسُـكًا مـن فتـات قلـبٍ أحملـه بـين أضلعـي لحظـة تلقيـه أسـهمها المُقننـة صوبـه مبـاشرةً دون أن تُخطـئ..

***

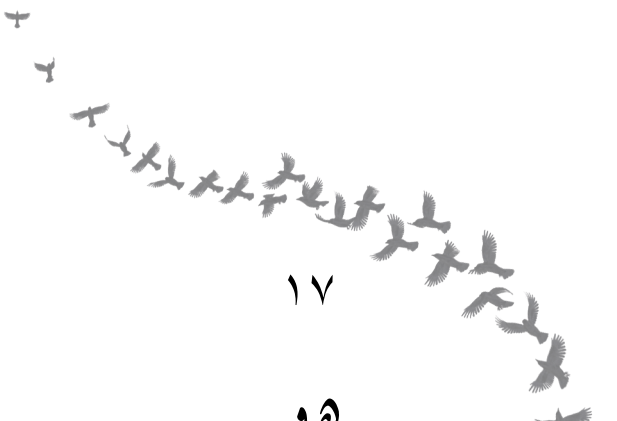

١٧

هو

مـرَّت أيـامٌ وأيـامٌ لا أعلـم عددهـا، ولكنـي استشـعرتُ ثقلهـا.. حاولـتُ تخطيهـا واجتيازهـا بعـدة محـاولاتٍ فـما فلحـتْ معـي إلا الصـلاة والتسـابيح.. سـاعدتني كثـيرًا في أن أوازن حيـاتي مـع الصدمـات التـي أتعـرَّض لهـا تباعًـا.. زواج فريـد- أحـلام يقظـة- كـذب نشـوى.. ومـع كل هـذا كان هناك إحسـاسٌ لم يُبارحنـي، إحسـاس الراحـة واللهفـة معًـا.. شـعوري بالارتيـاح نفسـه كان مرجعـه اللهفـة لرؤيـة ذاك الحلـم مـرةً أخـرى، لهفـة لرؤيـة هـذا الكيـانِ السَّـاحرِ الـذي احتـواني بطيفـهِ فقـط.. حتـى إننـي صرتُ أبتسـمُ قبـل أن أغمـضَ عينيَّ قبـل النـوم.. وكأننـي عـلى موعـدٍ مرتقـب وسـلواي الوحيـدة بعـد لحظـاتٍ ودخـولي إلى عالمـه يبـدأ بغمـض جفنـيَّ وكأني

أطبقهـما عـلى أحلامـي حتـى أحتويهـا وأحتضنهـا برمـوشي.. يوم واثنان وثلاثة ولم أرَه..

فتحـت الصـورة المتطابقـة إلى حـدٍّ كبـيرٍ مـع المواصفـات التـي رأيتهـا بالحُلـم الـذي غـيَّر مـذاق حيـاتي مـن وقتهـا.. وحادثتهـا.. وحادثنـي هـو..

ـ ليه بعدتي وإنتي كنتي خلاص قرَّبتي من الطريق؟

ـ طريق!! طريق إيه؟

أنـا كنـت عـاوزة أقـرَّب منـك أنـت.. فريـد رمـاني ونشـوى خدعتنـي.. مـا ليـش غـيرك أنـت.

ـ نزوة.. فريد بيمرّ بنزوة فقط ومش هاتطول.

ـ نزوة! ده إتجوز اللي بيحبها مش نزوة.

ـ النـزوة حـب يـا نـدى.. بـسّ حـبّ مـا لـوش أسـاس مرهـون بحـب أقـوى منـه ينزعـه منـه.. وفريـد بيحبـك إنتـي وولادك حـب أقـوى مـن نزوتـه دي.

ـ أنـا مـش عـاوزاه خـلاص.. أنـا عـاوزة أكمـل الطريـق الـلي شـفتك فيـه ومعـاك.

ـ الطريق قدامك.. بفريد أو من غيره.

ـ طيب خد بإيدي ووريهولي.

ـ إنتي اللي هاتروحي لوحدك.. مفتاحه معاكي إنتي مش مع غيرك وساعتها هاتلاقيني هناك.. مستنيكي ومش لوحدي كمان.

ـ مش لوحدك إزاي؟ ومين هايكون معاك؟ وأنت مين طيب؟ وهاشوفك فين وإمتى وإزاي؟

..

كالعادة اختفى من أمامي وأكملت حواري مع نفسي حتى إن ابنتيَّ اعتادتا عليَّ وأنا أتكلم مع نفسي.

لا أعلم مَن أنت ولا مِن أي زمنٍ وهل أنت بالفعل موجود أم أنني واهمة.. هل سيأتي يومٌ والحُلم يُصبح حقيقة.. بل بالفعل أصبحت أحيا الحُلم كواقعٍ.. صرتُ أراه بلا ملامح مُحددة في كل ما حولي.. هو من يُوقظني للصلاة في وقتها.. هو مَن يُلهمني التسابيح وقتما أكون غاضبةً.. هو مَن أغمض عينيَّ لأراه بوضوح.. هو.. هو.. مَن هو؟!!

لئن يُصبح هناك مَن يكون عينيك اللتين ترين بهما ونبضك الذي به تحيين.. وروحك التي تعلو وتسمو، تختلف الدنيا من حولك.. أصبحتُ أرى بعينيه وأحيا بقلبه، تُرافقني روحه بكل لحظةٍ ومكانٍ.. علمتُ الآن أن الحب لا يعرف جنسًا أو عمرًا أو زمانًا.. دين العشق لا مذهب له،

لا عُمر، لا جنسية.. تُبهجني تلك الراحة التي أشعرُ بها والطمأنينة والإحساسُ بالحب وإن كان دون شريكٍ واضحٍ. فقط معنى يُطمئِن فؤادي له ويطيبُ له خاطري.. روح تملؤني بهجةً ولا يعلم سر الروح إلا الله.. إذن فلله سلمتُ أمر قلبي ونفسي وهو بي أعلم.

بَعُدَ المكان واختلف الزمان وما زال يملأ حواسي.. وما زلت لا أدري هل هو العشق؟ وإلى أين يأخذني معه لا أريد أن أعرف ولا أن أعي ولا أن ألمس الأرض..

أحببتُ حالتي تلك، وددتُ أن تستمر ولا أفيق منها.. هي نجاتي من واقعي المظلم، هي نجاتي من ذكريات وجدي وفريد.. ممن كُتِب عليَّ أن يُقترَن اسمي بهما كطليقي والآخر كأبٍ لبنتيَّ لآخر العمر..

تُرى.. مَن ومتى سيكون بجانبي مَن تقترنُ به روحي يقبل اسمي، متى يأتي من يُرافقني دنيا وآخرة؟ وهل هو بالفعل موجودٌ أم محض سراب؟

وهل من حقي أن أحيا كباقي البشر؟

لم يعد يشغلني القادم قدر ما وسعني وأحاطني الحاضر.. تبًّا لك ماضٍ كُتِبَ عليَّ فقط لأنه قدري وارتضيته.. فشئت أم أبيت هو "قدري".

انتهت السنةُ الدراسيةُ لفرح وهنا.. وجاء وقتُ سؤالهما عن بابا.. ولِمَ تأخر عن الحضور إليهما هذه السفرة.. كانتا قد اعتادتا على ألا تطول مدة سفره خارج مصر أو بعيدًا عنهما تلك الفترة والتي لم تستشعراها لمزامنتها الدراسة والواجبات والنوم مبكرًا وهكذا.. الآن بدأت العطلة والتخطيط لقضائها.. فأين بابا يا ماما؟

- بابا في شغل زي ما قلت لكم.. هياخد أجازة وييجي قريب إن شاء الله.
- كلميه يا ماما خلليه ييجي بسرعة هو وحشنا أوي.. قوليله عاوزين نروح البحر سوا مع تيتة وعمتو زي السنة اللي فاتت، عاوزين نتفسح كلنا مع بعض.
- حاضر حاضر.. أول ما يتصل بيا بعد ما يخلص الشغل بالليل هاقوله.
- لأ.. خليه يكلمنا إحنا كمان لما يتصل بيكي قولي له يكلمنا.

..

..

وضح من لهفة البنتين على أبيهما أنهما بالفعل افتقداه.. وشعرتا بغيابه.. أما أنا!!!

فحتى الآن.. لم أشعر إلا بوخز الخيانة.. وإن كان حقه أن يتزوج.. ولكن من حقي أنا أيضًا أن أرفض تهميشي بحياته أو وضعي في المرتبة الثانية من اهتماماته حتى وإن كانت مكانتي بها أهم من ليلى كاستكمالٍ لشكلٍ اجتماعي يُحافظ عليه أمام المُحيطين فقط..

***

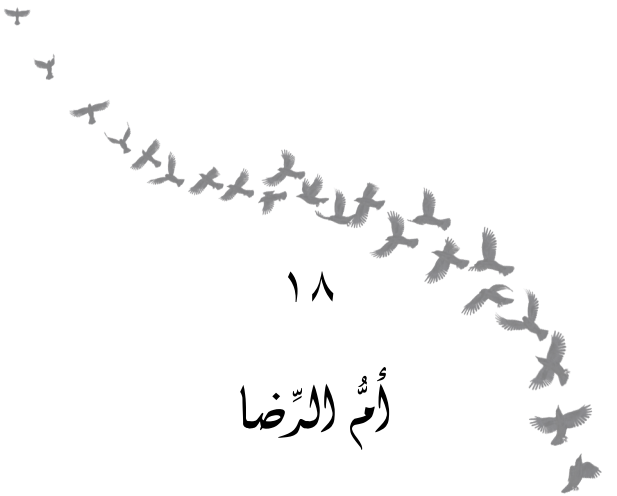

١٨

أُمُّ الرِّضا

ما فعلته نشوى بي.. وحتى الآن لم أستوعب ما حدث منها أو منه.. ما حدث جعلني أنفر تمامًا من الدخول إلى الجروب أو حتى الاقتراب من النت وهو ما كان يربطني بهن جميعًا.. وما يُدريني هل من بالجروب يندرجن تحت وصف "هن" أم "هم"!!

هل كل منهن تكتب بحقيقتها؟ بشخصها أم أنها مزورةٌ أيضًا؟

هل ما نتداوله فيما بيننا من صور أو مواقف وحكايات، وهي بطبيعة الحال عادية جدًّا، ولكن جزء الخصوصية فيها كبير، أفقدني شريف الثقة بكلِّ من

تبقى حولي.. حتى إنني قررتُ أن أدخل لهن وأعرفهن بشخصية نشوى وما احتالت علينا به.. ولكني تذكرتُ أن حوارنا قبلها كان على اختفائها الغامض وانسحابها من كل حواراتنا بل من الجروب بأكمله..

ولكن مَن يدري.. ألا يجوز أن يكون ما زال يقوم بنفس الدور الذي قام به معي كنشوى مع غيري؟ أنا التي تماديتُ في الحوار، كنتُ أثقُ بنشوى لا بشريف، ربما يكون دوره قد تعدَّى الكلام مع إحدانا وبدأ في استقطابها تجاهه وهو يعلم جيدًا حاجة كل منا ومواطن الضعف عندها، أو ربما ابتزَّ إحدانا بالأموال حتى لا يفصح عن سرٍّ ما أفضتْ به إليه كنشوى؟ أسئلةٌ كثيرةٌ واستفساراتٌ دارتْ بذهني وزادتْ من توتري..

توجهتُ إلى اللابتوب ولم أجد أونلاين غير ماريان، وقد كنتُ افتقدتُ حديثها المشاكس وربما كنتُ أحتاجُ بالفعل لمن يُخرجني من دوامة التفكير تلك.. ولكن ما حدث بيننا من حوارٍ كان مفاجئًا لي..

فما إن فتحتُ معها الحوار وتساءلتُ عن أحوالها وجديدها وكذا هي.. فاجأتني ماريان بفكرةٍ من أفكارها الغريبة وعباراتها الحرة التي لا تربطها أي قيودٍ لفظًا أو معنى وسألتني مباشرةً عن تصوُّرٍ جال بخاطرها.. ماذا لو

أصبح العالم ليومٍ واحدٍ بلا قوانين ولا أديان ولا عادات ولا تقاليد ولا أسماء ولا جنسيات.. ماذا لو استيقظنا يومًا على أن نصبحَ جميعًا بلا فوارق زمنية أو عقائدية.. ماذا لو أُنتزِعَ الخوفُ والعيبُ والحرامُ من قواميس اللغة والعُرف.. ما هو الفعل أو الأمنية التي ستكون أول شيء تفعلينه؟ فكرتُ مليًا بالأمر وذهب عقلي وخيالي يتقدمه إلى ما بعد الخيال بمراحل.. حاولتُ أن أتجرد من تركيبتي النفسية والعقلية.. أتحول عما نشأتُ عليه وما اضطررتُ لتقبُّله.. في السابق ربما تمنيتُ أن تأتي لي مثل هذه الفرصة لكنتُ فعلتُ وفعلتُ وفعلتُ.. لكن الآن ماذا لو حدث بالفعل؟ حرتُ كثيرًا في مجرد التفكير أو التخيل.. لم أعرف ردًّا معينًا.. فقط وجدتُني أحنُّ لطفولةٍ مدلَّلة ورعايةٍ خاصةٍ، لعَلاقةِ حب بريئةٍ مع ابن الجيران، كانت كلها أحلام مراهقة لا تعدو أحلامًا بريئةً لا توجد بها أطماعٌ أو شهواتٌ.. كنتُ سألتحقُ بالجامعة وأدرسُ الموسيقى والشعر واللغة، سأنهي دراستي بتفوق.. سوف أكون أول امرأةٍ تجتازُ مراحل الجامعة كلها في شهور.. سأدرسُ الرقص والموسيقى بشكلٍ مختلفٍ.. سأحترفُ الرقص الإيقاعي والتعبيري وأجعل من اسم "ندى أبو الفتوح" علامةً لفنٍّ جديدٍ يختص بالنساء فقط، سأنسج لوحاتٍ بديعةً من الموسيقى والشعر والرقص كلها تهدفُ إلى الحرية من كل شيء، من كل قيد،

الحريـة متجسـدةً ومُلحنـةً ومـؤداةً.. سـأختارُ فتـى أحلامـي وأحيـا معـه بقمـة جبـلٍ أو جزيـرةٍ نائيـةٍ أو ربمـا صحـراء شاسـعة وأنسـج أعـذب قصـة حـب نلهـو ونبـكي ونغـدو ونـروح معًـا.. سـأحيا يومًـا بـكل أيامـي، لـن يُقيـدني جنـسي، لـن أراعـي كـوني أنثـى لهـا محرمـات وممنوعـات، سـأفعل كل مـا أراه يحلـو لي، لـن أنـام إلا إذا فقـدتُ تـوازني ومـا عـدت أسـتطيع الوقـوف أو فتـح عينـيَّ، سـألتهم اللحظـات ولا أفلتهـا سـأحطِّم كل قيـدٍ يمنعنـي مـن تحقيـق رغبـاتي، سـأكون امـرأةً قويـةً بـل ذات جـبروتٍ يطغـى عـلى كل الرجـال ويحطِّـم غـرور وسـطوة أيٍّ منهـم إن اعـترض تحقيـق مـا تمنيتـه.

انتبهـتُ لنفـسي ومـا في مـلء جعبتهـا وفـاض منهـا لمجـرد فكـرة خياليـة طرحتهـا ماريـان عـليَّ وحاولـتُ أن أبـدو أكـثر فطنـةً ودهـاءً منهـا فقلبـت الدفـة تجاههـا بصيغـةٍ مرحـةٍ وسـاخرةٍ.. قائلـة لهـا:

ـ قـولى لي إنتـي كنـت هاتعمـلي إيـه؟ ولا مافيـش حاجـة ماعملتيهـاش لسّـه!!

لم تخجـل إطلاقًـا.. عهـدي بهـا أن تكشـف مـا لديهـا دون تحفُّـظ.. كان ردُّهـا عـلى سـؤالٍ رمَتـه كـشَرَكٍ لي فوقعـتْ هـي فيـه.. قالـت بـلا تفكـيرٍ ستُسـقط مـن وزنهـا بعـض الكيلـوات.. سـترتدي مـن الملابـس مـا يُظهـر أكـثر مـما يسـتر.. سـتجعل

كل الشـباب والرجـال يتمنـون أن يهنَـأون لحظـةً بضمتهـا ولكـن هـي لـن تكـون سـوى لرجـلٍ مثـل "حسـين".. دكتورهـا بالجامعـة وقـت أن كانـت طالبـةً وأول وآخـر رجـلٍ شـعرتْ بنبـض الحـب لـه.. هـو مـن يكبرهـا بسـنواتٍ نصـف عمرهـا تقريبًـا أحبتـه وكان مثـالًا لرجـلٍ تمنـت أن يتزوجهـا.. قالـت لـو أن الزمـن توقـف ولا ديـن ولا عُـرف ولا قانـون.. فـورًا كنـتُ تزوجـت أو حتـى عشـتُ معـه بـلا أوراقٍ ولا ضمانـاتٍ، وجـوده فقـط أكـبر ضـمان لسـعادتي ولـن أعبـأ بـأولاده أو زوجتـه، كنـتُ سـأعيشُ أجمـل لحظـاتي معـه، سـأجترُّ بداخـلي عطـر أنفاسـه لتنعشـني باقـي عمـري مـن حـالات الاختنـاق التـي أتعـرض لهـا بسـبب نقـص وانعـدام نسـمات الحنـان والرغبـة.. مـن خصـلاتِ شَـعره الأبيـض سـأغزل شـالًا يحتوينـي ويقينـي صقيـع المشـاعر في شـتاء قـارصٍ أعيشـه الآن بدونـه.. كنـتُ سـأجعل صـدره صومعتـي أتلـو فيهـا صلـواتي وترانيـم محبتـي.. أقـدس لـه وجـوده بحيـاتي لتلـك اللحظـات.. أحيـا بفتـات لقائـه حُلـمًا.. أقـدِّم نفـسي لـه قربانًـا لتلـك اللحظـات.

ـ إيـه ده يـا ماريـان حيلـك حيلـك.. ده حـرام. إنتـي مسيحية وهـو مسـلم.. هـو متجـوز وعنـده عيـال كمان.. ضحكت وضحكت وضحكت.. وقالت:

ـ حـرام إيـه بـس يـا نـدى.. حـرام عليـكي إنتـي يـا شـيخة. إنتـي نسـيتي مـش قلنـا ليـوم بـس لا ديـن ولا زمـن ولا

عيب.. حتى الحلم يا ناس؟ حتى الحلم هايبقى متراقب!

لحظتها فقط عذرتها وتعاطفت معها.. مسكينة الأنثى عندما تكتم رغباتها ولا تستطيع البوْح بها.. خشية العادات والتقاليد.. تخيلت لو أن هذه الحظات أتيحت لشذا لكانت حلَّقت في السماء باحثةً عن أراضي أحمد لتهبط إليها.. ولشريف لأن يظهر بصورته وربما.. بحث عنِّي أيضًا.

الأحلام.. ملاذُ كل من لا حِيلة له.

اااااه رأسي كاد ينفجرلم يعد لي ملجأ بعد الله.. سوى أن أكتم ما أنا فيه عن الكل، إلا.. الورق.

عاودتُ ما كنتُ اعتدته في مراهقتي وصباي وقت كنا بالخليج.. وقت أن كنت وحيدةً بين أهلي وصديقاتي.. كانت رسائلي "لعهد" هي سلوتي.. عدتُ من جديدٍ لسلوتي وملاذي.. بالطبع ليست "عهد".. ولكنها لـ "الورق".

أصبحتُ أقضي الساعات ولا أعلم كم منها مضى ما بين الأوراق والموسيقى.. استحضرتُ كل ما مرَّ بي من الطفولة في العباسية والمراهقة خلال سفرنا بالخليج وحتى ما أشعر به من صدماتٍ وارتطام الحُلم بالواقع والعالم الافتراضي الذي تُهت به أيامًا وشهورًا وبين عالمي الجديد الذي

أحياه.. ظللت أكتبُ وأشرد بذاكرتي وأعودُ لأكتب حتى داهمني الوقتُ ذات مرةٍ وانتبهت لصوت أذان الفجر وتبعه صوت الكروان..

الكروان، أَحَب أصوات الطبيعة لديَّ.. تسبيحته التي يسطو بها على فؤادي-الملك لك لك لك- أصابتني برجفةٍ وسعادةٍ وكأن شيئًا ما يُحركني من مكاني، يهمسُ لي أن أرافقه إلى هناك.. إلى أين؟!! مكان ما قابلت أم الرضا، ووجدتُ نفسي هناك.. بل ومعها أيضًا.

ـ اتأخرتي عليَّا أوي يا ندى.

ـ كنتي مستنياني؟ عارفه إني جاية؟

ـ مش جايز إنتي اللي مستنياني؟ مستنية حل لعلامات الاستفهام اللي عندك دي؟

ـ أيوه يا راضية أنا فعلًا مستنياكي، مستنية أي حدّ يفهمني اللي بيحصلي ده.. مين اللي بيجيلي في كل حلم ده؟ مين يا راضية؟ مين اللي حاسة إنه جنبي أوي وكلامه كأنه من جوايا ومش عارفة أشوفه ولا أحدد ملامحه؟ إنتي عارفه.. قولي لي مين، مين يا راضية؟

ـ فاكره مجدي يا ندى؟

ـ مجدي؟!!!

استوقفتني مفاجأةٌ راضية واستفهامها عن الاسم الذي جعلني أحملق بها بتعجب.. اقشعرَّ بدني جميعُه لذِكرها تلك الجملة "فاكرة مجدي يا ندى"!!

وكأن عربةً انزلقت من أعلى منحدرٍ بكامل سرعتها، استحضرتُ ذاكرتي لسنواتٍ مضت وتعجبت من تذكري لموقفٍ وحيدٍ جمعني بهذا الاسم وهذا الشخص- مجدي- لم أنسَه ولكن لم يأتِ ما يجعلني أتذكره يومًا ما.. فقد كان منذ أكثر من ثلاثة عشر عامًا.. وتحديدًا في العطلة الوحيدة التي بها زرنا خالاتي بالأرياف لحضور عُرس ابنة خالي.. كنتُ في الخامسة عشرة من عمري تقريبًا.. وكما كان ملحوظًا للجميع أن هيأتي وملامح الأنوثة التي بدت عليَّ مبكرًا كانت تجعل مَن يراني يتوهم سنًّا أكبر لي من عمري الحقيقي..

كان الجميعُ مشغولين بالإعداد لحفلِ عُرس ابنة خالي في مساء ذلك اليوم.. هناك مَن يُجهز الطعام والحلوى بكمياتٍ كبيرةٍ وبمساعدة نساء القرية اللاتي كنَّ يتبادلن الأغنيات والغمزات والضحكات للنيْل من استفزاز أم العروسة وابنتها بشكلٍ ألِفَ عليه أهلُ القرى في مثل هذه المناسبات.. لينشرن حالةً من البهجة والضحك في

هـذا اليـوم.. وبـين أطفـالٍ مـن كل الأعـمار تحـوم وتمـرح هنـا وهنـاك.. كنـتُ كعـادتي أسـتقطبُ أماكـن الهـدوء وألجـأ إليهـا.. والمنـزل في ذلـك اليـوم لم يكـن بـه مـكانٌ هـادئ، الصخـب والفرحـة والحركـة في كل أرجائـه.. صعـدتُ فـوق سـطوح المنـزل أبحـثُ عـن الهـدوء لمتابعـة لحظـات الغـروب التـي كانـت مـن أمتـع اللحظـات التـي رسـخت بالذاكـرة عـن ذكريـات الريـف، فالـشروق والغـروب حالتـان نمـرُّ بهـما جميعًـا كل يـوم والقليـل منـا مـن يتدبـر بهـما وأنـا عاشـقة لقُـرص الشـمس في كلتـا الحالتين..امتـلأ السـطوح بعشـش الدواجـن وبعـض الزراعـات والنباتـات البسـيطة وأعـواد الـذرة والحطـب الـذي كان يُسـتخدَم كوقـود لطهـو الطعـام أو الخبيز في أفـران ومواقـد خاصـة بذلـك..

جلسـتُ فـوق أعـلى مـكانٍ في السـطوح أترقـبُ أسراب الحـمام وهـي ذاهبـة لأعشاشـها قبيـل الظـلام.. ومـا بـين بدايـات ظهـور النجـوم وأسراب الحـمام ونسـمة الهـواء الصافيـة، أغمضـتُ عينـيَّ لحظـاتٍ.. وعندمـا فتحتهـا- وجدتـه أمامـي- عـلى بُعـدٍ لا يزيـد عـلى طـول ذراعٍ واحـدٍ منِّـي.. التفـتُّ حـولي مـن كل اتجـاهٍ لم أجـد سـواه.. كانـت نظراتـه تُخيفنـي فهـو جـارٌ وصديـقٌ لأبنـاء خـالي أعرفـه مـن وصفهـم لـه عـن أخلاقـه وعـن صوتـه الجميـل حـين يُغنـي في مناسـبةٍ مـا أو سـمرٍ يُقيمونـه..

ـ إيـه ده؟ مجـدي! إنـت جيـت هنـا ليـه؟ وعـاوز إيـه؟ مـا تخافيـش منِّـي يـا نـدى.. أنـا مـا أعرفـش الـلي جـرأني وخـلاني أنـط مـن سـطوح بيتنـا لمـا شـفتك هنـا.

ـ لـو سـمحتْ اتفضـل إمـشي مـن هنـا بسرعـة قبـل مـا أصرَّخ والنـاس تتلـم علينـا دلوقتـي.

ـ نـدى أنـا بحبـك أوي.. مـن سـاعة مـا شُـفتك وإنتـي مـش مخليـاني أشـوف غـيرك حتـى وإنتـي مش هنـا.. أنـا قربت أخلَّـص كليـة وممكـن أتقـدم لبابـاكي وأخطبـك ونتجـوز. إيـه الـلي بتقولـه ده يـا مجـدي.. لـو سـمحت انـزل فـورًا مـن هنـا، أو وسَّـع لي السـكة عـاوزة أمـشي.

كان يقـتربُ منـي بحـذرٍ وعينـه الحائـرةُ اللاهثـةُ الجائعـةُ تـدور في فلـك ملامحـي مـا بـين عينـيَّ وشـفتيَّ ورقبتـي في حـيرةٍ وتوتـرٍ.. اقـترب منـي وأنـا مـادَّةٌ ذراعـيَّ أمامـي في وضـعٍ يدفعـه عنـي إذا زاد اقترابـه.. كنـتُ أرتجـفُ ولكنـي لم أسـتطع الحـراك.. فقـد كنـتُ بمـكانٍ مرتفـعٍ جـدًّا وبـلا أسـوارٍ، كل مـا فعلتـه أننـي سـقطت عـلى ظهـري رافعـةً يـديَّ إلى السـماء في وضـعٍ يحـولُ بينـي وبينـه.. حتـى اقتربـتْ أنفاسُـه منِّـي وأنـا باكيـةٌ وغـير قـادرةٍ عـلى الحـراك أو حتـى الـصراخ، فضخامـة بنيتـه بالنسـبة لبنيتـي الرقيقـة والضعيفـة وقتهـا وضيـق المـكان وارتفاعـه حـال بينـي وبـين الهـروب منـه.. وإذا بـه

فجـأةً تتحـول نظـرة الاشـتهاء التـي كانـت بعينـه إلى نظـرة وجـومٍ وترقُّـب وكأنـه شُـلَّ أو فقـدَ القـدرة عـلى التنفـس.. انتهـزت تلـك اللحظـاتِ ومـررتُ مـن تحـت ذراعيْـه مسرعـةً ألتهـم الخطـوات حتـى وصلـت أول غرفـة قابلتنـي في المنـزل دخلتهـا واسـتغرقتُ في بـكاء هسـتيري.. ولحُسـن حظـي لا أعلـم أم مـاذا.. لم يُلاحظنـي أحـدٌ مـن هـرج ومـرج المـكان فقـد كان الوقـت قـد دخـل في الليـل وحـان وقـتُ الاحتفـال بالعُـرس.

ـ ندى.. سرحتي في إيه؟ افتكرتي؟

ـ إنتي عرفتي منين؟

ـ احكي لي اللي حصل بعدها!

ـ هو إنتي عارفة اللي حصل؟

ـ إحكي يا ندى.. إيه اللي حصل بعدها؟

ـ بعدهـا مجـدي كتـب لي جـواب.. وهـو بيسـلم علينـا وإحنـا مسـافرين بعـد الفـرح بيومـين خبَّـاه في جيبـه وإداه لعـادل أخويـا الصغـير جـوه مجلـة ميـكي وتعمـد يلفـت انتباهـي ويعـلّي صوتـه وهـو بيسـلم عـلى عـادل..

"ابقـى اقراهـا وإنـت في السـكة يـا عـدول.. اتسـلى وافتكـرني لمـا توصـل بالسـلامة"

كنتُ لاحظت أنا الورقة اللي حطها جوَّه المجلة وعرفتُ أنها بالتأكيد لي.. مع إني تعمدت أبين له جداااا إني مش عاوزة أشوف وشه وده كان حقيقي.

ـ ها، ولاقيتي إيه في الورقة دي يا ندى.. فاكرة؟

ـ آه طبعًا..

"عزيزتى ندى":

مش عارف إيه اللي حصل!!.. إنتي مين وإزاي كده؟ كل اللي عاوزك تعرفيه إني فعلًا بحبك.. وكان نفسي جدًّا أتقدم لباباكي وأخطبك لكن الظاهر إنك مش مكتوبة لبني آدمين يا ندى.. ما تستغربيش اللي شفته أنا محدِّش هايقوله لك غيري.. لمَّا شفتك قاعدة وسرحانه في السما على السطوح.. قلت هي دي الفرصة الوحيدة اللي هاقدر أكلمك فيها.. وما كنتش ناوي أقرب منك خالص كان نفسي أتكلم معاكي وبسّ.. أسمع صوتك وأبص في عينيك وأملِّي عيني منك وبس.. لكن أنا لاقيت قدامي فجأة ملاك.. ملاك بجدّ مغمّض عينيه وسارح في دنيا تانية.. نسمة الهوا والغروب ووشك الجميل خلاني ما أحسش أنا فين وهاعمل إيه.. وبمجرد ما قربت منك وإنتي مديتي إيديكي تبعديني عنك أنا لاقيت نظري اتسحب.. ما شُفتش قدَّامي غير بياض.. كأن في لوح من

إزاز وضباب أصبح بيني وبينك قوي لدرجة إني حسيت إن حاجة بتدفعني لورا.. ما لقتش أي تفسير للي شفته وما حسيتش بالدنيا إلا بعد ما انتبهت على صوت الزغاريد تحت البيت.. اتسحبت مكان ما جيت ونمت وكأني في كابوس مش عارف ولا حقيقة..

ندى.. أنا آسف.. أنا آسف إني قرَّبت من ملاك زيك.. إنتي مكانك مش وسطينا.. ربنا يحفظك/ وسامحيني".

- وعرفتي دلوقتي مين يا ندى اللي بتشوفيه في الحلم؟ مين اللي قالك إنه مستنيكي على الطريق؟

- راضية.. أنا خلاص ما بقتش عارفة حاجة.. إنتي مين وهو مين وعرفتي حكاية مجدي إزاي؟ وعرفتي اللي بفكر فيه إزاي؟ ولو هو مش حقيقة يبقى إنتي كمان مش حقيقة!!

- إهدي بس.. أصلك فعلك يا ندى.. وإنتي أفعالك كلها طيبة حتى لما بتغضبي بتكتمي غضبك ما بتزعليش حدّ.. فعلك طيب وأخلاقك طيبة وأصلك من روح طيبة.. وروحك بتحنّ لأصلها دايمًا ولا يمكن اللي أصله طيب يقع في معصية ولا يقدر عليه شيطان إنس أو جن..

- الروح الطيبة دي إزاي تتوجد في وسط ناس خداعة ومنافقة وخاينة كده؟ إزاي تتعامل مع ناس كل همهم دنيا وبس! هو ممكن نبقى ملايكة في زمن مليان شياطين؟
- الوردة أصلها بيكون فين؟ جدرها يعني فين؟
- في الأرض.. في الطين.
- تمااااام الواحد لما بيشوف الوردة وتسر نظره بشكلها وألوانها وريحتها بيبقى عاوز يقطفها وياخدها من مكانها عشان يستمتع بيها هو لوحده، ما بيفكرش إن أهم جزء منها موجود في الطين.. جذورها اللي سبب وجودها وجمالها في الطين ومحدّش بيشوف الطين ده لأنه مخفي مع إنه سرّ حياتها.. يعني لو اتخلعت منه تموت.. الروح بقى هي المسئولة عن الجمال والبهاء ده محدش بيشوفها بسّ يحسّ بيها الكل، لو صحت الروح يصح البدن، الوش ينور والقلب يرق.. الوردة تبقى صحيحة وبهية لما تربتها وطينتها تكون عفية وسليمة، وتربة الإنسان اللي منها اتخلق التراب.. الطين.. لما يصح حياتنا كلها تصح.. نقي روحك يهدا بالك ويرتاح فؤادك.

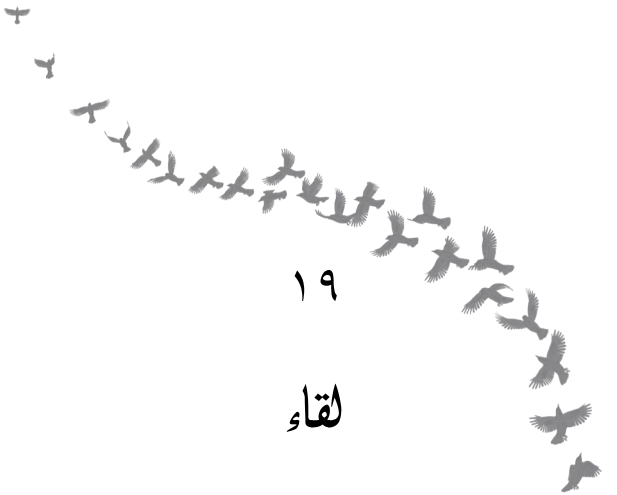

١٩

لقاء

لم يكن أمامي اختيارٌ لاستيعاب ما قالت ليلى سوى أن أقطع وهمي أو ما أسميتُه حُلمي باستقراري معها إلا بالعودة إلى بنتيَّ.. بعد أن حاولتُ أن أغيِّر مسار تفكير ليلى المنفتح على عاداتٍ وحيواتٍ مختلفةٍ هي ما راقتها في بُعدِها عن مصر وتأقلمت وانصهرتْ قلبًا وقالبًا في خارجها.. ربما هي كانت أشجع منِّي فباحتْ ليس لي فقط كزوجها بل للكون بأكمله أنها وهي- امرأةٌ- عشقت الحرية وباعت من أجلها كل ما يُقيدها أو يحرمها ولو جزءًا منها حتى إنها عندما تزوجتها كان بشروطها هي على ألا أنتقص من حريتها شيئًا وأنا قبلتُ.. إذن عليَّ أن أقبل أن تكون لي- عشيقة- بمسمى وحقوق الزوجة

وعـليَّ أيضًـا أن أتنـازل عـن بعـض حقـوق الـزوج فيـما لا ينفرهـا منِّـي.. لم تتوافـر لـديَّ الشـجاعة لأطلقهـا فأعـترف أني صرتُ عبـدًا لهـا مأسـورًا بعشـقها.. وأنهـا خاطبـتْ بداخـلي ذلـكَ الجانـب الخفـي لفريـد.. مَـن يعشـق المغامـرة والنسـاء ويتلـذذ بضعفـه تجاههـا، دور لا أحـب أن ألعبـه في الواقـع، ولكنـي أسـتمتعُ بـه في الخفـاء وبشـكلٍ مُبـاح.

ودَّعتها وانطلقتُ في إجازةٍ إلى بنتيَّ وأمهما..

وصلـتُ إلى القاهـرة دون موعـدٍ.. وعـلى غفلـةٍ طرقـتُ بـاب منـزلي متلهفًـا لرؤيـة فـرح وهنـا ونـدى.. فقـد كنـتُ كـما طفـلٍ يحبـو ينظـرُ للأعـلى يترقـب يـدًا تأخـذ بيـده ليقـفَ عـلى قدميْـه.. كنـتُ أتلهـف لمَـدَّة أيديهـم لي.. لضمـة بنتـيَّ إلى صـدري.. لاحتضـان زوجتـي نـدى.. بـل الأكـثر مـن حضنهـا كنـتُ أتلهـفُ لأن أقبِّـل يديْهـا وجبينهـا معتـذرًا عـمَّا بـدرَ منِّـي، أن أرتمـي عـلى صدرهـا باكيًـا صارخًـا متوجعًـا مـن ألم الفقـد الـذي عانيتـه وجنـون الشـهوة والامتـلاك الـذي كـفَّ بـصري عنهـا.. طرقـتُ البـاب مـرارًا.. حتـى سـمعتُ صـوت فـرح مـن خلفـه..

ـ مين؟

ـ أنا بابا يا فرح، افتحي يا فروحة.

ـ باباااااااا.. بابا جه يا هنا.. بابا جه يا ماما.

- يا مااااااااامااااا.

- حبيبـة قلـب بابـا فروحـة.. تعـالي يـا هنـا تعالـوا يـا حبايبـي وحشـتوني وحشـتوني.

- إنـت كـمان وحشـتنا أوي يـا بابـا.. إنـت ليـه اتأخـرت أوي كـده المـره دي.. إحنـا كنـا بنعيّـط علشـانك مـن غـير مـا مامـا تشـوفنا.

- يـا حبايبـي.. إنتـوا كـمان وحشـتوا بابـا أوووي وأنـا جيـت أهـو عشـانكم. هـي مامـا فـين؟ نايمـة؟

- لأ.. مامـا كل يـوم بالليـل تدخـل أوضتهـا وتقفـل عليهـا لحـدّ مـا ييجـي معـاد العشـا والكارتـون يكـون خلـص في التلفزيـون ونتعـشى سـوا كلنـا وننـام.

فتحـت إحـدى حقائبـي وأخرجـتُ لهـما بعـض الهدايـا وطلبـتُ منهـما أن تفتحاهـا وأن تلعبـا في هـدوءٍ وأذهـب أنـا لرؤيـة أمهـما ربمـا تكـون نائمـةً.. وعـلى اسـتحياء وهمسًـا اقتربـتُ مـن البـاب وفتحتـه برفـقٍ ويـا لجـمال مـا رأيـتُ.. لم أجـد تعبـيرًا يصـفُ مـا شـاهدته..

كانـت نـدى تفـترشُ سـجادة الصـلاة المخمليـة المُحـلاة بتطريـزٍ مميـز بالألـوان الخـضراء والزرقـاء.. ترتـدي إسـدالًا للصـلاة أبيـض اللـون بـدتْ فيـه كعـروسٍ ليلـة زفافهـا.. ممسـكةً بيدهـا سـبحة مـن الكريسـتال بلـون البنفسـج حباتها

تنساب من بين أصابعها بهدوءٍ ورقةٍ كما لو كانت تعزفُ مقطوعةً روحيةً على آلةٍ غير مرئيةٍ نغماتها استشعرتها دون أن أسمعها.. رائحة الزنبق تملأ المكان.. أضواء الشموع لم يُفسدها ضوء الأباجورة التي ترتكز على المصحف الذي تقرأ به..

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[1]

صدق الله العظيم .

- مين؟ فريد!!

- ندى.

مقتربًا منها فاتحًا ذراعيَّ مقبلًا عليها لأضمها بلهفة وندم الأيام السابقة..

- حمد لله على السلامة يا فريد.

مبتعدةً عني تمنعني بيديْها من بعيدٍ، مشيرةً إليَّ بألا أقتربَ منها.

- إيه يا ندى مش عاوزاني أسلم عليكي.. أنا لسّه جوزك إنتي نسيتي ولا إيه؟

---

(١) سورة الطلاق الآية ٢-٣

- لأ يا فريد ما نسيتش ولا حاجة.. بس أصلي متفاجأة من مجيَّك دلوقتي وعلى غفلة كده.. ليلى معاك؟

- لأ يا ندى.. أنا لوحدي. وحشتوني إفتقدتكم جدًّا.. وحشتوني ومش هاقدر أستغني عنكم تاني "مقتربًا منها أكثر".

- من فضلك يا فريد.. ما تقربش منِّي مش هاقدر أتكلم معاك دلوقتي.

- عارف إنك مش هاتسامحيني بسهولة.. بس عاوزك تصدقي إني فعلًا ندمان على الأيام اللي راحت دي.

- يا ريت تسيبني شوية من غير ما نتكلم في حاجة.. اتفضل إنت إرتاح في أوضتك هنا.. وأنا بكره الصبح هانقل حاجتي مع البنات الكام يوم دول.. معلش سامحني مش هاقدر أتكلم معاك الليلة دي أكتر من كده، تصبح على خير.

***

وصول فريد المفاجئ، للعجب لم يهزني ولم يكن صادمًا بالنسبة لي.. أصبح حبه لي كما الإيمان لمن آمن بعقيدةٍ ما.. يزدادُ وينقص.. كان حبه لي إن لم يزدد فهو ينقص.. لم يثبت على حال.. وهأنذا أعترفُ.. أني قد كفرتُ

بحبه.. لم يعد مكانٌ لرجلٍ بداخلي.. جميع ما أستشعره من خفقات ونبضات وحالة عشق أرتاحُ إليها لم تكن مرتبطةً به أو بغيره من البشر.. كل ما يأتيني ملاصقًا لتلك الأحاسيس ليس أكثر من خيالٍ أو سرابٍ أو ملامح مطموسة غير مرئية لكني أستشعرها بروحي فقط.. ربما صدق مجدي فيما قصَّه عليَّ سابقًا!!هل كُتِبَ عليَّ أن أعشق خيالًا؟ سرابًا؟

ولكن كلماته لم تكن كاملة التحقق في حياتي.. فهأنذا قد تزوجت وأنجبت كسائر البشر.. بيد أنني ما زلت لا أجد سلامي النفسي وراحتي سوى في لحظات خلوتي.. إليه وحده ألوذُ وأبكي وينشرحُ فؤادي.. إليه وحده أبوحُ.. فأنت من أذوب بعشقهِ، أنت مَن أحببته حبًّا لا يعرفه بشرٌ، ضعفي وقوتي بيديْك.. لا تحتاج للبوح بسِرِّي إليك.. في محرابك بكيتُ.. لضآلتي تحت عرشك أتيتُ.. من نهر عرشك توضأتُ.. صلاة في قربك لا تنتهي تمنيتُ.. ذنوبي وإن كثرت لرحمتك سعيتُ.. فهل تقبلني عبدًا لذاتك رغبتُ..

منذ عودة فريد وأنا أقضي معظم ساعات اليوم بغرفتي.. بخلوةٍ أسستها لنفسي، لم أعد أحتاجُ من البيت ولا من الدنيا سوى تلك المساحة المحدودة بأمتارٍ متسعةٍ

بآفاق تعدت السموات السبع.. خلوتي والتي عرفتُ أنها مفتاح سعادتي وما يمتلئ بها الفراغ الداخلي الذي عانيته طيلة أعوامٍ سابقةٍ.. هي من أكون معه بكياني وعقلي وروحي.. نعم معه.. فقد زارني مرةً أخرى بعد طول غيابٍ كما وعدتني أم الرضا.. وكما بلغني من قبل أنه سيكونُ منتظرني عند الطريق الذي أريده.

(إنتي اللي هاتروحي لوحدك.. مفتاحه معاكي إنتي مش مع غيرك وساعتها هاتلاقيني هناك.. مستنيكي ومش لوحدي كمان).

تنفستُ عبير حضوره، كنتُ أتوقُ شغفًا للقائه.. أنار لي الطريق وتركني أقتفي أثره، هذه المرة مدَّ لي يده كما فعل من قبل ولم أكن ألحق به.. اقتربتْ بيننا المسافةُ أكثر، تطلعتُ إلى وجهه محدقةً به علني أفسرُ ملامحه.. اقترب منِّي باسمًا:

- أعلم أنك أرهقتِ نفسك لمعرفتي، ولكني أريدكِ أن ترهقيها أكثر وأكثر لتصلي ولن تصلي إلا إذا بالفعل كنت تريدين.
- بالتأكيد أنا عاوزة أوصل لك.. أنا حاسة إن خلاصي من عذابي مع نفسي هو أنت طريقه.

- عليكِ بالتفكر.. بالتسامح.. بالحب لجميع مخلوقاته حتى من بغضتي.
- أنا ما بكرهش حدّ، ما أسأتش لحدّ، دايمًا الإساءة منهم مش منِّي.
- لا تذهبي خلف السراب فكل من وصل إليه اشتاق للماء، والماء بين يديك.. انهلي منه وارو ظمأك ومَن حولك، ساعدي نفسك وغيرك، أسعدي نفسك وأسعدي غيرك.

استيقظتُ من نومي هذه المرة وأنا على يقين من أنه هو بالفعل.. هو مَن كان جدارًا حافظًا لي كما روى لي مجدي منذ سنواتٍ.. وهو من جعلني أذهبُ إلى السيدة نفيسة لألقى راضية.. هو مَن كان يملأ غرفتي بعطرٍ أحببته وقتما أختنقُ مِن هوى نفسي وضجرها.. هو يا راضية عرفته ولا أريد أكثر. هرعتُ إلى سيارتي، أدرتها مسرعةً جدًّا إلى السيدة نفيسة.. أبحثُ عنها، عن أم الرضا.. لم أجدها.

ذهبتُ إلى خادمة المقام وهي من تُقيم إلى جواره على بُعدِ أمتارٍ ولا تبرحُ مكانها كلما ذهبتُ رأيتها وأولادها وهي أيضًا كانت تُسرعُ الخطى إليَّ لتُسلم عليَّ أو تدعو

لي إثـر إعطائهـا مـا يجـود بـه اللـه عليهـا مـن خـلالي مـن مـالٍ أو مـا شـابه.

بعـد أن صليـتُ وجلسـتُ أسـبِّح وأدعـو.. طـال الوقـتُ وأُذِّن للفـرض التـالي بالمسـجد ولم تـأتِ راضيـة.. سـاورني القلـقُ وسـألتُها:

ـ هي راضية ما جتش النهارده يا أم السعد؟

ـ "مبتسمة" راضية مين يا ضنايا؟

ـ أم الرضا... مالك يا أم السعد؟

أم الرضا اللي كنت بقعد معاها كل ما آجي هنا.

ـ اسـم اللـه عليـكي يـا حبيبتـي.. إنتـي مـن زمـان بتيجـي هنـا لوحـدك تصـلي وتسـبَّحي وتدينـي الـلي فيه القسـمة وتروَّحـي.

..

..

دارتْ الدنيـا بي وكأن الجنـون مسَّـني فلـم أعـد أدري مـاذا أقـول أو أهـذي.. لم أدرِ كيـف عـلا صـوتي ونهضـتُ مـن مـكاني ألتفـتُ يمينًـا ويسـارًا مناديـةً.. رااااضيـة.. أم الرضـا.. راضيـة... وأم السـعد تـضربُ كفًّـا بكـفٍّ محوقلـةً ومسـتغفرةً مقتربـةً منِّـي تحتضننـي وتكـبِّر:

- صلي عالنبي يا ست ندى صلى عالنبي.. يا ستنا نفيسة ردِّيها لعقلها يا ستنا.. دي كانت زي الفل يا حول الله يا رب.

خرجتُ مسرعة الخطى من المسجد لا أرى أمامي من الدموع، ورأسي لم أعد أشعر به.. دوَّار تملكني فلم أكن أعلم أين أنا ولا إلى أين أنا ذاهبة.

***

٢٠

أيامي

صار لي بمصر أكثر من شهر، لم أبرح بيتي ولا ابنتيَّ سوى لساعاتٍ قلائل أقضيها مع أمي وأخواتي، وبصحبة بنتيَّ أيضًا.. لن أكون مبالغًا إن قلتُ إنني لم أجلس مع ندى سوى مراتٍ تُعَد على أصابع اليد الواحدة لتناول وجبات الطعام كأسرةٍ واحدةٍ.. كنتُ أشتاط غضبًا وأحاول ألا أبديه لها خاصةً أني بداخلي فوران لبركان لم يُخمَد إثر ما صار من حوار وموقف ليلى منِّي قبيل عودتي إلى مصر، تمنيتُ أن تأخذني ندى بحضنها لأبكي كطفلٍ صغيرٍ طمعًا في حنوها عليَّ، لم أكن أريد منها حق الزوج، لم أشتهِ منها هذه المرة ما كنتُ أريده سابقًا، كأن ليلى وشمت على قلبي وجسدي بألا أعاشرَ أي امرأةٍ غيرها حتى وإن كانت

زوجتي الأولى.. العجيب أني لم أرَ منها غضبًا أو إساءةً.. لم أرَها عابسةً ولكنها بابتسامةٍ مصطنعةٍ غير متكلفةٍ كانت تلقاني، وبرقة وبراءة كانت تبتعدُ عنى حتى لا أختلي بها مطلقًا.. وأنا للحق كنتُ أستحيي منها كلما رقت في إظهار مشاعر الغضب بطريقةٍ مهذبةٍ وغير جارحةٍ لي كلما استشعرتُ نفسي ضئيل المكانة والحجم إلى جوارها،لا أدري ما سر النورانية التي كستْ وجهها وحالها وهي بطبعها رقيقة الملامح، لكنها كانت بالفعل تشع نورًا.. الأعجب أنني كنتُ سعيدًا بها.. كنتُ أنظر إليها نظرة عاشقٍ ولهان محبٍّ غيور.. مشتاقٍ خجولٍ منكسرٍ.. لا أعرف، أحوالٌ كثيرةٌ ومتضاربةٌ ولكن في مجملها لا تدينها..

حتى جاء يومٌ واستيقظتُ على هاتفي يدق برقمها الخاص.. فلم أجِب على الاتصال ظنًّا منِّي أنها بالغرفة المجاورة ولا تُريد أن تُحادثني، سعدتُ وقمتُ مُسرعًا مُتوجهًا إلى غرفة البنات التي تُقيم بها معهما.. وجدتهما نائمتين وهي غير موجودةٍ.. فتحت الموبايل وجدتُ منها رسالةً تقول إنها أخذت سيارتي لتقضي مشوارًا قريبًا ولن تغيب.

لم أعرِ الموضوع اهتمامًا أكثر من اللازم؛ فأنا أعرفُ ندى أين ستذهبُ فلن تكون في مكانٍ أبعد من زيارة عمتها "أمي".

دقَّ هاتفي برقمها مرةً أخرى.. فسارعتُ بالرد:

ـ ندى إنتي فين يا حبيبتي؟

كان المتحدثُ صوتًا لرجلٍ.. أوقف الكلام بحلقي لمجرد قوله: "ألو"..

ـ ألو.. إنت مين؟ وبتتكلم من تليفون ندى ليه؟ ندى جرى لها حاجة!

....

..

لا أعرفُ كم مضى من الدقائق حتى وصلت إلى عنوان المستشفى الذي أبلغني به المتصل من دقائق، كان طبيب الإسعاف الذي رافق ندى مع سيارة الإسعاف إلى مستشفى قصر العيني.. كان يُحاول أن يهدئَ من روعي بكلماتٍ مطمئنةٍ قبل أن يُخبرني بأنها كانت تقودُ مسرعةً بطريقٍ ضيقٍ مُحاطٍ بأشجارٍ عجوزٍ صوب المقابر بجوار ضريح السيدة نفيسة ولولا عناية الله- وطيبة الست دي- لكنت أستلم جثمانها الآن.

فمن الواضح أن سرعتها وعدم تركيزها أدَّيا إلى اختلال عجلة القيادة بين يديْها مما أدى إلى اصطدامِها بشجرةٍ

عجـوزٍ وتخطيهـا إلى الانحـراف داخـل المقابـر التـي تظهـر عـلى جانـب الطريـق.

ـ طمِّنـي يـا دكتـور.. مـراتي عاملـة إيـه؟ إصابتهـا خطـيرة؟ هاتعيـش يـا دكتـور؟ أنـا عـاوز أشـوفها أرجـوك عـاوز أشـوفها.

ـ احمـد ربنـا يـا أسـتاذ.. المـدام بخـير، ربنـا نجَّاهـا مـن مـوت محقـق.. لـولا الإيربـاج كان القفـص الصـدري تهتـك بأكملـه.. هـي شـوية رضـوض وشرخ في الحـوض هنعمـل الإشـاعات والسـونار ونحـدد بنـاء عليـه حالتهـا.

ـ طيب أنا عاوز أشوفها.

ـ هـي حاليًـا فاقـدة الوعـي طبعًـا.. مـا تسـتهونش بالحادثـة. الحمـد للـه أنهـا بخـير لسّـه.

آه يـا نـدى.. فديتـك بعمـري يـا أم بنـاتي.. ذهـب عقـلي لاستفسـارات سريعـة، مـا الـذي أتى بهـا إلى هنـا؟ هـل كانـت تـزورُ أحـدًا بالمقابـر؟ ومـن لنـا بالمقابـر هنـا؟ ولِـمَ لم تُخـبرني في رسـالتها بمكانهـا؟ ليـس مهـمًّا الآن أي شيء سـوى أن تكـون بخـير.. اتصلـت بأمـي ومـا كانـت إلا سـاعة وكانـت بجـواري هـي وأخـواتي البنـات باكيـاتٍ متعجبـاتٍ لمـا حـدث لهـا.. ومكثنـا جميعًـا ندعـو اللـه أن يترفـق بهـا وبنـا ويشـفيها.

عـدتُ إلى المنـزل وتركـتُ أمـي معهـا بالمستشـفى.. بعـد أن تناولـت فـرح وهنـا عشـاءهما ونامتـا.. نظـرتُ إلى غرفـه نـدى أو خلوتهـا كـما أحبَّـت أن تسـميها، دخلتُهـا ألتمـسُ فيهـا رائحتهـا، وأتجـوَّل بـين أغراضهـا البسـيطة محتضنًـا إسـدال الصـلاة الخـاص بهـا فوقـع بـصري عـلى دفترهـا الخـاص ومـا كانـت تـدوِّن بـه مذكراتهـا.. أو أيامهـا.. كـما كتبـت عـلى غِلافهـا- "أيامـي"- وتصفحتهـا بفضـولٍ.. ولم أكـن عامـدًا أن أصـلَ إلى تلـك الوريقـات.. وريقـات احتـوت عـلى حـوارات تقـتربُ مـن أن تكـون لامـرأةٍ دارسـة للفلسـفة وعلـوم الديـن والحيـاة.. كيـف توصلـت نـدى لهـذا المسـتوى الفكـري؟ لم أتخيـل أن تكـون زوجتـي بمثـل هـذه الصفـات ولم أشـعر بهـا سـوى بعـد أن بـدأتْ تتـلاشى مـن حيـاتي.. تلـك الـروح الهائمـة الرقيقـة التـي كانـت بيننـا تُحـادث نفسـها وآخريـن لم تراهـم أو تعـرف ملامحهـم عـبر شاشـة الكمبيوتـر، ولم أدع لهـا يومًـا مجـالًا لتتحـدث إليَّ.. لتعـبر عـن رأيهـا، لم أدعها تفكـر أن تصبح شـيئًا غـير أن تكـون زوجتـي وأُمّ ابنتـيَّ وفي خدمتنـا ولراحتنـا فقـط.. لم أسـمح لهـا باسـتكمال دراسـتها واختلاطهـا بالعـالم الخارجـي.. كـم كنـتُ أنانيًـا، كنـتُ دائمًـا أوجههـا أو أجعلهـا مسـتمعةً فقـط، في حـين كنـتُ لا أمَـلُّ مـن سرد القصـص الخاصـة بأصدقـائي أو إنجـازاتي.. أو أعـمالي ونجاحـاتي.. كيـف تفوقـت عـلى أصدقـائي بالدراسـة سـابقًا وكيـف أتفـوق عـلى

زملائي بالعمل الآن.. كيف كانوا يستشيرونني دائمًا كوني الأفضل والأرجح عقلًا والأكثر تميُّزًا دائمًا في كل شيء.. وإذا مللتُ أنا من حكايا العمل توجهت بالذاكرة إلى طفولتي ونشأتي وأسرتي وكيف تعديتُ الآلام والمشاكل بفضل فطنتي ونبوغي المُبكر والمتميز عن أقراني وقتها.. كانت تسمعني وتثني عليَّ وتُبدي اندهاشها وإعجابها بمغامراتي التي كررتها عليها كثيرًا ولم تمل.. ولم تشكُ منِّي بل كانت كثيرًا ما تندهشُ وتطلب منِّي تفسيرًا لموقف ما أحكيه لها، لم تكن تشعرني بأنني أصبحتُ مُملًا أو فارغًا لا يوجد لديَّ ما يشغلني سوى اجترار الذكريات وبناء مجدٍ واهمٍ لي من خلالها أتعايشُ معه متفاخرًا به معتزًّا بنفسي.. كنتُ أرى في عينيْها مرارةً ودموعًا مختبئةً وراء ابتسامة رضا مصطنعةٍ أو لعلها كانت ابتسامة استسلام لواقع لم تجد له بديلًا سوى ما أوجدته لنفسها.. تلك المرارة كانت تشفي ذكورتي المريضة بحُبِّ الأنا.. لم أفكر أن أكون أنا صديقها وحبيبها.. أن أكون لها بحبٍّ لا بفرض كياني كزوجٍ فقط.. أن أحتويها.. لم أكن أعلم أني أدفعها للصمت نهائيًّا، دفعتها له لتنجو بروحها منِّي ومن عالم الماديات للأبد.. لم أكن أعلم أني سيأتي عليَّ يومٌ لن أراها ولن أحكي لها ولن تسمعني مطلقًا.. وبدلًا من أن أنصتَ لها أو أخرجها من صمتها ذهبتُ إلى غيرها.. غيرها كانت هي

مـن تتحـدث وأنـا أُنصـت لهـا.. كانـت تأمـرُ وأنـا أنفِّـذ لهـا.. كانـت ليـلى العكـس لنـدى في كل شيء.. وأنـا أحببـتُ كلتيهـما بنفـس القـوة.. لم أسـتطع الاسـتغناء عـن إحداهـما..

لا.. لـن يتـلاشى وجـودك بيننـا أبـدًا، سـتظلين حبيبتـى وأم بنتـيَّ مـا حييـت، قلـب يسـع الكـون بأكملـه بحبـه ويفيـض. أرجـوكِ حبيبتـي كـوني لنـا، كـوني معنـا نحـن مـن نحتاجـك.. أعيـدي لنـا البسـمة، أعيـدي لنـا النـور، أعيديـه إلى الكـون كلـه.. أرجـوكي ابقـي لبناتـك، ابقـي لكـونٍ يحتـاج وجـودك ولـو بـدوني سـأتركك لعالمـك.. فأنـا لا أسـتحقك.

***

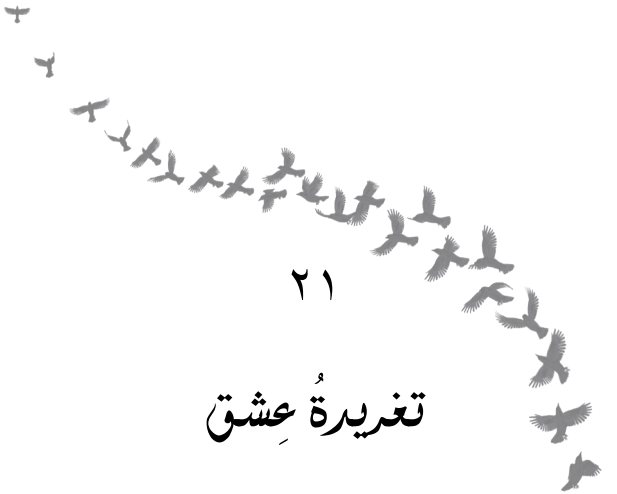

٢١

تغريدةُ عِشق

لا أعلمُ ما الذي حدث لي بعد أن خرجت من مسجد السيدة نفيسة.. كل ما أتذكره هو أن راضية لم تكن موجودةً، أن أم الرضا وهمٌ، سرابٌ، خيالٌ!

مع مَن كنتُ أتحاور!

لمن كنتُ ألجأ وأبكي وأشكو!

مع مَن كنتُ أحكي؟.. عن حبيبٍ لم أرَه وأعايشه في كل أنفاسي!

مِن أين أتيتُ أنا بمسبحةِ أم الرضا؟!!

هى معي وفي خلوتي وفي يدي كل لحظةٍ..

مِن أين أتيتُ بها إذن؟

وأنتَ يا مَن كنت أذهب إليها لأحكي لها عنك..

وكانت تعلمك جيدًا ولا تُخبرني..

أنت مَن حفظتني مِن اغتصاب مجدي..

أنت مَن حفظتني مِن غدر شريف..

أنت مَن صبَّرتني وقت أن خانني فريد..

أنت.. مَن نجَّيتني من حادثٍ كان نهاية حياتي.

أصبحتُ أسمعُ وأرى كلَّ مَن حولي ولا أريدُ التحدث.. أراهم يبكون رقدتي طريحة الفراش.. يبكون حالي وهذياني، معذورون لا يعرفون أنك معي وأحادثك، فهم لا يرونك مثلي، غُشِيَت أبصارهم بزهو الدنيا وأضوائها، لم يُنصتوا لصوتٍ حنونٍ وسط الضوضاء.. اعتادتْ آذانهم الضجيج قلَّما يتذوقون موسيقاك.

أغشى أبصارَهم القبحُ فلم يروا نور بهاك، نور مصدره من الداخل، من الرضا، مِن اليقين بأنك أنت النور ولا سواك.

لم أعد أعرفُ بعد ماذا يجذبكم أيها الرفاق إلى هذا العالم الذي تبغونه من بقائكم بمحيطٍ امتلأ عن آخره بروثِ الأخلاق وانعدام الضمائر والقلوب الميتة.. ما بالكم تلهثون وراء الماديات؟ أبِها سوف تحيون؟ أمنها سترزقون

البقاء؟ وما السر وراء سعيكم إلى الخلود؟ من أجل الحياة تتصارعون.. تلهثون وراء السُّلطَة والمال والنساء والشهوات.. ضاقت الأرضُ بي من كل إنسانٍ يركضُ وراء شهوته، تبًّا لكم جميعًا سأرحلُ وأترككم.. هي لكم استمتعوا بنارها ومُرِّها وعسلِها، هي لكم أفشوا البغض والقبح فيها!

سأرحلُ إلى سمائي التي أسعى إليها، باتت سمائي حُبلى بأحلامٍ لن أُجهضها.. ظللتُ عمري أسعى وراء سرابٍ ووهمٍ.. أعوامٌ أمضيتها خلف الكلمات والقصائد والمشكلات والأبناء أسعى إلى الوصول إلى مبتغاي من تلك الحياة..

لم تعد لي.. لم أعد أحتملُ البقاء بها.. سأستسلمُ لانسحابِ روحي منها، لن أرضى بديلًا عن بقائي بجوار مَن عشقتُ وحلمتُ وتمنيتُ أن أكون بجواره.

هناك.. سألقاه..

هناك سأعرفُ ملامحه وأنعم برؤية وجهه..

لن أتأمله طيفًا وسرابًا وهلامًا..

سأراه وتكتحلُ عيناي بنوره..

هو الغائبُ الحاضرُ..

هو الروح التي تُلازمني..

الحبيبُ البعيدُ القريبُ..

سأبوحُ له بمكنونِ قلبي وهو به أعلم..

سأعزفُ له لحنَ قصائد غزلتها لأجله..

سأنعمُ بقربه لم أعد أحتاجُ لسواه..

لم يعد غيرُه يُغنيني عنه..

ستُحلِّق روحٌ طالما حلَّقَت معه وأنا لا أدري.. ستُحلِّق روحي معه، كان معي وأفتقده.. كان يدعوني ولا أُجيبه.. كان كطيفِي وكنتُ أبحثُ عنه في البشر.. وما هو ببشرٍ ولا بملاكٍ ولا وصف له يُوفيه..

سأرحلُ..

ستلتقي روحانا في مكانٍ واحدٍ.. ستعودُ الروحُ إلى مستقرها.. حيث نعيم الروح والنفس..

لمن غرَّدتْ رُوحي وتمنيتُ أنْ تصله ترانيمي الخاصة.. سأرحلُ..

له فقط كانت ترانيم عشقي.. فقط هو مَن يعرفها ولا سواه..

سأرحلُ وله فقط تغريدتي.. وهبتني الحياة..

وحتى تقبلني جوارك سأحيا لحظاتي لِأهبها لك

كـ "تغريدة عشق".

***

يومًا ما.. سيأخذك قلبك إلى محبوبك..
يومًا ما.. ستهتدي روحك إليه..
فلا تستسلم في غيابات الألم الحزين..
ولتعلم أنه..

يومًا ما.. سيكونُ هذا الألم هو الدواء.

جلالُ الدِّين الرُّومي

"البِـــــــــدَايَة"

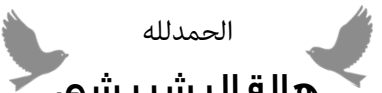

الحمدلله

هالة البشبيشي

أكتوبر ٢٠١٤

تغريدة شكر..

بِحُـرُوفٍ مُحِبَّـةٍ.. تَقَبَّلَهَـا يَـا مَـنْ كُنْـتَ سَـبَبًا- عَامِـدًا أَوْ دُونَ قَصْـدٍ- فِي إِثْـرَاءِ ذَائِقَتِـي الأَدَبِيَّـةِ، مُشَـجِّعًا فَتَحَمَّسْـتُ لِمَدْحِكَ، أَوْ مُحَطِّمًا- عَامِـدًا- فَضَاعَفْـتَ مِـنْ عَزِيمَتِـي عَلَـى قُبُـولِ التَّحَـدِّي.

الشُّكْرُ كُلُّهُ للهِ.. عَلَى وُجُودِكُمْ فِي حَيَاتِي..

قُرَّائِي الْكِرَامُ: جَعَلَنِي اللهُ عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّكُمْ دَوْمًا..

زَوْجِي الْحَبِيبُ، أَبْنَائِي حَبَّاتُ قَلْبِي: لَوْلَاكُمْ مَا كُنْتُ..

شُـكرًا لِلصَّدِيـقِ وَالدَّاعِـمِ وَشَرِيـكِ الحُلْـمِ بِـ«تُويـا» شَرِيـف الليثـي..

شُكْرا لأَصْدِقَاءَ دَاعِمِينَ لِحَرْفِي وَنَفْسِي:
مُحمَّـد الصَّفتـي- مَـرْوَى عـليِّ الدِّيـن- مُحَمَّـد جَـاد اللـه- إِيمَـان الدَّوَاخـلي - مُحمَّـد الرُّوبِي- إيهَاب مُصْطَفَي- مَرْوَة حُسَيْن عَبْدُ الهَادِي عَبَّاس- رَشَا عَبْد اللـه

دُمْتُم أحبَّةً..

درويشة..

الفهرس

حَنِين ١١
غُرْبَة ٢٧
عَهْد ٤١
وجدي ٤٧
فريد ٥٩
زِفَافٌ ٦٧
مِنْ دُونِ الحُبِّ ٧٧
ندى ٨٥
ليلى ٩٣
كافيه العَصَاري ١٠٣
ندى ١٢٧
فريد ١٣٩
ندى ١٥٣
السيدة نفيسة ١٧١
نشوى ١٩٥
ليلى ٢٠٥
هو ٢١٣
أمُّ الرِّضا ٢١٩
لقاء ٢٣٣
أيامي ٢٤٣
تغريدةُ عِشق ٢٥١
تَغْرِيدَةُ شُكْرٍ.. ..... ٢٥٦

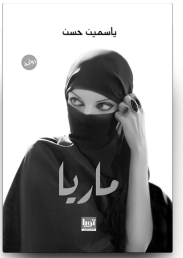

ياسمين حسن
رواية
ماريا

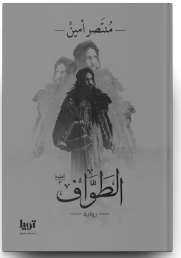

مُنتَصر أمينْ
الطوّاف
الطبعة ٣
رواية

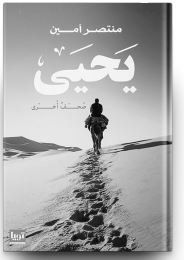

محمد عبد الصمد

منتصر أمين
يحيى
صُحفٌ أخرى

أحمد عويضة
وتتاه لتراه
مجموعة قصصية

عرايا الرّوح
رواية
حلا المطري

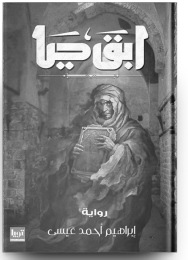

ابقَ حيًا
رواية
إبراهيم أحمد عيسى

معرض الكتاب
إغتيال بدوافع أدبية
رواية
عبدالرحمن جاويش

ملكوت
رواية
شريف عبد الهادي

Subject
الورقة
Book!
النسخة 15000
ألبوم اجتماعي ساخر

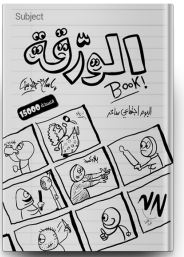

الطبعة 8
رواية
حواديت السعادة
شريف أسعد
تويا

شريف أسعد
#اعترافات_جامدة
الطبعة 11
تويا

رواية
الرّاحِلُون
أحمد إبراهيم موسى
تويا

رواية
الطريق إلى
السيّدة العجوز
محمد آدم
تويا

بالطو وفانله وتاب
أحمد عاطف
إتجاه ساخر

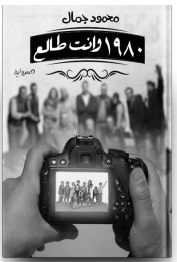

د. محمد طه
الخروج عن النص
تويا

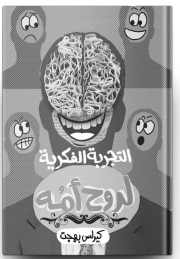

التجربة الفكرية
لروح أمه
كيرلس بهجت

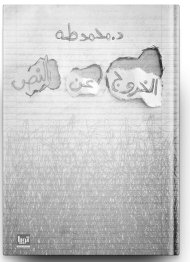

محمود جمال
١٩٨٠ وانت طالع
مسرواية

مجموعة قصصية
أحمد عويضة
زهرة الشيخ
عشق

منتصر امين
رواية
شتاء أخير

مجموعة قصصية
مُراد مَاهر
أولياءُ كاذبون

رواية
الحبيب
محمود الجعيدي

رواية
بنت نبي
محمود حافظ

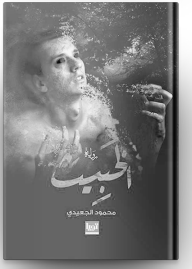

رواية
امرأة
بطعم
التوت
حلا المطري

أحمد عاطف
الحياة على
سطح البطيخ

وقت
جيد
للتحليق
مجموعة قصصية
بيتر ماهر

رامي أحمد
«بث مباشر»
Belly
بيلي
broadcast live